شارع قولة

طه حسين

تحقيق وتقديم

محمد سيد كيلاني

دار الفرجاني

القاهرة - طرابلس - لندن

١٩٨٤

شارع قولة

طه حسين

تحقيق وتقديم
محمد سيد كيلاني

دار الفرجاني

القاهرة - طرابلس - لندن

١٩٨٤

تقديـــم

بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤- ١٩١٨) أوزارها ، بدت فى أوربا ظاهرة غريبة وهى عناية الدول الاستعمارية بتنشيط الروح الدينى والاهتمام برجال الإكليروس ففى بلد كفرنسا اشتهرت بحرية الفكر ، استعاد رجال الدين نفوذهم وأمدتهم الحكومة الفرنسية بالمال فانطلقوا فى شمال افريقية يحاولون تنصير المسلمين . كما أن انجلترا أعانت البعثات التبشيرية فى مصر وجنوب السودان ونيجيريا وكينيا وغيرها من المستعمرات للغرض المتقدم . وقد عملت البعثات التبشيرية فى مصر على تأليف الكتب وحشوها بالمطاعن فى الدين الإسلامي وفى نبى الإسلام ، ابتغاء إحداث فتنة بين عنصرى الأمة وقد انكشف نشاط هؤلاء الأجانب منذ أواخر العشرينات . فانبرى لرد كيدهم وفضح أمرهم جماعة من عقلاء الأقباط فكتب زكى عبد السيد مقالا فى صحيفة البلاغ تحت عنوان « كلمة صريحة » جاء فيه « إننى رجل[1] قبطى أرثوذكسى أغار على دينى وأحب أبناء وطنى عموما ، وأبناء طائفتى خصوصا حبا شديدا ، فإن كنتم - يعنى المبشرين - تقصدون فصم عرى الاتحاد الذى سفكنا فيه الدماء الغالية وأرواح أبنائنا البررة فعملكم جريمة شنعاء فى حق الوطن المقدس ، وأنتم تستحقون النبذ والاحتقار » .

وكتب كليم[2] أبو سيف فى صحيفة البلاغ مقالا تحت عنوان « المبشرون » جاء فيه « أمر هؤلاء المبشرين عجيب فهم - رغم أننى استطيع أن أقسم بأنهم لا دين لهم - مايزالون يرتكبون باسم الدين كل المنكرات والمحرمات التى ينهاهم عنها الدين ، وهم مايزالون فى صفاقتهم وتحديهم لشعور المصريين بتلك الأعمال تحديا ما أظن أناسا رزقوا شيئا من الحياء والأدب يستطيعون إتيانه وتحمل مسئوليته . هناك فئة تطلق على نفسها اسم المبشرين ، هؤلاء يقولون إنهم جاءوا إلى مصر لينشروا فضائل الدين المسيحى بين مختلف الطبقات ، قلنا : أهلا وسهلا فلكل دين فضائل ونشر تلك الفضائل فضيلة مهما كانت الأحوال . فالدين الإسلامى يحض على الفضيلة ، وكذلك الدين المسيحى »

(١ ، ٢) انظر للمؤلف : الأدب القبطى قديما وحديثا ص ١٧٤ .

« فهل تدرى ماذا كانت فضائل المسيحية فى نظرهم ؟ كانت فى التغرير بالغير واستعمال طرق الاحتيال لتنصير الناس ! هل من قواعد الدين المسيحى أن يغرر بالصغار تغريرا حقيرا ليعتنقوه ؟ لا وهل أمركم المسيح أن تتخذوا حبائل الغرام تنسجونها بسوء نية بين الناشئين والناشئات ليعتنقوا المسيحية ؟ لا ، إذن أنتم لستم مبشرين تحثون الناس على التحلى بالفضيلة ، إنما أنتم مجرمون تتخذون الدين ذريعة لارتكاب المنكرات وأنتم تعلمون »

وفى سنة ١٩٣٣ قامت ضجة هائلة إذ انكشف أمر هؤلاء الأجانب ففى مدرسة السلام ببور سعيد نصروا عددا من الفتيات وأطلقوا عليهن أسماء أجنبية . وفى ملجأ آخر ببور سعيد نصروا الفتاة تركية حسن يوسف ولكنها استطاعت أن تفلت من المبشرين وأرسلت خطابا إلى مدير جريدة السياسة (١٥- ٦- ١٩٣٣) جاء فيه :

« وإنى أشكر الله أن نجانى من بين براثن هؤلاء المبشرين وقد كنت أشعر دائما بقلبى أنى مسلمة رغما من وجودى بين هؤلاء القوم ورغم أنهم قد حفظونى عن ظهر قلب صلواتهم وعباداتهم بالإرغام والإكراه . ولقد كنت أشعر أن هناك هاتفا يهتف فى أعماق قلبى أن دين الإسلام هو الدين الذى فطر الله الناس عليه ، ولذلك تمسكت به تمسكا كانت نتيجته تلك الواقعة المشئومة التى قرأها الناس .

كتبت جريدة السياسة (١٤- ٦- ١٩٣٣) تحت عنوان « التبشير بالتعذيب إجرام شنيع خطير النتائج » مانصه « لسنا نجد فى قواميس اللغة نعوتا تكفى لتصوير بشاعة أعمال الإكراه والتعذيب التى يلجأ إليها المبشرون وتلجأ إليها المبشرات لحمل الشبان والفتيات المسلمات على الارتداد عن دينهم واعتناق الدين المسيحى ، ولسنا نحجم دون وصف هذه الأعمال بأنها إجرام فى إجرام ، وأنها جديرة بأن تزج بمرتكبيها فى غيابات السجون » .

وقد وجه أحد النواب سؤالا إلى وزير الداخلية حول التعذيب الذى وقع على الفتاة تركية حسن يوسف ، فقال الوزير :

« بمجرد أن علم البوليس بحصول هذا الحادث قام بتحقيقه وأتمت النيابة هذا التحقيق . وقد تبين أن تركية حسن يوسف ادعت بضربها من ناظرة الملجأ لرفضها اعتناق الدين المسيحى . ولما كشف عليها طبيا وجدت بها كدمات استدعت ملاحظتها بالمستشفى ثلاثة أيام . وقد اعترفت ناظرة الملجأ ومديرته بحصول الضرب من الناظرة ،

لأن تركية خرجت عن حدود اللياقة والأدب ، وأنهما يتركان للتلميذات الخيار فى معتقداتهم الدينية. ولما سئلت تركية عما قررته الناظرة والمديرة أجابت بأنه قد بدا حقيقة ماعدته الناظرة احتقارا لها ولكنها أصرت على أن الرغبة فى حملها على تغيير دينها كانت من أسباب ضربها » .

ومن العجيب أن حركة التنصير هذه قد أتت بنتيجة عكسية إذ دخل فى الإسلام عدد كبير من البروتستانت نذكر منهم سعيد مسعود ثابت وهو أحد المبشرين إذ كتب إلى الدكتور عبد الحميد رئيس جمعية الشبان المسلمين فى ذلك الوقت(١) رسالة جاء فيها سيدى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد .

إننى ولدت من أبوين مسلمين من عربان الهنادى ، ودخلت مدارس الأمريكان منذ الصغر وتعلمت فيها ، وفيها أيضا علمونى المسيحية وبالجملة زوجونى بمبشرة من مبشراتهم واشتغلت أنا نفسى مبشرا ، ورزقت ثلاث بنات وولدا من زوجتى المسيحية الأصل ، وإنى ياسيدى نسبة للأعمال الأخيرة لجماعة المبشرين الأمريكان ، وما كتبته الجرائد ، صرت أعد نفسى خائنا لدينه وبلاده إن مكثت أكثر مع هؤلاء الجماعة مروجا لأضاليلهم وفخاخهم التى صادونى بها ». واعتنق الدين الإسلامي :

١ ــ يوسف غبريال سعد من طنطا وسمى نفسه أحمد محمد المهدى

٢ ــ عبد الملك أسعد من أهالى المحلة وسمى نفسه عبد العزيز محمد

٣ ــ عزيز سمعان ابراهيم من طنطا وسمى نفسه عبد الرحمن المهدى

٤ ــ سعيد سوريال من كفر على أغا بطنطا ، أسلم هو وأولاده وسمى نفسه سعيد عبد الله

٥ ــ عزيز رزق جرجس من المحلة الكبرى وسمى نفسه محمود المهدى

٦ ــ عزيز بولس من طنطا وهو متخرج من كلية الأمريكان وهى مشهورة بتخريج المبشرين وسمى نفسه سعيد عبد الله

٧ ــ عزيزة متى جرجس من طنطا وسمت نفسها عزيزة محمد محمود المهدى

٨ ــ بشارة حسكيان تاجر بطنطا وسمى نفسه عبد السلام المهدى

٩ ــ روفائيل جرجس من مطاى وسمى أحمد راضى

---

(١) الشعب فى (١ - ٣ - ١٩٣٣)

١٠ ــ عازر عبد الملك من بلدة أبى شحاته وسمى نفسه أحمد كمال
١١ ــ ابراهيم جبر حبشى من أسوان وسمى نفسه عبد الله محمد إبراهيم .

*****

كان لحوادث المبشرين رد فعل عنيف عند المسلمين ، وعند الأقباط الارثوذكس . كتب صبحى(١) جرجس سعد من دمنهور :

« ولم يكن من بد لإظهار السخط على أعمال البعثات الدينية الأجنبية وأعنى بها تلك التى تقوم بالتبشير بالدين المسيحى جهارا أو متسترة وراء أمور أخرى كالتعليم أو التمريض ، واستنكار استمرائها لحسن وفادة مصر لها فراحت تغلغل بين الأوساط وخاصة الفقيرة منها فتستغل الضعف للحاجة أو المرض فتحمل بعض أفرادها على اعتناق الدين المسيحى إن كانوا مسلمين ، أوتغيير المذهب والخروج على الكنيسة القبطية إن كانوا مسيحيين وإغواء الفتيات بالرهبنة على غير رغبة والديهن . وقد استفحل أمر هذه الجماعات وجل خطرها إلى درجة لايحسن السكوت عليها حيث وصل استهتار هذه الجماعات بكرامة الأمة المصرية وسلطة حكومتها باستعمال طرق الإرهاب والتعذيب مع من يعصى رغبتهم ممن يقعون تحت تأثيرهم .

وقد حمل طه حسين حملات عنيفة متوالية على المبشرين والتبشير واتهم الحكومة بالتقصير فى حماية الأمة من عدوان المبشرين ، كما أتهم رجال الدين بالتهاون فى مكافحة التبشير . هذا مع أن هيئة كبار العلماء أصدرت نداء جاء فيه « وقد(٢) ثبت أن هذه المدارس – أى مدارس المبشرين – تنتهز فرصة ضعف أولادكم وتشكككهم فى دينهم وتحط من قدر نبيهم وتكون النتيجة إما أن يعيشوا بلادين أو يستبدلوا دينا غير الإسلام بدين الإسلام » : –

وقد شكل الشيخ محمد مصطفى المراغى جماعة الدفاع عن الإسلام فانهالت عليها التبرعات لبناء ملاجىء يأوى إليها الأيتام والفقراء من البنين والبنات . وتبرع مصطفى عمر وباشا أحد أعيان الصعيد بعشرة آلاف جنيه وخمسمائة فدان جعلها وقفا ينفق إيرادها على الفقراء والمساكين والأيتام .

*****

(١) السياسة فى (٢١ – ٧ – ١٩٣٣)
(٢) السياسة (٢١ – ٩ – ١٩٣٣)

أمكن سحب الفتيات الفقيرات من ملاجىء المبشرين وإدخالهم الملاجىء الإسلامية إلا فتاة اسمها نظلة حكيم كانت قد تنصرت منذ سنة ١٩٢٨ وزوجت من مبشر اسمه زكى اسرائيل الفيومى زواجا صحيحا حسب شريعة البروتستانت . وقد رفع جدها دعوى أمام المحكمة الشرعية فى بور سعيد طالبا التفرقة بينها وبين زوجها لأن هذه السيدة قد راجعت نفسها واستقر رأيها على العودة إلى الإسلام . وقد حكمت المحكمة الشرعية بالتفرقة . فلما أرسلت صورة الحكم إلى النائب العمومى ليأمر بتنفيذ الحكم قال : إن مسألة نظلة ابراهيم غنيم مسألة معقدة جدا ، لأن المجلس الملى الانجيلى أصدر فى ٥ - ٧ - ١٩٣٣ حكما يقضى بضم نظلة إلى زوجها زكى اسرائيل الفيومى .

فأجاب الاستاذ(١) عباس الجمل المحامى : إن المجلس الملى الانجيلى يعلم كما يعلم جميع المسلمين أن نظلة ابراهيم قد نصرها المبشرن خفية فى ٢٨ نوفمبر ١٩٢٨ بدون أن يعلم أحد من أهلها ، وكانت فى ذلك الوقت فى سن لا تميز فيه بين الأديان . والمجلس الملى الانجيلى يعلم كما يعلم جميع المسلمين أن نظلة ابراهيم غنيم قد زوجها المبشرون خفية بعد أن استولوا على عقلها . وقد أعلنت إسلامها أمام النيابة فى ٢٩ مارس سنة ١٩٣٣ .

والمجلس الملى يعلم كما يعلم جميع المسلمين أن محكمة بور سعيد الشرعية قد أصدرت بتاريخ ٢٤ - ٤ - ١٩٣٣ حكما بالتفرقة بين نظلة ابراهيم غنيم المسلمة وبين المبشر زكى اسرائيل حكما مشمولا بالنفاذ ، وأن تضم إلى جدها متولى على غنيم .

فأجاب النائب العمومى بأن الفصل فى هذا النزاع يجب أن تؤلف له لجنة خاصة فى وزارة الحقانية .

فاعترض الأستاذ عباس الجمل ، قائلا : نحن من جانبنا نرى أن هذه المسألة لا تدخل فى اختصاص لجنة وزارة الحقانية لأن المسألة ليست مسألة تنازع اختصاص ، وهذا الأمر فى غاية الوضوح .

وأخيرا طلب النائب العمومى من الأستاذ الجمل أن يكتب مذكرة يعرض فيها ما يريده فى هذا الموضوع . وقد بادر الجمل إلى ذلك ومما جاء فى المذكرة :

« تيتمت نظلة غنيم طفلة فاقتنصها المبشرون وتسلطوا على رأسها الصغير بيتمها وفقرها حتى أكرهوها على التنصر فى سنة ١٩٢٨ ولم تكن بلغت سن الرشد القانونية

---

(١) السياسة ١٠ - ٧ - ١٩٣٣ .

لأنها كانت دون الحادية والعشرين ولخوفهم أن تفلت منهم وترجع إلى الإسلام أكرهوها على الزواج من مبشر مسيحى يسمى زكى اسرائيل فى سنة ١٩٣٢ ، ولما أفاقت من ذهولها وثابت إلى رشدها بادرت فى ٢٩ مارس ١٩٣٣ فقررت فى محضر النيابة الرسمى ببور سعيد توبتها إلى الله ورجوعها إلى الإسلام ، وطلبت التفريق بينها وبين زكى إسرائيل ، وأقامت دعوى بذلك أمام محكمة بورسعيد الشرعية حتى صدر الحكم فى هذه القضية فى ٢٤ ابريل ١٩٣٣ بالتفريق بينها وبين زكى إسرائيل حكما صحيحا من محكمة مختصة ، لا شبهة فى اختصاصها لأن القضاء الشرعى هو المختص بالفصل فى مسائل الأحوال الشخصية بين المصريين المختلفين دينا أو مذهبا وقد حال المبشرون دون تنفيذ هذا الحكم .

ولو صح أنها تنصرت فإن الشريعة الإسلامية لاتعترف بالارتداد ولا تقره ولا ترتب عليه آثارا مدنية فالمرتد عن الإسلام فى مصر يكفل له الدستور حرية العقيدة فى دائرة الاعتقاد ، ولكن هذه الحرية فى هذه الدائرة لاتخرجه عن اختصاص القضاء الذى كان خاضعا له وهو مسلم ولا تضيع حقوق المسلمين الثابتة لهم عليه قبل ارتداده . فإذا كانت نظلة غنيم قد تنصرت فإن الدستور يمنع من عقابها على الارتداد ، ويمنع من إكراهها على الرجوع إلى دينها الأول وهذا كل ما يكفله لحرية العقائد ، ولكن نظلة غنيم مادامت فى نظر الشريعة الإسلامية باقية على إسلامها فى أحوالها الشخصية ، فهى كذلك فى نظر القوانين المصرية فما يقره الإسلام من الآثار المدنية يقره الدستور ، ومالا يقره الإسلام من هذه الآثار ينكره الدستور ولا يعترف به .

وإن المحاكم الشرعية المختصة دون سواها بالقضاء فى المواريث تقضى بأن ميراث المرتد عن الإسلام يؤول إلى أقاربه من المسلمين ولا تورث أحدا من أهل الدين الذى ارتد إليه . وإن المحاكم الأهلية والمحاكم المختلطة تنفذ هذه الأحكام ولا تملك الاعتراض عليها .

كل شبهة فى أن للمجلس الانجيلى اختصاصا فى شأن نظلة غنيم قد سقطت وبان على ضوء القانون أنه لااختصاص له ولا يملك أن يقضى فى أى مادة تكون نظلة غنيم خصما فيها . وبهذا كان قراره الصادر فى ٥ يوليو سنة ١٩٣٣ باطلا بطلانا أصليا لصدوره من هيئة غير مختصة بإصداره ، ولصدوره مخالفا للقانون الأساسى للهيئة التى أصدرته .

ولما اشتدت حملة طه حسين على المبشرين وخاصة فيما يتعلق بنظلة غنيم ، كتب اليه القس ابراهيم سعيد مدرس اللغة العبرية بكلية اللاهوت كلمة جاء فيها .

« من حقكم ومن حق غيركم ، بل من واجبكم أن تغاروا على دينكم وان تدفعوا عنه كل اعتداء ، ولكن من الواجب على رجل مثلكم رضع لبان الحرية فى بلد الحرية ويتغنى كل يوم بنشيد الحرية فى بلد لم يزل بعد ينشد الحرية من الواجب على مثلكم ألا يغفل حرية الضمير وهى أساس كل الحريات .

لقد دافعت وأنت فى الجامعة عن حرية الفكر وها أنت تدافع من منبر الكوكب عن حرية السياسة . فهل لك أن تدافع عن حرية الضمير .

الحق كل الحق أن المحكمة الشرعية لادخل لها فى شئون المسيحيين ومنهم نظلة ، ولاحق لها أن تنعقد وأن تصدر حكما غيابيا على نظلة بالتفرقة بين نظلة المسيحية وبين زوجها المسيحى وبضمها إلى أهلها غير المسيحيين وهل من الواجب على نظلة أن ترضخ لحكم الضم وهى صاغرة وقلبها مكسور جريح . قد يقال إن هذه الفتاة أخضعت لتأثيرات خاصة قبل أن تصل إلى سن الرشد فهى لذلك سليبة الحرية .

إن قضية نظلة قضيـة كبيرة فهـى ليست قضيـة الإسلام ، لأن الإسلام لايضيره خروج واحدة منه ، ولا هى قضية المسيحية، لأن المسيحية لاتفخر بدخول واحدة إليها ، وإنما هى قضية الحرية الشخصية .

هل يدرى القارىء كيف انتهى أمر هذه السيدة ؟ قالت جريدة السياسة (٣٠ - ٨ - ١٩٣٣) « إن حكاية نظلة غنيم أوجدت إشكالا دقيقا أمام الحكومة لأن الحكم الشرعى القاضى بالتفرقة ونزع الصبغة المسيحية عن السيدة اصطدم بالأمر الواقع وظروفها الشخصية اصطداما عنيفا ، لأن نظلة لم يعد فى محيطها العائلى من يعنى بها غير جدها الذى تنقصه أسباب هذه العناية ، ولأن المادة الثانية عشرة من الدستور تجعل حرية الاعتقاد مطلقة .

بقى أن نذكر للقس ابراهيم سعيد ما فعلته تركيا الكمالية بالمبشرين وهى دولة لا دينية لقد أغلقت المدارس الاجنبية كلها وطردت المبشرين من بلادها بل واستولت على مقار جمعيات الشبان المسيحيين . جاء فى جريدة « الشعب » فى ١٧ - ١١ - ١٩٣٣ تحت عنوان « زوال آثار جميعات الشبان المسيحيين » « إن البناء الكبير الذى كانت تشغله سابقا جمعية الشبان المسيحيين تسلمه حزب الشعب وافتتح فيه دارا له ، وهكذا تختفى جمعية الشبان المسيحيين من الوجود . وقد علقت جريدة جمهوريت على ذلك بأن هذا اعتراف صريح من المبشرين الأمريكيين بأن دعايتهم للديانة المسيحية البروتستانتية لم

تفلح لإغواء شباب تركيا الناهضة وأضافت الجريدة بأن شارة المثلث التى هى رمز الثالوث المقدس الخاصة بجمعية الشبان المسيحيين قد استبدل بها نهائيا العلم التركى وبرمز حزب الشعب » .

لم تجد نظلة غنيم من يعولها فهاجرت مع زوجها إلى فلسطين وعمل كل منهما فى المستشفى الانجليزى هناك .

وجد طه حسين مادة خصبة للكتابة فى موضوع المبشرين والتبشير والمدارس الأجنبية كما يرى القارىء لهذا الكتاب ففى مقال تحت عنوان « استعداء » يقول « والإسلام الذى نهضت الهيئة – يعنى هيئة كبار العلماء – لحمايته والذود عنه فى حاجة إلى حماية سريعة من الهيئة فماذا فعلت فى أمر هذه المرأة المسلمة التى تنتظر من يخلصها من الأسر ، ويردها إلى ولاية المسلمين ؟ » وهو يقصد نظلة غنيم .

ويرى طه حسين أن العلاج الصحيح لأمر المبشرين إنما هو فى إخضاع مدارسهم ومدارس غيرهم من الأجانب للمراقبة المصرية الدقيقة بحيث يستطيع المفتشون المصريون أن يختلفوا إليها ويستمعوا لما يلقى فيها ويمتحنوا تلاميذها ويسألوهم عما يسمعون وعما يفعلون فإن آنسوا من بعض هذه المدارس خروجا بالتعليم عما يلائم منفعة مصر وحاجتها وكرامتها ودينها آذنوا وزارة المعارف بهذا الخروج وأنفذت وزارة المعارف فى هذه المدارس حكم القانون .

وقد تجاهل طه حسين وجود الامتيازات الأجنبية التى كانت تحول بين الحكومة وبين تنفيذ ما يدعو إليه فلما زالت هذه العقبة خضعت المدارس الأجنبية للرقابة الحكومية وإن كانت ما تزال تحمل أسماء لها إيحاء دينى .

كما بالغ طه حسين كثيرا فى وصف المبشرين فطالب الحكومة بأن تصد طغيانهم على الدين والاخلاق والأعراض . ويقول تحت عنوان « تلهية » « لتجعلهم فى مأمن من عدوان المبشرين على دينهم وأخلاقهم وأعراضهم » والحقيقة أن المبشرين لم يعتدوا قط على الأخلاق والأعراض فالدين المسيحى يحض على التمسك بالفضائل التى ينادى بها الدين الإسلامى . وأما الأعراض فلا يستطيع منصف أن يلصق هذه التهمة بأحد من المبشرين. ولم يشكل المبشرون أى خطر على الإسلام والمسلمين .

وإنما الخطر كل الخطر جاء من غير المبشرين . جاء من قوم هجموا على المركز العام للإخوان المسلمين وألقوا بالمصاحف وكتب الفقه والحديث على الأرض وداسوها بالنعال ثم أشعلوا فيها النيران .

واعتدوا على الأعراض وارتكبوا كل موبقة ، كطلبهم أن يقرأ الانسان فاتحة الكتاب من آخرها إلى أولها ، استهزاء بكتاب الله .

إن الخطر على المسلمين جاء من هؤلاء ، ولم يجىء من المبشرين الذين كانوا يلتقطون الفتيات اليتيمات من الشوارع والطرقات ، فيجدن عندهم المأوى والملبس والمأكل فإن دعوهن إلى اعتناق المسيحية ، فهذا عملهم وتلك مهمتهم . فلا عيب عليهم إنما العيب على المسلمين الذين انعدم بينهم التكافل الاجتماعي .

والله الموفق إلى ما نرجو من النفع

القاهرة فى أول يناير ١٩٨٤

محمد سيد كيلانى

مناظــرة

بين بحر ونهر

بمناسبة موضوع الإنشاء فى الشهادة الابتدائية تفضل كاتب أديب من أصدقائنا فروى هذه المناظرة البديعة التى كانت بين بحر ونهر منذ شهر وأكثر من شهر والتى سمعها مفتش من مفتشى وزارة المعارف فأراد أن يمتحن بها الصبيان لتتبين الحكومة أصبياننا أبلغ أم بحار الأرض وأنهارها .

ومن المحقق أن نتيجة الامتحان ستظهر قصور الصبيان فى هذا الفن من فنون البيان ، ومن المحقق أيضا أن إذاعة السؤال الذى ألقى على الأطفال قد شاقت الناس جميعا إلى أن يعرفوا جلية الأمر بين البحر والنهر فلا جرم آثرنا أن نجعل مقال الكاتب الأديب حديث المساء فى هذا اليوم ، وأن نهدى هذا المقال بالنيابة عن صاحبه إلى وزير التقاليد ورجال التعليم فى وزارة المعارف لعلهم يشعرون بأن أعسر الأمور وأشقها أن يقاس الصبيان فى فن البيان بالأنهار والبحار .

ولعل الذين سيصححون الامتحان يستفيدون من هذا المقال فيعرفوا وجه الحق فى فضل البحر على النهر ، أو فضل النهر على البحر ، ويعصمهم ذلك من ظلم الصبيان المساكين ، فنحن لا نشك ولا نرتاب فى أن علم المصححين بهذه المسألة كعلم التلاميذ ، يسير ضئيل لا يجلو شكا ولا يزيل شبهة . وأكبر الظن أن وزير التقاليد سيدعو إليه المفتش الذى وضع هذا السؤال ليتبين منه أمر هذا المقال ، أمطابق هو لما سمع من البحر والنهر ، أم فيه شيء كثير أو قليل من التغيير والتبديل؟ وأكبر الظن أن بلاغا رسميا سيصدر لينبئنا برأى المفتش فى هذا الحوار .

طـه حسيـن

أخذ النهر ينحدر من أعالى الجبال وهو يجمع ماءه من الجداول والعيون ومن الثلوج المتراكمة والبحيرات المنتشرة ، ثم لم يزل يهوى من منحدر إلى منحدر ، ومن جندل إلى جندل ، ومن واد إلى واد حتى وصل بعد سير طويل وجهد غير قليل إلى بحر عظيم فسيح ، فأخذ ينصب فيه انصبابا ، وينسكب فيه انسكابا .

ثم قال له بعد أن دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى « أيها اليم الخضم المفعم ! نعمت صباحا ، ولقيت نجاحا ، ولازلت ممتعا بصحة وعافية وعيشتك ناعمة راضية » .

« ياحبذا أنت أيها البحر ، لولا أن ماءك ملح أجاج ، وأنك دائما فى غضب وهياج وارتعاد وارتجاج ، وإنك تكثر الزئير والصياح ، ثم لا تتحرك إلا إذا دفعتك الرياح . أو لست أنت يانسل الأمجاد الذى قال فيك العقاد .

« يا حبذا البحر فى عمق وفى سعة ∴ لو كان من سكر أو كان من عسل

فأما وأنت خال من السكر ومن العسل فإنى لا أراك تنفع فى الدنيا ولا تشفع فى الأخرى » .

قال الراوى : « فلم يكد البحر يسمع هذا المقال حتى استولى عليه الغضب وأخذ يرغى ويزيد ،وانبعثت من سطحه أمواج كالجبال فاندفعت نحو النهر فصفعته ثم عادت فلطمته .

وقال للنهر : « ويل لك من لكع سيىء الأدب ، لا تعرف لنفسك قدرا ، ولا تدرك مما فى الوجود أمرا ، فأنت أيها المجرى الحقير الضئيل الذى له طول وليس له عرض ولا عمق والذى لو شئت لطمسته طمسا ومحوته من الوجود محوا ، لعمرى إنى الجدير بابتلاعك أنت والأنهار جميعا لولا أنك وعصبتك أحقر من أن أكثرت لكم أو أضيع وقتى فى جدالكم .

فقال النهر « على رسلك أيها الشيخ ! وأخلق بك أن تهدىء من غلوائك وتخفض من كبريائك وإلا فمتى اختلت موازين الأمور فأصبح الفضل للضخامة والجسامة ؟

ماذا يجدى حجمك العظيم وسطحك الطويل العريض ، وهذا ماؤك مالح ووجهك كالح وعملك غير صالح . انظر إلى ! ما أعذب مائى كالسلسبيل ، وما أحسن خريره

وقت الأصيل ، وما أبدع مجراى من منظر جميل . الناس جميعا يغترفون من مناهلى فكم رويت ظمآن وأشبعت جوعان ! ومن ذا الذى يقرن الملوحة إلى العذوبة ، ويفضل المرارة على الحلاوة ؟ فاعترف إذن بقصورك وعجزك ، ودعنى من همزك ولمزك .

قال الرواى : فعند ذلك زخر البحر وزمجر ، وعلا واستكبر ، ووضع رجلا على رجل ، وجعل يبرم شاربه بيساره ، ويشير مهددا بيمينه وقال للنهر : يا وضيع النسب وقليل الأدب ، أما تعلم أنى أنا الذى أمدك بالماء إذ يتصاعد من سطحى البخار ، ثم تحمله الرياح سحابا ، ثم تلقى به مطرا ، ثم يسيل جداول وأنهارا حقيرة مثلك . فيالك من كافر للمنة ، جاحد للنعمة . والله لئن منعت عنك الماء والمطر لجف أيها الشقى حلقك ، وشاه خلقك ، وانطمست معالمك وجفت مسايلك ولكنى لحسن حظك أنت وزمرتك ، رجل واسع الصدر ، لا أحفل بالصغار أمثالك ، ولا بالصغائر . فدعنى أيها الحقير فإنى عن جدال مثلك فى شغل .

فأجابه النهر وهو يحاوره ، لكن فى شىء من السخرية والتهكم اللاذع على طريقة برناردشو وطه حسين فقال : أجل لعمرى إنك لفى شغل حقا ! فى شغل كثير عنى وعن أمثالى ! ولولا أننى أجرى فى أرض مصر وهى بلاد المضحكات ، وقد ألفت رؤية المضحكات واستماعها حتى لم تعد تضحكنى،لولا ذلك لقهقهت ضاحكا حتى بدا لك ما بقاعى من الحصى والرمال .. أنت إذن فى شغل عنا أيها البحر ! عظيم جدا ، ولكن قل بأبيك إن كان لك أب : ما هذا الذى يشغلك ؟ أهو شىء آخر سوى التخريب والتدمير والإغراق والإرهاق ؟ تسليتك الكبرى أن تظفر بسفينة مسكينة فتسلط أمواجك عليها ، ثم تتلاعب بها ذات اليمين والشمال ، وبعد أن تمعن فى تعذيب ركبها تأخذ فى ابتلاعهم والتهامهم ، وإن بك جوعا لا يشفى وعطشا إلى الدماء لا يروى وشرها ونهما ليس للضوارى مثلهما ، وبطنا أعترف لك أنه واسع فسيح ، ولكن ملآن بالسحت وبالمال الحرام . فأى فخرلك فى هذا لو أن بك من الفهم بقدر مالك من الحجم .

أما أنك المصدر الذى يمدنا معشر الأنهار بالماء ، فهذا كلام قصير النظر الذى لا يرى أبعد من أنفه ، ولو أنك لبست منظارا ترى به الأمور على حقيقتها لأدركت أن الماء الذى يتصاعد بخارا ثم يصير سحابا ، إنما تثيره الشمس بحرارتها ، وترفعه إلى السماء رغم أنفك ، ولو كان الأمر إليك أنت لما ظفرنا منك بقطرة واحدة . وعلى كل حال فإنا نرد إليك ماء جاريا ، لا بخارا طائرا ، ولو أن ماء الأنهار على كثرته لا يكفى –

ويا للأسف - لأن يكسبك حلاوة وعذوبة وستبقى مدى الدهر صابا علقما ، وملحا أجاجا .

فهنالك لم يطق البحر صبرا على ما توهمه قحة وبذاءة من نهر حقير ضئيل ، فأرسل مده على النهر فطمسه وأخفى معالمه إلى حين فياويل الضعفاء والمساكين من الأقوياء المستهترين .

قال الراوى : وكان مفتش من وزارة المعارف المصرية بالقرب من مكان الحوار فأعجبه ما سمع وأقسم ليجعلنه موضوعا لإنشاء العربية فى امتحان الشهادة الابتدائية .

مشغـول

طبعا ، وأى انسان أكثر شغلا فى هذه الأيام من صاحب الفضيلة مولانا الأكبر شيخ الجامع الأزهر ؟ فبين يديه أعمال ثقال تنوء بالجمال والجبال فضلا عن الرجال . وهذه الأعمال منها ما هو معروف ، ومنها ما هو مجهول . وليس من حق الناس جميعا ، ولا من طاقتهم أن يعرفوا ما يشغل به مولانا وأمثاله ، وإنما يتاح لهم شىء وتخفى عليهم أشياء ، فهم يعلمون مثلا أن مولانا مشغول بأمر هذا الشيخ المفتش الذى يتهمه بعض الناس بأنه سرق من أموال الدولة ويقول فيه بعض الناس إنه لم يسرق وإنما كذب . ومولانا مشغول بتحقيق الأمر وإنفاذ حكم الله فى الشيخ إن كان سرق وإجراء حكم الله على الشيخ إن كان كذب والناس يعلمون أن مولانا مشغول بأمر هذا الرجل الذى يزعم أنه شهد الدروس أعواما عدة حتى إذا أدى الامتحان وأصبح من العلماء كشف الله لمولانا حجب الغيب فتبين له أن العالم الجديد قد خدع الرقباء وغش الأرصاد وخيل إليهم أنه حضر مع أنه لم يحضر وأنه اختلف إلى الدروس مع أنه لم يختلف إليها .

فرفع الشيخ أمره الى المجلس الأعلى وألغى امتحانه ، واسترد إجازته فلما كان فى ليلة من الليالى هتف به هاتف فى النوم بشىء من العتب واللوم وقال له : لقد تعجلت فى أمر هذا المسكين ، وأسرفت عليه بهذا العقاب ، فمن الذى يستطيع أن يجزم بأنه حضر أو بأنه لم يحضر ؟ وأنت تعلم حق العلم أن لبعض الصوفية كرامات تمكنهم من أن يحضروا ويسمعوا ويعلموا ويقولوا ثم لا يراهم أحد ولا يشعر بهم أحد . فجائز أن يكون الشيخ قد حضر بروحه لا بجسمه ، وأنت تعلم حق العلم أن من الناس من يرزقون شيئا من الكرامة يتيح لهم أن يحضروا أمكنة مختلفة ويسمعوا دروسا متباعدة ويشتركوا فى أعمال متباينة ويخطبوا فى اجتماعات متعددة فى وقت واحد وشخصهم قائم مكانه لم يبرحه ولم يتجاوزه ، والناس يرونه ويطيفون به ويتحدثون إليه ، فجائز أن يكون هذا العالم الجديد المظلوم قد حضر الدروس فى الأزهر ، وصلى فى المسجد الأقصى ، وصلى فى المسجد الحرام ، وصلى فى

كوكب الشرق فى ١٤ - ٦ - ١٩٣٣ .

المسجد النبوى ، وصلى فى المسجد الأموى ، وزار بغداد وإرم ذات العماد ! وهو جالس فى مكتبه فى وزارة الحقانية ، لم يغب عنه ، ولم يفتقده أصحابه لحظة أو بعض لحظة . ولأمر ما قيل يجب أن تحمل حال المسلم على الصلاح فلا يكذب حتى يقوم البرهان القاطع على كذبه ، وأين السبيل إلى إقامة البرهان القاطع على كذبه ؟ وأين السبيل على إقامة البرهان على أن هذا الشيخ لم يكن من أصحاب الأبدال ؟

قال الراوى : فأفاق الشيخ حائرا مضطربا بعض الشيء ، لا يدرى بما يقضى فى أمر هذا الشيخ أيمضى فى حرمانه من شهادة العالمية أخذا بظواهر الأمور ؟ أم يسعى فى ردها عليه أخذا بحديث أهل الباطن ؟

فلما كان من الليلة المقبلة جاءه هاتفان يسعيان أحدهما من يمين والآخر من شمال ، أحدهما قصير عريض المنكبين ، والآخر طويل ، ضيق ما بين الكتفين ، أحدهما من مراكش ، والآخر من اليمن ، وكلهم شهد أمام الشيخ ، وكلهم أكد للشيخ أنه رأى هذا العالم الجديد يختلف إلى الدروس فى الأزهر ، وأنه كان يختلف معه إلى هذه الدروس ، فالتفت الشيخ إلى صاحب اليمين فسألة: ما اسمك ومن تكون ؟ قال الهاتف فى لهجة مغربية : أنا عراف بن نظاف ، رجل من أهل مكناس ، ولدت فى القرن السابع ونشأت على حب العلم ، ومازلت أختلف إلى دروسه فى جميع أقطار الأرض . فنفع فى قلبى كل هذه الدروس على اختلاف لغاتها ومصادرها . قال الشيخ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم !! أإنسى أنت أم جنى ؟ قال الهاتف : ومتى رأيت الناس يعمرون كل هذه القرون ، ويأتون من الأمر مثل ما آتي ؟ إنما أنا رجل من جن مكناس . وهم الشيخ أن يلتفت إلى صاحب الشمال فابتدره الرجل قائلا : كفيت السؤال عنى يا مولانا ، أنا جنى من أهل الأحقاف ، هاجرت إلى اليمن حين افتتحها الأيوبيون والتقيت فى بعض أسفارى بهذا الشيخ عن يمينك فاصطحبنا واشتركنا فى طلب العلم : فلما رأينا ظلم هذا العالم الجديد أشفقنا عليك وعليه فجئنا نردك إلى الحق ، ونهديك إلى الصواب . وأفاق الشيخ حائرا مضطربا فى أمر هذه الهواتف ، أيصدقها ويرد إلى الشيخ شهادته أم يكذبها فيمسك الشيخ فيما هو فيه من حرمان ؟ والشيخ فى هذا كله تهتف به الهواتف إن كان الليل وتعتريه الهموم إن كان النهار . وفى أثناء ذلك ترسل السياسة إلى الشيخ مندوبا ليتحدث إليه عن المبشرين .

أف للسياسة ! وأين الشيخ من المبشرين ؟ ومن ذا الذى زعم للسياسة أن الشيخ فارغ البال ليتحدث عن التبشير والمبشرين إنما يتحدث عن التبشير والمبشرين رجل فارغ

البال ، هادىء الحال كالأستاد المراغى ، لا تهتف به هواتف الليل ولا تعتلجة هموم النهار هذا الرجل هو الذى يستطيع أن ينكر التبشير وأن ينصح للحكومة والأمة بالإعراض عن المبشرين والضرب على أيديهم ، ولو أن الاستاذ المراغى مشغول بالدفاع عمن يتهم بالسرقة أو الكذب أو بهما جميعا . ولو أن الاستاذ المراغى مشغول بهتاف الهواتف وطواف الطوائف ، لرد مندوب «السياسة» خائبا كما رده مولانا الأكبر أمس . فأما والأستاذ المراغى فارغ البال فليتحدث ، والحديث عن المبشرين فرض كفاية إذا قام به المراغى سقط عن الظواهرى . وقد تحدث المراغى أول أمس فسكت الظواهرى أمس ، ولكن « السياسة » قليلة العلم بأحكام الفقه ، فهى تعتقد أن على كل عالم من علماء الدين أن يتحدث عن المبشرين . والحديث عن المبشرين لا يخلو من ضرر ، ولاسيما حين يكون المتحدث من أهل المناصب الكبرى . فهو قد يغلو فيستقيل أو يقال . وقد يقصر فتسوء به الظنون ، لذلك لا يفرض الحديث عن المبشرين إلا على علماء الدين الذين لا يخافون على منصب ولا يشفقون على مرتب ولا يتعرضون لإقالة أو لاستقالة .

ستقول ولكن الأستاذ المراغى كان للأزهر ، ولو قد سئل فى أمر المبشرين يومئذ لما تلكأ ولا اعتذر ، ولا خاف إقالة ولا استقالة وسيكون الأستاذ المراغى شيخا للأزهر وسيسأل يومئذ عن المبشرين وغير المبشرين ، وسيجيب يومئذ بكلمة الحق ، لا يخاف على منصب ولا يشفق على مرتب . وأنا أوافقك على هذا كله ، لا أشك فيه ولا أرتاب ، ولكنى أبين لك السبب ليزول العجب . فالشيخ المراغى لا يعرف الخوف لأنه لم يتعود أن يلقى الهواتف من أهل مراكش وأهل اليمن . وإن شئت الوضوح فقل إنه ليس من أهـل الباطـن ، وهـو لهذا لا يخاف ولـو قد كشفت له الأسرار ، وانجلت عنـه الحجب ، وعرف ما يضمره الدهر لأصحاب الشجاعة والصراحة لأشفق كما يشفق غيره ولخاف كما خاف غيره ، ولقال لمندوب « السياسة » حين ذهب إليه : إليك عنى فإنى مشغول !!

عـــلاج

وأخيرا بحثت الوزارة فأطالت البحث ونقبت الوزارة فأكثرت التنقيب ، ثم هداها الله بعد الجهد الطويل والعناء الثقيل والإشفاق من سوء العاقبة وانتقاض الأمر عليها وفساد الصلة بين المصريين والأجانب عامة ، وبين المصريين والمبشرين بنوع خاص إلى شيء من الشجاعة يسير نهضت به لمعالجة التبشير فنفت مبشرة أجنبية من الأرض ، والله يعلم أنفتها نفيا مؤقتا يكون بعده رجوع قريب ؟ أم نفتها نفيا متصلا لا رجعة بعده ، ولا إياب ؟

ولكنها نفتها على كل حال ووقفت مع المبشرين عند هذا الحد الذى لا تستطيع فيما يظهر أن تتجاوزه إلى أبعد منه . ثم بحثت وأطالت البحث ونقبت وأكثرت من التنقيب ، وهداها الله إلى شيء من الكرم والجود على المصريين بعد الإسراف فى الكرم والجود على الأجانب فقررت أن تستنقذ الفتيات المسلمات من مدرسة التبشير فى بورسعيد لتضمهن إلى مدارسها وملاجئها ، وإلى مدارس المسلمين وملاجئهم . وهذا حسن من غير شك بشرط ألا يكون من لهو الحديث ولا من هذه الوعود التى يقصد بها إلى التلهية والتسلية ، وإلى تهدئة الخواطر وتخدير الأعصاب كما يقولون . ومن المحقق أن الناس ينتظرون من الوزارة أن يكون برها بهذا الوعد صادقاً ، لا التواء فيه ، سريعا لا إبطاء به . وهم يتمنون ألا يؤجل اعتماد هذا المقدار الذى وعدت الحكومة به أمس إلى الدورة البرلمانية المقبلة فإن شدة القيظ توشك أن تذيب هذا الوعد إن طال به الانتظار ، وآية ذلك أن الانجليز أشفقوا على اعتماد جيل الأولياء أن يذيبه الصيف فتعجلوا الحكومة فى أن تمضيه لهم إمضاء ، وتختطفه لهم من المجلسين اختطافا ، وآية ذلك أيضا أن الشركة الأمريكية التى تمهد لخزان تسانا أشفقت على الخمسين ألفا أن يذيبها الصيف فتعجلت الحكومة فى الإمضاء والوفاء والحكومة تتعجل هذا المقدار ما وسعها التعجل ويقال — ولعل ما يقال أن يكون كذبا ، ولكنه يقال على كل حال — إن الحكومة قدمت الإمضاء

كوكب الشرق فى ١٥ – ٦ – ١٩٣٣ .

على كل إجراء ، ودفعت خمسين ألفا قبل أن يأذن لها البرلمان فى هذا الأداء . فالناس يتعجلون الاعتمادات المالية فى هذه الأيام مخافة أن يذيبها حر الصيف أو يصيبها الحيف ، ومن حق المصريين أن يتعجلوا هذه الآلاف السبعين التى وعد بها وزير الداخلية أمس ، وأن يروا أمر هذا الاعتماد يسلك طريقه القانونية مسرعا أو ما شئت من الوزارات تنشىء هذه المدارس الموعودة ليكون الأمر عملا ، لا قولا ، وجدا لا هزلا ، وليخلص من المبشرين وإغرائهم عدد مهما يكن قليلا فهو مصرى يحب أن يخلص لمصر وللإسلام .

ومازلنا ننتظر قبل أن نصدق حتى يكون الوفاء ، فالوعد كثير والكلام يسير ، والحمد أكثر والثناء أيسر ، ولكن البر والتنفيذ هما اللذان يجب أن نرجوهما ولا نصدق حتى نظفر بهما .

وبعد هذا كله نستأذن الوزارة فى أن نلفتها إلى أن ما اتخذت من إجراء إلى الآن مهما يكن حسنا منتجا ، فهو بعيد كل البعد عن أن يكون علاجا صحيحا مغنيا لهذه المشكلة الثقيلة ، مشكلة التبشير والمبشرين . فمهما تنف الحكومة من المبشرين والمبشرات فلن تستطيع أن تغلو فى ذلك ، فسيكون خطر عظيم وهناك تعليم حر ينشره قوم من رجال الدين الأجانب على اختلاف دياناتهم ومذاهبهم يقصدون به ظاهر الأمر إلى التعليم والتثقيف وهو من هذه الناحية نافع حقا ، مفيد حقا ، ولكنه لا يقف عند التعليم والتثقيف ، وإنما يشارك التعليم الأجنبى فى إضعاف القومية المصرية ، وبسط النفوذ الأجنبى ويتفرد بدعاية دينية ظاهرة أو خفية ، مقصودة أو غير مقصودة ، لها فى الشعور الدينى للأطفال أثر بعيد ، فلابد إذن من أن تنهض الدولة بمراقبة هذه الأنواع المختلفة من التعليم لتعصم الأخلاق والقومية والدين من هذا الفساد الذى يسعى إليها سعيا قويا ملحا لا أناة فيه . وقد همت الوزارة القائمة بإصدار تشريع يمكنها من مراقبة التعليم الحر ، وجدت فى ذلك حتى هيأت مشروع القانون وأذاعته فى الناس لتعرف رأيهم ، لكنها سكتت عنه فجأة ، وانصرفت عن المضى فيه لأسباب غير ظاهرة . وأكبر الظن أنها لم تفكر حين وضعت هذا التشريع أوجدت فى إصدارة إلا فى شىء واحد سياسى ، هو بسط سلطانها على المدارس الحرة المصرية فقيض الله لها من أشار عليها أن تبسط سلطان هذا القانون على المدارس المصرية والأجنبية . وهناك كفت عنه وأهملته إهمالا وآثرت أن تترك هذا القانون على أن تقف من الأجانب موقفا لا يرضونه ، وأنت تعلم مقدار ما أظهرته وزارتنا القائمة من الحرص على رضى الأجانب منذ نهضت بأعباء الحكم .

مهما يكن من شيء فإن العلاج الصحيح لأمر المبشرين إنما هو فى إخضاع مدارسهم ومدارس غيرهم من الأجانب للمراقبة المصرية الدقيقة بحيث يستطيع المفتشون المصريون أن يختلفوا إليها ويستمعوا لما يلقى فيها ، ويمتحنوا تلاميذها ويسألوهم عما يسمعون ، وعما يفعلون ، فإن آنسوا من بعض هذه المدارس خروجا بالتعليم عما يلائم منفعة مصر وحاجتها وكرامتها ودينها آذنوا وزارة المعارف بهذا الخروج وأنفذت وزارة المعارف فى هذه المدارس حكم القانون .

على هذا النحو ، وعلى هذا النحو وحده تأمن مصر ناحية من أخطر النواحى التى يسلكها الأجانب سواء منهم المبشرون وغير المبشرين إلى نفوس التلاميذ والطلاب . فلتتشجع الحكومة أو ليتشجع البرلمان أو لتتشجع الحكومة والبرلمان جميعا وليصدرا هذا القانون ، فهو إن صدر أراح المصريين وأراح الأجانب أيضا . هو يريح المصريين لأنه يكف عنهم كثيرا من الشر ، وهو يريح الأجانب لأنه يحميهم من سوء ظن المصريين فيهم ، ويقيم الصلة بينهم وبين المصريين فى التعليم على أساس من المودة والصفاء والتعاون القيم الذي لا ريبة فيه .

ولكن أتظن الوزارة القائمة تجرؤ على إصدار هذا القانون ؟ أتظنها تستطيع أن تتقدم إلى الأجانب أصحاب الامتيازات تطلب منهم أن يخضعوا مدارسهم لمراقبتها وتفتيشها ؟ هذا عدل من غير شك ، هذا شيء من أوليات السيادة القومية والاستقلال الطبيعى ولكن العدل شيء وإقرار العدل شيء آخر وإذا عجزت وزارة عن أن تقر العدل بين المصريين الذين لا يمتاز بعضهم من بعض أمام القانون فماذا تظنها تصنع بالقياس إلى الأجانب الذين يعتصمون بالامتيازات ويحتمون بما لبلادهم من بأس وسلطان .

اللهم إن كل محاولة لاقصاء المبشرين لا قيمة لها ولا غناء فيها مادامت معاهدهم حرة طليقة لا تستطيع الحكومة أن تدخلها أو تراقبها أو تصل إليها إلا بعد أن يقع فيها الشر ويصبح أمرا لا سبيل إلى تداركه أو منعه من الوقوع .

حـــزم

أما قبل أن يتكلم وزير الداخلية فى مجلس النواب عن موقف الحكومة من المبشرين ، فقد كانت صحيفة الوزارة مستخذية ، شديدة الارتباك ، تعتذر عن الوزارة وتلح فى الاعتذار ، وتلقى تبعة التبشير وما يسلك إليه المبشرون من طرق الإكراه والعبث على هذا الشعب البائس لأنه يرسل أبناءه وبناته إلى هذه المدارس والملاجىء ، ولأنه لا ينشىء المدارس والملاجىء الإسلامية التى تعلم الفقراء وتؤوى البائسين وتصرف أولئك وهؤلاء عن هذه المعاهد التى يملؤها الخطر على الدين والأخلاق .

ولم تكن صحيفة الوزارة تتحرج من أن تنال من خصوم الوزارة فى دينهم وأخلاقهم وكرامتهم معتمدة فى ذلك على أكاذيب الكاذبين من شيوخ الأزهر ، واختلافات المختلفين من غير شيوخ الأزهر ، زاعمة أننا آخر من ينبغى أن نتحدث عن المبشرين أو يذود عن الدين ، لأن واحدا أو غير واحد من المأجورين والموتورين ، والذين لا يشفقون من أن يبيعوا ضمائرهم بمنصب أو مقدار من المال قليل أو كثير لفق طائفة من الأكاذيب واصطنع طائفة من الأضاليل وأعانته الحكومة الإسلامية الصالحة القائمة التى يقطر منها الايمان ويتصبب منها الورع كلما قالت أو تحركت أو عملت ، فأخذ يذيع أكاذيبه وأضاليله بأعين الحكومة التى تدفع عن الدين ، وتذود عن الأخلاق ، ولا تؤثر إلا الحق والصدق فيما تعمل وما تقول ، ولكننا لم ننتظر رأى حامى الإسلامى وراعيه ، ووزير التقاليد ومن يعمل لهما من هؤلاء الذين يتخذون دين الله تجارة ويسلكونه طريقا إلى هذا النعيم الزائل فى هذه الحياة الزائلة . لم ينتظر رأى هؤلاء السادة الأخيار الأبرار الأطهار لندفع عن الحق ونذود عن الدين ، ونبلى عن هذا والدفاع عن ذاك ، بلاء نود لو قام ببعضه شيخ الأزهر ومن إليه من أصحابه الطاهرين الطيبين ، والله يعلم ما نذكر ذلك تمدحا به، ولا فخرا فما قصدنا قط فيما عملنا إلى تمدح أو فخر ، وما قصدنا قط فيما عملنا إلى دفاع عن أنفسنا أو انتقام لها ، ولو قد شئنا بعض ذلك لكان لنا من علماء

---

٢٧ كوكب الشرق فى ١٦ – ٦ – ١٩٣٣ .

الدين الذين يكذبون على الدين ولكان لنا مع المتجرين بالورع موقف أو مواقف يشفقون منها كل الإشفاق ويفرون منها كل الفرار ، ويودون ولو بجدع الأنوف وصلم الآذان لو رد عنهم شرها ، وصرف عنهم نكرها ، فالله يعلم ماذا صنعوا بهذه الضمائر ولكن إلى حساب الله ورأى الناس .

فلندع سخف هذه الصحيفة والذين يمدونها بالأكاذيب والأضاليل فيما يمسنا ، ولنقف عند أحاديثها عن الوزارة وسيرتها مع المبشرين فأما قبل أن يلبس وزير الداخلية ثوب الحزم هذا الذى لبسه فى مجلس النواب أول أمس ، فقد كانت صحيفة الوزارة رائعة زائغة ، تدفع عن الوزارة بالراح وتلتمس لها المعاذير ، وتتهم خصومها بالإغراق والإسراف وبالتجنى والتمنى . وأما بعد أن استأسد وزير الداخلية وأعلن بملء فمه فى مجلس النواب أنه نفى مبشرة من الأرض وأنه سيستنقذ فتيات المسلمين من مدرسة بورسعيد ، وأن الوزارة أعدت مقدارا من المال لإنشاء المدارس والملاجىء للفقراء والبائسين ، فقد رد الروح إلى صحيفته وانبعث فيها النشاط واضطربت فيها الحياة وانطلق لسانها بالحمد والثناء ، وبالفخر والكبرياء فأخذت تصف حزم الوزارة وحسن بلائها فى الدفاع عن الدين وكيف لا ؟ ألم تجرؤ الوزارة فتنفى أجنبية من أرض مصر ؟ وكيف لا ؟ ألم تكرم الوزارة فتؤوى الفقراء والبائسين ؟ وكيف لا ؟ ألم تغرق الوزارة فى الكرم فترصد الأموال لإنشاء الملاجىء والمدارس تؤوى إليها الفقراء والبائسين ؟

ولكن صحيفة الوزارة فيما يظهر محتاجة إلى أن يعلم الناس حقيقة هذا الأمر ليتبينوا أن الوزارة أقل ماتكون استحقاقا للثناء على ما أتت وما وعدت لأنها لم تأت شيئا ولم تعد بشىء ، ولو قد تركت إلى نفسها لظلت جامدة ، وصامتة ساكنة ، لا تعمل ولا تقول .

لقد وفق المسلمون من أهل بورسعيد حين لم يحفلوا بالوزارة ، ولم يلجأوا إليها بعد أن استعداها الناس واستغاثوها فلم يجدوا عندها غناء ولا بلاء . وفق المسلمون فى بورسعيد حين أعرضوا عن الوزارة هذه المرة وفزعوا إلى مقام حضرة صاحب الجلالة الملك يستعدونه ويلوذون به ويطلبون إليه أن يأمر حكومته لترد عنهم هذا البلاء ، وتصرف عنهم هذه المحنة .

هنالك وجد المسلمون فى بورسعيد من جلالة الملك سميعا لهم عطوفا عليهم رفيقا بهم ، حريصا على أن يدفع عنهم هذا المكروه . نعم ، ووفقنا نحن حين أعرضنا عن الوزارة فلم نطلب إليها شيئا ولم نستعن بها على شىء ، وإنما رجونا أن يتفضل صاحب

الجلالة فيأمرها لتطيع ، وينفخ فيها من روحه القومى لتجد شيئا من الشجاعة تستعين به على النهوض بواجبها بعد أن قامت الأدلة القاطعة على أنها حين تترك لنفسها لا تصنع شيئا .

جلالة الملك إذن هو الذى تفضل فأمر الوزارة أن ترصد من أموال المسلمين ما تحمى به فقراء المسلمين من عبث المبشرين . ونحن واثقون كل الثقة بأن الوزارة لو أجرت أمر صاحب الجلالة كما أراد وكما صدر إليها لكان حزمها أشد ، وسعيها أدنى جداً إلى التوفيق .

ولكنها أنفذت أمر جلالة الملك كما استطاعت وكما وسعتها الشجاعة فجاء سعيها منقوصا وعملها بعيدا عن التوفيق . نعم لو أنفذت الوزارة أمر جلالة الملك على وجهه لما اكتفت بنفى مبشرة من أرض مصر ، بل لعطلت هذه المدرسة تعطيلا ، ولقطعت على المبشرين كل سبيل للعبث بدين الأطفال فى بورسعيد . وآية ذلك أن « الشعب » نفسها تذكر أمر جلالة الملك للوزارة ، وعطف جلالة الملك على الشعب ، وذود جلالة الملك عن الدين ، وهى تذكر ذلك لا مستنتجة ولا مستنبطة ولا متخيلة ، وإنما تذكره مستيقنة رواية قد تحدث بها اليها مصدر يثق بما يقول . وآية ذلك أيضا أن « الشعب » تنبئنا بأن الوزارة كانت تريد أن ترصد مبلغا كبيرا من المال فلم يرض جلالة الملك عن هذا المبلغ بل تفضل فأمر الوزارة أن ترفعه حتى بلغت به سبعين الفا ، والله يعلم أى مقدار كانت الوزارة تريد أن ترصده لهذا العمل ، وأكبر الظن أنه كان كبيرا عند صحيفة الشعب ، يسيرا فى حقيقة الأمر ، وقد كنا أمس نخشى أن يكون وعد الوزارة بإرصاد هذا المبلغ من المال كلاما من الكلام وأمنية من الأمانى . فأما وقد ظهر أن صاحب الجلالة هو الذى أنطق الوزارة بهذا الوعد ، وهو الذى رفع هذا المقدار إلى حيث هو فنحن مطمئنون إلى أن البر بهذا الوعد لن يتأخر وإلى أن انتظار الوفاء لن يطول ، لأننا نعلم حق العلم أن جلالة الملك لن يترك سبيلا إلى المطل والإخلاف . فالشكر إذن خالص لجلالة الملك لا على الوزارة ، والشعب يعرف كيف يلقى عطف جلالة الملك بحبه الخالص وولائه الصادق ، وإخلاصه المتين .

أما الوزارة فإنها تشفق مما طلبنا إليها من العلاج الصحيح لمسألة التبشير ومن الدفاع الصحيح عن الدين والقومية والأخلاق : تشفق من المراقبة الدقيقة التى نلح فى أن تفرضها الدولة على المدارس الحرة سواء منها المصرية والأجنبية . تشفق من هذا لأنها تشفق من الامتيازات ولأنها تخاف إن سعت فى فرض المراقبة على المدارس الأجنبية أن

يتنكر لها الأجانب ، ويزوروا عليها وهى على رضا الأجانب حريصة وإلى عطف الأجانب محتاجة ، وفى حب الأجانب راغبة تشفق من هذا ، ولولا إشفاقها لما نام القانون بعد أن هيىء وأذيع واستفتى فيه الناس ، تشفق وتصور صحيفتها هذا الإشفاق تصويرا مخزيا لا يلائم كرامة ولا عزة ، ولا يلائم وزارة الاستقلال هذه التى أفحم رئيسها رئيس الوزراء الانجليزى برده التاريخى المشهور والمعروف الذى لا يشك أحد فى أنه هيىء على غير علم من الانجليز ، وكتب على غير موافقه من المندوب السامى وأرسل على غير رضا من وزارة الخارجية البريطانية والذى لا يشك أحد فيه أن المستر ماكدونالد لم يكد يقرؤه حتى أخذه الدوار ،واستيقن بأن الوزارة المصرية تعرف كيف ترد الدول الكبرى إلى مواقفها المتواضعة ، وكيف تصد المعتدين حين يتعرضوا لأمورها الخاصة فتضطرهم إلى التسليم والاعتذار .

نعم إن هذا الإشفاق من فرض المراقبة على المدارس الحرة تصوره صحيفة الوزارة تصويرا لا يشرف الوزارة فهى تزعم أننا إنما نطلب هذه المراقبة تعجيزا للوزارة وتحديا لها وتكليفا لها مالا تطيق ، نستغفر الله ، ومتى جاز لأحد أن يعتقد أن هذه الوزارة الكريمة الحرة ، أن هذه الوزارة العزيزة المستقلة ، أن هذه الوزارة التى أفحمت مكدونالد[1]

(١) جاء فى التصريح الذى فاه به المستر ماكدونالد رئيس الوزارة البريطانية فى لندن ، ونشر مفصلا فى أهرام (١٨-٧-١٩٣٠) مانصه :

« إن الحكومة البريطانية أرسلت تعليمات إلى السير برسى لورين المندوب السامى فى ذلك الوقت تطلب منه فيها أن يبلغ صدق باشا رئيس الوزراء أنها تعده مسئولا عن حماية أرواح الأجانب وممتلكاتهم فى مصر . وإن السير برسى كلف أيضا بإبلاغ النحاس باشا أنه يجب حل مشاكل مصر الداخلية بدون أن تتعرض أرواح الأجانب ومصالحهم للخطر ، وأنها تعده مسئولا مع الحكومة إذا تعرضت تلك المصالح والأرواح للخطر .

وقد أبلغ فخامة المندوب السامى فى هذا التصريح لحضرة صاحب الدولة إسماعيل صدقى باشا رئيس الوزراء . وقد دعى دولته وسعادة الدكتور حافظ عفيفى باشا لتناول الغداء فى دار المندوب السامى » حيث اتفقوا على صيغة للرد على هذا التبليغ ومما جاء فيه :

« ترى الحكومة المصرية – ولم يكن يسعها إلا أن ترى – فى التبليغ الذى تفضلتم بإرسالة إلى أن الموقف الذى اتخذته الحكومة البريطانية أخيرا لا يكاد يتفق مع تصريحاتها المتكررة بأنها ستراعى بالنسبة لمسائل مصر الداخلية مقتضيات الحياد الدقيق » .

« فإن ذلك التبليغ فى الحين الذى يشير إلى تصريح ٢٨ فبراير ويراه مانعا من كل تدخل فى مسألة داخلية محضة كالمسألة الدستورية ، يعقب بأن الحكومة البريطانية لا تنوى أن تكون أداة للاعتداء على الدستور . وقد يكون لإعلان نية الحكومة البريطانية محل لو أن الحكومة المصرية التمست معونتها فى تنفيذ ذلك الغرض ، ولكنها لم تفعل وما كان – ومصر دولة مستقلة – أن تفعل ذلك . فذلك الإعلان من جانب الحكومة البريطانية لا يمكن أن يؤول هنا إلا على أنه

تعجز عن أن تراقب التعليم فى أرض مصر . من الذى يقدر أن هذه الوزارة التى لا تحفل إلا بمصر ، ولا تحرص إلا على مصر ، ولا تشفق إلا على مصر ، تعجز عن أن تقول

تدخل بمعنى معين . وفى تلك الشئون الداخلية التى لم ينكر تصريح ٢٨ فبراير نفسه حق مصر المطلق فى التصرف فيها » .

« أما الحوادث التى جرت فى الاسكندرية والتى يؤسف لها فلا شك أن ما روى عنها على عجل لم يسمح بتصويرها على صورتها الحقيقية ، وقد يبنتم طبعا أن السلطات المحلية تغلبت عليها بسرعة ، وأنه بعد فورة قصيرة لم تلبث السكينة أن تنشر ظلالها . والآن وقد أصبح الذين أثاروا هذا الهياج المصطنع ، خدمة لدعاة الفتنة رهن يد العدالة فلا خوف على مصير الأمن فى الاسكندرية »

« والآن وقد استقر النظام لا إخال سعادتكم إلا تتبينون أن وجود البوارج البريطانية فى المياه المصرية لم يعدله وجه من حيث غرض المحافظة الذى قصد من إرسالها » .

« ولم يبق إلا أن أرجو سعادتكم ان تعربوا للحكومة البريطانية عما تراه الحكومة المصرية فى عبارة التبليغ التى تشير إلى مسئولية غيرها ، فإنها وإن كانت لم يملها طبعا إلا الحرص على المحافظة على أرواح الأجانب وأموالهم ، قد تحمل على أنها غض من سلطان الحكومة القائمة بالأمر ، وتشكيك فى انفرادها بالمسئولية وهى وحدها التى تسأل عن حالة البلاد وتخاطب فى هذا الشأن فيجر ذلك إلى غير ما قصد إليه من تلك الإشارة مما قد يعيق من قوة التدابير التى تقضى بها إعادة النظام » .

قالت الأهرام : « ولا ندرى هل بلغت حكومة انجلترا أن هناك نية فى تغيير قانون الانتخاب حتى ترسل إلى المندوب السامى مثل هذا القول . وأهم من هذا أن يثبت المستر ماكدونالد فى تصريحه بالاتفاق مع المستر بلدوين رئيس حزب المحافظين ومع حزب الأحرار على النحو الذى بسطناه أن تصريح ٢٨ فبراير لا يمنع انجلترا من التدخل الفعلى فى مسألة داخلية من هذا القبيل أى تغيير قانون الانتخاب .

حقا إن هذا الحق الذى تعطيه انجلترا لنفسها بهذا القول لهو حق جديد لم نسمع به من قبل . وكل ما نعرفه من تصريح ٢٨ فبراير عن مسألة الدستور وقانون الانتخاب أن الكلمة فيه لمصر . وهذا القانون – أى قانون الانتخاب قد غير مرتين ، ولا نعرف للسياسة الانجليزية تدخلا رسميا فيه . فمن أين جاء اليوم حق التدخل لانجلترا بحكم تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ .

ومن رعى غنما فى أرض مسبعة   ونام عنها تولى رعيها الأسد .

هذا هو الفصل الأول من تصريح مكدونالد ، وبالأحرى هذا هو الفصل الأول من سياسة انجلترا القومية باتفاق أحزابها الثلاثة .

وقالت الأهرام « إن النحاس باشا ليس حاكما وإذا كانت عليه مسئولية فهذه المسئولية هى أمام حكومته . فكيف يصبح مسئولا أمام الحكومة الانجليزية ؟

إن المسئوليات تتطلب المؤاخذه عن العمل أو العقاب ، فهل إذا قام فى ذهن الحكومة الانجليزية غدا أن دولة النحاس باشا هو المسئول عن تعرض أرواح الأجانب ومصالحهم للخطر ، تتولى هى بنفسها دون الحكومة المصرية مؤاخذته؟ إن هذا الأمر غريب فى بابه .

للأجانب ان مصر بلد مستقل وهو لا يسمح بأن يلقى إلى أبنائه من العلم إلا ما يلائم حاجتهم ومنفعتهم وكرامتهم ، من الذى يقدر أن هذه الوزارة تعجز عن أن تستمتع بأبسط حقوق السيادة ، بل تعجز عن السعى لتستمتع بأبسط حقوق السيادة .

يذكرون الامتيازات ، زعموا أن فى مصر نظاما يقضى بأن تطلب الحكومة إلى جمعية المحكمة المختلطة الموافقة على بعض القوانين التى تريد مصر أن تنفذها فى الأجانب وزعموا أن مصر قد طلبت ومازالت توافق على كثير من هذه القوانين . فلماذا لم تطلب الوزارة إلى هذه الجمعية أن توافق على هذا القانون ، كما أشير عليها حين كانت تجد فى إصداره ، هل تستطيع الوزارة أن تبين للناس موقفها الغريب هذا . لقد اندفعت فى العناية بهذا القانون حتى خيل إلى الناس أنه قد يصدر فى غيبة البرلمان ، ثم اندفعت فى إهمال هذا القانون حتى اعتقد الناس أنه مات قبل أن يشهد الحياة . أين هذا الشيطان الذى خنق هذا القانون قبل أن يشهد النور ؟ أأجنبى هو أم مصرى ؟ وفيم كانت هذه العناية المسرفة ؟ تفسير ذلك يسير كانت الوزارة تريد أن تتخذ هذا القانون أداة سياسة للتأثير فى المدارس الحرة المصرية بعد أن تبين لها أن سياسة الإعانة وبذلها عن جود ، أو منعها أو التقتير فيها لا تكفى لنشر الدعوة .

لتسمح لنا الوزارة وصحيفتها فى أن نقول غير مترددين إن الحكومة فى حاجة إلى شيء من الشجاعة لتوقظ هذا القانون من نومه أو لتبعثه من موته ولتسعى لدى الدول الأجنبية فى تنفيذه على المدارس الحرة كلها . نعم ولو تركت الوزارة إلى نفسها لما التفتت إلى هذا القانون ولا فكرت فيه . ومع ذلك فإنه وحده الخليق بحماية الأخلاق المصرية من عبث المفسدين ، وهو وحده الخليق بحماية الإسلام من عدوان المبشرين .

أفيؤذن لنا فى أن ندع الوزارة بعد أن يئسنا منها فى الضرب على يد المبشرين ، وفى أن نفزع إلى حضرة صاحب الجلالة الملك مرة أخرى ، ونطلب إلى جلالته أن يتفضل فيأمر وزارته بأن تخرج هذا القانون وتجد فى إنفاذه على المصريين والأجانب ؟ أفيؤذن لنا فى أن نرفع إلى جلالة الملك أن الأخلاق المصرية فى حاجة إلى الحماية ، وأن القومية المصرية فى حاجة إلى الرعاية ، وأن الدين الرسمى للدولة فى حاجة إلى الصيانة ، وأن سبيل هذا كله إنما هو مراقبة الدولة فى دقة وأمانة ونزاهة للتعليم الحر سواء منه المصرى أم الأجنبى ؟ أفيؤذن لنا فى أن ننتظر أن يتفضل جلالة الملك فيشمل برعايته السامية هذه الناحية من حياة المصريين ؟

حصـــار

مازال الخلاف متصلا بين العمال وشركة السيارات ومازالت مصالح الناس معطلة فى غير عذر واضح ولا سبب مفهوم . والأيام تمضى وتمضى ، والناس يحتملون ما يحتملون من مشقة الانتقال ، والحكومة تنتظر إلى أولئك وهؤلاء ، تتكلف النشاط حينا ثم لا تلبث أن تطمئن إلى صمت طويل ، وسكون عميق كأن شيئا لا يحدث فى القاهرة ، وكأن مئات الألوف من أهل هذه المدينة لا يتعرضون لألوان الجهد والعناء ، ولضروب الضرر والشر فى غير ذنب جنوه ، ولا إثم اقترفوه .

غريب جدا موقف الحكومة من مصالح الناس ، فهى قد أنشئت لترعى هذه المصالح وتحميها وتصونها من عبث العابثين ، وهى قد مكنت من ذلك وأمدت بكل أنواع القوة التى تتيح لها القيام بواجبها على أحسن وجه وأكمله ، ولكنها مع ذلك تنظر إلى هذه المصالح المعطلة والمنافع المهدرة والحقوق المضيعة نظر المستهين الذى لا يحفل ولا يكترث كأن هذه الأحداث لا تقع فى مصر ، وإنما تقع فى بلد أجنبى يجب أن تقف الحكومة منه موقف الحياد وبين الشركة وبين الحكومة عقد يلزم الشركة العناية بمصالح الناس ، فإذا قصرت فى ذلك أو عجزت عنه كان من حق الحكومة أن تلغى امتيازها وأن تتخذ ما ترى من الإجراء لتمكين الناس من أن ينتقلوا فى سهولة ويسر كما تقضى مصالحهم ومنافعهم المختلفة المعقدة فى مدينة ضخمة كمدينة القاهرة . وقد شجر الخلاف بين الشركة وعمالها وانتهى أمره إلى إضراب العمال ، وعجزت الحكومة أو أظهرت العجز عن إزالة هذا الخلاف ، ورد العمال إلى العمل فكان من الحق عليها ، وقد حيل بينها وبين الإصلاح أن لا تضيع مصالح الناس الذين لا ذنب لهم فيما يسىء الصلات بين المختلفين . ولو أن الحكومة أظهرت الحزم حقا وحرصت على تنفيذ هذا العقد فى غير لين ولا تكلف للين ، وفى غير ضعف ولا تكلف للضعف لانتهى الأمر إلى إحدى اثنتين ، كلتاهما تحقق المصلحة وتحفظ الكرامة وتعصم الشعب أن يصلى نار الإضراب وهو لم

كوكب الشرق فى ١٧ - ٦ - ١٩٣٣ .

يشبها ولم يلق فيها الحطب . فإما أن يلغى الامتياز ويرد أمر النقل إلى أولئك الذين كانوا يشتغلون به ، ويقومون عليه ، فيفيدوا لأنفسهم ، وهم مصريون ، ويفيدوا لمواطنيهم وهم مصريون خيرا كثيرا ، ويرد إلى المصريين أمر من أمورهم على كل حال . وإما أن تشفق الشركة من إلغاء الامتياز فتلين فى سيرتها مع العمال وتبذل شيئا من الجهد الصادق لإرضائهم وردهم عن العمل فيستريح الناس ويأمنوا على مصالحهم ويستريح العمال ويطمئنوا على حياتهم ومستقبلهم وآمالهم . وأولئك وهؤلاء مصريون على كل حال ، قد أنشئت الحكومة لحمايتهم ورعايتهم إن لم نقل ما ينبغى أن يقال دائما ، وما ينبغى أن تتعود الحكومة سماعه والإيمان به وهو أنها قد أنشئت لخدمتهم ، لا لشىء .

ولكن الحكومة لم تقدر شيئا من هذا فيما يظهر ، ولم تفكر فيه كما ينبغى أن يكون التفكير ، فيقال إنها أنذرت الشركة بعزمها على تنفيد هذا العقد وأمهلتها عشرة أيام لتعيد حركة السيارات فى المدينة كما كانت ، فلما انقضت هذه الأيام العشرة ، لم تنفذ الحكومة شيئا ولكنها مدت الأجل وأطالت المهلة إلى أوائل الشهر المقبل فيما يقال . ومعنى هذا أنها رضيت أمرين ، أحدهما ليس لها أن ترضى به ، ولا ينبغى أن تتهاون فيه ، وهو تعطيل مصالح الجمهور أياما متصلة والزام هذا الجمهور أن يحتمل المشقة ويتكلف العناء ، لا لشىء إلا لأن الشركة والعمال لا يستطيعون أن يتفقوا ، ولأن الحكومة لا تريد أو لا تستطيع أن تريد أخذ الشركة بتنفيذ عقد الالتزام . والآخر أمر مهما يكن رأى الحكومة فيه ، ومهما يكن عذر الحكومة فى الصبر عليه ، فهو ثقيل ممض ، لا يستطيع المصريون أن ينظروا إليه فى غير حزن لاذع وألم عميق ، وهو أن هؤلاء العمال قد أصبحوا فى حال تشبه حال الحصار ، مضطربين يخيرون بين الإذعان لما تريد الشركة أو التعرض للجوع والحرمان .

وقد كان ينبغى إذا لم تستطع الحكومة أو لم ترد أن تؤيد العمال فيما يريدون أن تقف موقف الحازم العدل فتشتد على المضربين ، وتشتد على أصحاب رأس المال ، ولا تقبل من أولئك ولا هؤلاء عبثا بمصالح الناس ، ولا تعطيلا لها . ولو قد فعلت لما وجدت الشركة بدأ من أن تيسر الأمر ولا تعسره ، ومن أن تصطنع اللين والعافية مكان هذه الشدة التى تصر عليها وتلح فيها . وأكثر من ذلك أن الحكومة لم تقف عند هذا الحد ولكنها فيما تنشر الصحف أيضا أمرت رجال الشرطة فمنعوا ما كان يسعى فيه بعض العمال من جمع الإعانة لهؤلاء العاطلين ، وقبضت على الذين كانوا يجمعون هذه الإعانات كأنهم يأتون منكرا من الأمر وإثما ، فلما رفع أمر هؤلاء الناس إلى النيابة لم تر

النيابة ماتؤاخذهم به أو تعاقبهم عليه فأطلقتهم وردتهم كما كانوا أحرارا . هذا التصرف من الحكومة مؤلم ، لأنه يلقى فى روع الناس أنها لا تقف موقف الحيدة المطلقة ، ولكنها تنحاز إلى فريق دون فريق ، تنحاز إلى الفريق القوى لتعينه على الفريق الضعيف . وأكبر الظن أن الحكومة لم تصدر هذا الأمر انحيازا للشركة ولا تشجيعا لها ، ولكنها ظنت أن جمع الإعانات لهؤلاء العمال تشجيع لهم على هذا الإضراب ، فأرادت أن تمنع هذا التشجيع لأن القوانين لا ترضاه ، ولكن إعانة الجائع المحروم شيء وتشجيعه على الإضراب شيء آخر ، فمن حق هذا المضرب أن يعيش ، ومن حقه أن يأكل حتى يجد عملا يلتمس منه العيش والطعام ، وليس فى الأرض قانون يحرم على الناس أن يطعموا الجائع ، ويغيثوا المحروم حتى يفتح الله له بابا من أبواب الفرج ، ويمهد له سبيلا من سبل الحياة .

ومهما يكن من شيء فإن اتصال الإضراب شر ثقيل يجب رفعه فى أسرع وقت ممكن ، هو شر قبل كل شيء على الناس الذين تعطل مصالحهم بغير ذنب ، وهو شر على العمال الذين يضطرون إلى البطالة ويتعرضون لأثقالها وآثارها المنكرة . وهو شر على الشركة التى تصيبها الخسائر المادية فى كل يوم ويسوء بها ظن الناس كلما اتصلت هذه الحال ، وليس من هذا المأزق إلا مخرج واحد يحقق العدل والإنصاف والمنفعة جميعا ، وهو أن تقف الحكومة موقف الحزم حقا فتنفذ القانون فى غير هوادة ولا لين بالقياس إلى الفريقين المختصمين .

ونحن واثقون بأن الحكومة إن سلكت هذا الطريق وآثرت خطة الحزم وحمت مصلحة الجمهور فى غير تردد ولا ضعف لم يكن بد من أن ينقضى الإضراب ومن أن ينقضى فى وقت قصير .

فتنـــة

لم يكن من الخير أن تثار ، ولم يثرها أحد من المصريين ، وإنما أثارها قوم من هؤلاء الذين تغريهم المنفعة بالشر ، ويفسد عليهم التعصب كل شيء ، فلا يتحرجون من اقتراف الجرائم ، ولا يترددون فى اجتراح الآثام ماداموا يجدون فى ذلك تحقيقا لمنفعة أو إرضاء لحاجة ، أو شفاء لغل . هؤلاء الذين أقبلوا إلى هذه البلاد ضيوفا فلم يرعوا لها حركة ، ولم يحفظوا لها عهدا ، وإنما اعتدوا على أهلها جميعا سواء منهم المسلمون وغير المسلمين ، يفتنونهم فى دينهم ويصرفونهم عنه بألوان الغواية وضروب الإكراه .

هؤلاء هم الذين أثاروا الفتنة ، وقد أثاروها مرة ومرة . وقد ثبت المصريون لهم وصبروا عليهم ، وطلبوا إلى حكومتهم أن تقر الأمر فى نصابه وأن ترد هؤلاء الناس إلى حيث يجب أن يكونوا من رعاية القانون ، والخضوع للنظام . وكانت الصحف المصرية ومازالت لا تعرض لهذا الموضوع إلا محتاطة ، ولا تتكلم فيه إلا متحفظة لأنها كانت ومازالت تقدر أن إثارة العواطف الدينية خطر يجب الاحتياط فيه ، والتحفظ منه ، ولكن هؤلاء الناس مضوا فيما قصدوا إليه ، وألحوا فيما عمدوا إليه من فساد ، وقصرت الحكومة أو عجزت عن النهوض بواجبها فلم تحم دين المصريين ولا كرامتهم ولاعزتهم القومية حتى انتهى الشر إلى غايته وبلغ عدوان هؤلاء الناس أقصاه فإذا الصبيان ينصرون جهرة ، ويصرفون عن دينهم فى وضح النهار ، وإذا أحكام القضاء تعطل وتعجز الحكومة عن إنفاذها ، وإذا أوامر الحكومة تهمل وتعجز الحكومة عن أخذ هؤلاء الناس باحترامها ، وإذا ضروب الكيد للمصريين تكثر وتنتشر حتى تتناول كل شيء ، فالفتيات يسلط عليهن الحب حتى إذا تورطن فيه دفعهن إلى الردة ، وجعل لغير المسلمين سلطانا عليهن . فلما انتهى الأمر إلى هذا النكر وضج الناس من شره ، همت الحكومة بشيء من الحزم ولكنها لم تبلغ به شيئا ، فهذه مبشرة أخرى فى بورسعيد سافرت ولكنها توشك أن تعود ، وهذه مبشرة أخرى فى بورسعيد تتحدى الحكومة فتأبى أن تسلم لها الفتيات المسلمات . وهذا حكم من أحكام القضاء بالفرقة بين مسلمة ومسيحى لا تجد الحكومة إلى إنفاذه سبيلا .

كوكب الشرق فى ١٨ – ٦ – ١٩٣٣ .

وأخبار هذا كله تنشر فى الصحف مفصلة مطولة ، والناس يستكشفون فى كل يوم شرا ، ويفضحون فى كل يوم سرا ، والرسائل تبلغ الصحف كثيرة متصلة ملحة مستنهضة للهمم ، مستثيرة للعواطف مستقلة ماتبذله الصحف من جهد ، منكرة صمت الصحف الصامتة وفتور الصحف الفاترة . ونحن نلقى هذا كله صابرين متحفظين مبالغين فى الصبر والتحفظ ، لأنا مانزال نعتقد أن هذا الأمر فتنة لم يكن ينبغى أن تثار ، وإن هذه الفتنة بعد أن أثيرت يجب أن تخمد وأن يرد شرها عن الناس .

لذلك لانزال نلح على الحكومة فى أن تبحث عن نصيب آخر من الشجاعة غير هذا النصيب الذى ظفرت به فى الأسبوع الماضى فقد ظهر أن شجاعة الأسبوع الماضى لا تكفى وأن حزم الأسبوع الماضى أضعف من أن يفى بالحاجة ويبسط سلطان الحكومة ، لا أقول على المبشرين ، بل أقول على هؤلاء الفتيات المصريات اللاتى يغتصبهن المبشرون اغتصابا .

يجب أن تبحث الحكومة عن نصيب جديد من الشجاعة والحزم لعل الله أن يفتح به عليها فتشعر هؤلاء المبشرين بأنهم يقيمون فى بلد متحضر ، فيه دولة قائمة ، ولهذه الدولة نظم يجب أن تحترم وحرمات يجب أن ترعى ، وقوة يجب أن تطاع . فمن تعدى حدود هذه النظم وهذه الحرمات وهذه القوة فإن هذه الدولة قادرة على أن تأخذه بالحق فى ذلك أخذا عنيفا .

ومن الأشياء التى لا تقبل شكا ولا نزاعا أن لمصر دستورا ، فمن أنكر ذلك عاقبه القانون ، وان هذا الدستور قد أنشأ فى مصر برلمانا فمن أنكر ذلك ساقته النيابة إلى القضاء ، وأن فى هذا البرلمان شيوخا ونوابا قد رزقهم الله قوة وبأسا ، وآتاهم بسطة من العلم والجسم ، ومنحهم ألسنة تقول فتكثر القول ومنحهم أيديا لا تمتنع عن الحركة ولا تتردد فى الامتداد بالبطش أحيانا ، ومن المحقق الذى لا يقبل شكا ولا نزاعا أن هذا البرلمان قد أظهر غير مرة حرصا على الدين وغضبا للإسلام ، وطالب الحكومة غير مرة بحماية هذا الدين والذوذ عن الإسلام . ومن الحق الذى لاشك فيه أن من أعضاء هذا البرلمان من ثار وفار ، وقر ثم دار ، وسكن ثم طار ، وأسرف فى التبشير والانذار ، ولم يتحرج من التجنى على المسلمين واتهامهم بغير الحق وإثارة الحفائظ عليهم وإغراء العامة بهم ، ومازال بزملائه النواب حتى كان الاستجواب وكثر فيه الكلام ، واشتد فيه الخصام ، وانتصر فيه الإسلام ، وأصبح رئيس الوزراء له راعيا ، ولحوزته حاميا ، واضطربت له الأرض وزلزت زلزالها . كل هذا محقق لاشك فيه ، وكل هذا يفرض على

البرلمان اليوم حقوقا إن قصر فيها أو نكل عنها أثبت على نفسه أنه لم يكن مخلصا لله ولا للدين يوم ثار تلك الثورة ويوم هاج وماج وأثار ذلك العجاج . ومن المحقق أن فى هذا البرلمان شيخا يسميه الناس شيخ الاسلام ، وإن لم يكن للإسلام شيخ . ومن المحقق أنَّ شيخ الإسلام هذا قد أظهر الغضب لله فى غير حاجة إلى هذا الغضب . وقد اتهم المسلمين بالكفر ، وأغرى بهم سلطان الدولة . وقد اعتدى على كتب المسلمين السابقين وطلب إلى الدولة مصادرتها ، وأذعنت له الدولة فصادرتها وقتا ما . فعلى هذا الشيخ الذى يغضب فى غير موضع للغضب ، ويثور فى غير داع إلى الثورة ، ويظهر الآن غيرته على الدين وذوده عنه ، وقيامه دونه أن يطالب البرلمان الذى هو عضو من أعضائه بأن يتخذ فى هذا الأمر موقفا حازما ، أشد حزما من موقف الحكومة حتى لا يقال إنه لم يغضب للإسلام يوم غضب ، وإنما غضب للسياسة ومنافعها العاجلة ، ولم يثر للإسلام يوم ثار ، وإنما ثار للمنصب والمرتب .

ومهما يكن من شيء فقد أظهرت سيرة المبشرين أن تصريح وزير الداخلية لم يصنع شيئا ، ولم يكفهم عن إثمهم ، بل أغراهم به وحببه إليهم ، فلابد إذن من أن يجد وزير الداخلية لنفسه وسيلة أخرى تجعل تصريحه قاطعا مقنعا محدثا لأثره عند المبشرين . لابد من أن يعلم البرلمان إن كان حريصا على العلم ، ومن أين يعلم المسلمون أن هذه المبشرة التى تكايد الحكومة فى بورسعيد قد أذعنت للحكومة وأسلمت إليها الفتيات ، وان حكم القضاء قد أنفذ . ولابد من أن يصبح هذا المقدار الذى تريد الوزارة أن ترصده للملاجيء والمدارس شيئا مقررا ، ومن أن يصدر القانون بإقراره قبل أن تنتهى الدورة البرلمانية ، ونحن نؤكد للوزارة والبرلمان أن أمر هذه المدارس والملاجيء أنفع للأمة وأجدى عليها من هذه المشروعات التى تعجلتها الحكومة فأصدرت لها الملايين ومئات الألوف وعشراتها . ونحن نؤكد أن قد تنتهى الدورة ولما يصبح أمر هذا الاعتماد حقيقة لا سبيل إلى الشك فيها أو الالتواء بها . ولو أنا نستطيع أن نطمئن إلى أن البرلمان سيسمع لدعوة الداعين وسيصور حقا رغبة الأمة فى الدفاع عن كرامتها والذود عن دينها لطلبنا إليه ألا ينفض حتى يصدر من القوانين ما تقتضيه حياتنا فى هذه الأيام مع هؤلاء المبشرين الذين لا تزيدهم هذه الفتنةإلا إلحاحا فى الشر وإسرافا فى الطغيان .

لو أننا نعلم أن البرلمان سيحرص حقا على أن يصور ميول الأمة ويرضى حاجاتها لطمعنا منه فى استجواب كذلك الاستجواب الذى أثير فى العام الماضى حول أكذوبة من

الأكاذيب ، وأضلولة من الأضاليل ومكيدة من هذا الكيد السياسى الذى أفسد فى مصر كل شىء .

نعم من الحق على البرلمان لنفسه ولدين الدولة ولكرامة حامى الإسلام وراعيه ، ذلك الذى يقيم الآن فى فرسايل ، من الحور على البرلمان أن لا يختم دورته هذه دون استجواب تظهر فيه الحكومة ماتريد أن تفعل وتأخذ فيه الحكومة عهدا على نفسها بالسعى الملح فى إصدار القانون الذى يمكنها من مراقبة التعليم الحر كله .

هذا الاستجواب – إن كان-يزيل عن البرلمان وصمة لا نحب أن يوصم بها ، وهى أنه لا يستجوب إلا حين لا يكون على الحكومة من الاستجواب بأس .

فليتوكل البرلمان على الله ، وليسع خطيبه الفذ وبطله المغوار إلى شيخ الأزهر حيث يقال إنه سعى فى العام الماضى ، وليكتب أو ليستكتب فيها استجوابا كذلك الاستجواب الذى كتبه أو استكتبه فى العام الماضى كما يقال ، وليخطب فيبدع فإن الموضوع خليق بالخطابة والإبداع . وهو لن يحتاج فى هذه المرة إلى من يختلق له الأكاذيب ويلفق له الأباطيل ، كما احتاج فى العام الماضى ، وسيسعى الناس إلى مجلس النواب ليسمعوه طائعين ، لا كارهين ، ومختارين لا مدفوعين ، فقد كان يقال فى العام الماضى إنهم كانوا يجذبون جذبا إلى مجلس النواب ، وكانوا يدفعون دفعا إلى مجلس النواب ليسمعوا ثم يهتفوا . وقد سمعوا وهتفوا ، ونحن نؤكد للخطيب البطل أنهم فى هذه المرة لن يترددوا فى الذهاب إلى المجلس ولن يترددوا فى الإعجاب بالمجلس والوزارة إن استطاعا أن يدفعا عنهم شر المبشرين .

أما بعد ، فلسنا نحب هزلا ، ولا نقصد إلى دعابه ، وإنما ننبه الوزارة والبرلمان إلى أن أمر المبشرين إن ترك كما هو فسينتهى بالبلاد إلى فتنة منكرة لا تصيب الذين ظلموا خاصة ولكنها تصيب الآثم والبرىء ، وإن أول واجب على الوزارة والبرلمان اللذين يحرصان على إقرار النظام وتثبيت الأمن أن يدفعا شر هذه الفتنة عن الناس ويدفعاها فى أسرع وقت .

توفيق

لا أعرف وزارة وفقت إلى إسخاط الشعب وإثارة الحفيظة والموجدة فى نفسه كما وفقت وزارتنا القائمة . فأنت لاتكاد تنظر فى ناحية من نواحى الحياة المصرية إلا رأيت الشعب يسلك طريقا ، والوزارة تسلك طريقا أخرى ، هذا إلى اليمين ، وهذه إلى الشمال ، هذا إلى الشمال ، وهذه إلى الغرب . كانت القاعدة الأساسية التى اتخذتها الوزارة أصلا لحياتها وسيرتها إنما هى أن تضاد أعمال الشعب وميوله وأهواءه ومنافعه ، وكأن الغرض الأساسى الذى وقفت الوزارة جهودها على تحقيقه والوصول إليه إنما هو إحراج الشعب وتسليط السخط والحنق عليه .

وهذه الأيام التى نشهدها تقيم أوضح الأدلة وأجلاها على هذا التناقض الشنيع بين حياة الشعب وحياة الوزارة ، وبين آمال الشعب وآمال الوزارة . ولسنا نذكر جوع الشعب وإسراف الوزارة . ولسنا نذكر تهالك الشعب على الحرية وكلف الوزارة بالبأس والبطش . ولسنا نذكر طموح الشعب إلى الاستقلال وإذعان الوزارة لسلطان الأجنبى ، فقد كثر الحديث فى ذلك وطال حتى لم تبق حاجة إلى تكراره ولا إلى تذكير الناس به ، لأنه أصبح قوام حياتهم فى جميع أوقاتهم ، وإنما نذكر نشاط الشعب فى هذه الأيام ، ونشاط الوزارة فإن فى المقارنة بين هذين النوعين من النشاط عبرة وعظة . الشعب ثائر مضطرب لما يلقى أبناؤه وبناته من كيد المبشرين وعبثهم بالدين وطغيانهم على الأخلاق والأعراض فالشعب يسخط ويشكو ، والشعب يلح فى السخط ويغرق فى الشكوى ، والشعب لا يستريح ولا يريح الصحف كأنه يعتقد أن قد أصبح الأمر إلى الصحف فهى قادرة على أن تجلى المبشرين عن مصر ، وتغلق معاهدهم وملاجئهم وترد عدوانهم على أبناء المسلمين وبناتهم ، وتصد طغيانهم على الدين والأخلاق والأعراض . أما الوزارة فشديدة النشاط مسرفة فيه لاتكاد تقف منه عند حد . وقد استغرق نشاط مدينة القاهرة ومدينة الاسكندرية ، ومدينة بورسعيد وأقطار الدلتا كلها . فإذا سألت

كوكب الشرق فى ١٩ - ٦ - ١٩٣٣ .

عن موضوع هذا النشاط فثق بأنه شيء آخر غير حماية الدين والأخلاق والأعراض . وإذا سألت عن الذين يوجه إليهم هذا النشاط فثق أنهم قوم آخرون غير المبشرين . فالوزارة لا تنشط لحماية الدين والأخلاق والأعراض ، وإنما تنشط لحماية نفسها ، وهى لا تحمى من شر تخافه أو خطر تخشاه ، وإنما تحمى نفسها من أوهام تفزعها فى اليقظة وتروعها فى النوم . والوزارة لا توجه قواها الهائلة إلى المبشرين ، وإنما توجهها إلى الشعب . نعم إلى هذا الشعب الذى يستغيثها ويستعين بها وينتظر منها أن تحميه من عدوان الأجنبى . الوزارة شديدة النشاط فى الاسكندرية لأن رئيس الوفد وصاحبه أقاما فيها أياما ، ثم سافرا منها صباح اليوم ، والوزارة تخاف من رئيس الوفد وصاحبه أينما كانا وحيثما أقاما ، وإلى أى وجهة قصدا ، وفى أى مكان نزلا . والوزارة تجند الجنود وتنشر البنود وتزلزل الأرض لتحول بين الناس وبين الاتصال برئيس الوفد وصاحبه . فأما المبشرون الذين يعتدون على الدين والأخلاق والأعراض فى الاسكندرية فالوزارة عنهم فى مشغل ، ولم لا ؟ أليس الدفاع عن النفس حتى من الوهم والخيال واجبا قبل كل شيء وبعد كل شيء وفوق كل شيء . فلتوجد الوزارة أولا ولتحم وجودها من الخطر ثم لتفكر بعد ذلك فى وجود الشعب وحمايته !!!

والوزارة شديدة النشاط فى بورسعيد ، قد ملأ جنودها الشوارع وأخذت على الناس كل طريق ، لا لأن مبشرة أجنبية تكيد للدين والأخلاق والأعراض وتتحدى سلطان الدولة وتعطل أحكام القضاء ، بل لأن الأستاذ النقراشى ذهب إلى هذه المدينة يستقبل عضوا من أعضاء الوفد قادما من أوربا .

فالوزارة مشفقة من الأستاذ النقراشى وصاحبه ، تخاف أن يتصل بهما الناس ، أو يلتفوا حولهما ، ولم لا ؟ أليس من الحق عليها أن تدافع عن وجودها أولا ، ثم تفكر بعد ذلك إن سمحت لها الظروف فى حماية الدين والأخلاق والأعراض ، وسلطان الدولة وأحكام القضاء .

أما الدلتا فنشاط الوزارة فيها لا حد له ، قد أجلبت الوزارة عليها بخيلها ورجلها ، ونشرت فيها شيئا يشبه الأحكام العرفية فالجند يحتلون المدن احتلالا ، وهم يقطعون الطرق فيها ومن حولها بما يبنون من عقبات ، وما يقيمون من حواجز وحصون . وهم يحاصرون المحطات ويحيطون بالدور والقطار المسلح مرابط فيما يقال بين محطة سعد زغلول ، ورجال الإدارة لا ينامون الليل ولا يهدأون فى النهار . لماذا ؟ لا لأن المبشرين يكيدون للدين والأخلاق والأعراض ، ولكن لأن رئيس الوفد وصاحبه سينزلان فى

طنطا وسيذهبان منها بالسيارة إلى حيث يزوران أم المصريين ، ولعلهما أن يزورا فى طريقهما بعض الوفديين .

وإذن فحياة الوزارة فى خطر ، والدفاع عن الحياة أول الواجبات وأشدها لزوما ، فلتنفق الجهود ولتحشد الجنود ، ولتنشر البنود ولتضطرب الأرض وليقتنع الشعب بأن الوزارة القائمة حية قوية ، عظيمة الحظ من القوة والحياة !

أما القاهرة فأمرها عجب منذ أيام ، قد شهدت منذ يوم السبت ما نسيته منذ أشهر ، فانتشر فيها الجند وكثر فيها ذهابهم ومجيئهم ، وظهرت فيها قوة الحكومة كاروع ما تكون وكأشد ما تكون ما عرفها الناس ، وفتحت فيها أبواب السجون وصرف فيها رجال الإدارة عن الراحة والاستمتاع بلذة العيش كأنما نحن فى أيام الانتخاب منذ عامين ! فإذا سألت فيم هذا كله ، فالجواب يسير ، وهو أن عمال ثورنيكروفت مصريون ، وأن شركة ثورنيكروفت تريد أن تتبختر سياراتها فى الشوارع وأن الوزارة مضطرة لحماية هذه السيارات ، وإذن فيجب أن تنفق جهودها كلها فى مدينة القاهرة لتمكن هذه الشركة من أن ترسل سياراتها مختالة فى الشوارع ، ويجب أن يحصر هؤلاء العمال فى بيوتهم ، وأن يصرف عنهم ما قد يصل إليهم من إعانة المحسنين لأن شبع هؤلاء العمال لا يخلو من خطر على هذه السيارات .

وكذلك يريد الله أن يظهر التناقض بين حياة الشعب وحياة الوزارة فى أشنع صوره وأبشع مظاهره . شعب يستغيث بالوزارة لتحمى دينه وأخلاقه وأعراضه من عدوان المبشرين فإذا الوزارة تنصب له الحرب ، وتغرى به الجند ، وتحظر عليه الاتصال بمن يحب . جماعة من الشعب يضربون فلا تحميهم الحكومة ولكن تحمى الشركة منهم . وتسرف فى هذه الحماية حتى تسخر الجند وتفتح السجون ، وتمنع الإعانة وتدع هؤلاء المضربين نهبا للجوع .

أفتظن أن من الممكن أن توفق وزارة من الوزارات إلى مثل ما وفقت له هذه الوزارة من إسخاط الشعب وإحراجه وإثارة الحفائظ والضغائن فيه ؟ إن من المضحك المؤلم حقا أن يستعين الشعب بالوزارة فإذا هى تعين عليه . إن من المضحك المؤلم حقا أن يلوذ الشعب بالوزارة فإذا هى تبسط عليه يدها بالقهر والعسف ، ولكن أى غرابة فى ذلك فإن مصالح هذا الشعب المصرى لم توكل حمايتها إلى المستر « كين بويد » وإنما وكلت إلى وزارة تريد قبل كل شىء أن تعيش . فإذا استوثقت من العيش وأطمأنت إلى البقاء فى

مناصب الحكم فكرت بعد ذلك فيما يمكن أن تلهى به هذا الشعب من الأمانى والوعود . وقد أثبتت الحوادث أن إرضاء الأجانب يطيل بقاء الوزارات ويمكن لها فى الأرض ، وأن إرضاء الشعب لا يقدم ولا يؤخر ، فإذا لم توفق الوزارة إلى إرضاء هذا الشعب وموافقة آماله ومثله العليا فقد وفقت إلى ما هو خير من ذلك ، وفقت إلى إرضاء الأجانب وحسبك بإرضاء الأجانب وسيلة إلى طول البقاء .

حديث

ألقاه رئيس الوزراء إلى صحيفة من صحف باريس ، ونشرت الأهرام خلاصته المفصلة أمس . فلما قرأناه أنكرناه ، وترددنا بين اثنتين : إحداهما أن يكون محدث رئيس الوزراء لم يحسن الفهم عنه ، ولم يوفق فى تصوير ما سمع منه . والأخرى أن يكون رئيس الوزراء نفسه متعبا قد حال المرض بينه وبين المراقبة الصحيحة لما يقول . وآثرنا على كل حال أن ندع هذا الحديث يوما أو بعض يوم لعل رئيس الوزراء أن يقرأه فيصلح منه ، ولعل الوزراء أنفسهم هنا أن يقرأوه فيصلحوه . ولم نشأ أن نشتط على الرجل فنأخذه بأشياء لعله لم يقلها أو لعله قالها وهو مريض .

ولكن صحيفة صدقى باشا مغضبة عاتبة لأن صحف المعارضة لم تحفل بهذا الحديث ، ولم تتناوله بالشرح والتعليق ، أو قل إن صحيفة صدقى باشا سعيدة بهذا الحديث ، مغتبطة ببعض ما جاء فيه ترى فيه بشيرا بطول البقاء وفألا بحسن الصلة بين الوزارة القائمة وبين الانجليز ، وهى تسجل على صحف المعارضة صمتها عن هذا الحديث ، وترى أن هذا الصمت دليل على أن صحف المعارضة قد وجمت لحديث صدقى باشا وأفحمت فهى لا تدرى ماذا تقول .

ومع أننا لم نحسن الظن قط بمهارة الذين يكتبون فى تلك الصحيفة ونصحهم لرئيس الوزراء ، فلم نكن نقدر فى يوم من الأيام أنهم ينتهون من السذاجة إلى هذا الحد ، ويصلون من الضعف إلى منزلة الغريق الذى يتعلق بالثمام ويلتمس عنده النجاة والحياة . فليس فى حديث صدقى باشا غناء ، وليس فيه جديد . وإذا لم يكن بد من أن نجد فى هذا الحديث شيئا ، فليس فيه إلا ما يدل دلالة واضحة على أن الرجل مازال متعبا مكدودا ، وعلى أن الخير كل الخير إنما هو فى أن يسمع لنصيحة « المورننج بوست » فيريح نفسه حقا ولا يجمع بين الراحة وبين النهوض بالأعمال العامة ، لأن صحته لا تبيح له ذلك ولا تتيح له القدرة عليه . وما رأيك فى رجل يريد أن يتحدث عن الامتيازات فيزعم لمحدثه أن الامتيازات قد أصبحت بلا فائدة من الوجهتين المالية والقضائية .

كوكب الشرق ٤ – ٦ – ١٩٣٣ .

بلا فائدة لمن ؟ للمصريين ، فمن الذى زعم أن المصريين استفادوا أو يمكن أن يستفيدوا من الامتيازات فائدة مالية أو قضائية ؟ متى استفاد المقيد من القيد ؟ ومتى استفاد صاحب العبء الثقيل من عبئه الثقيل ؟ ومتى استفاد المغلول من السلاسل والأغلال ؟

للأجانب ؟ فأى سخف أشد من انكار هذا الذى ينكر أن الأجانب لا يستفيدون من الامتيازات فوائد مالية وقضائية ؟ وهل يطلب المصريون إلغاء الامتيازات إلا لأنها تفيد الأجانب فتسرف فى إفادتهم ، وتضر المصريين فتسرف فى ضررهم .

ليس كلاما إذن هذا الذى قاله رئيس الوزراء ، لأن الامتيازات قد أصبحت لا تفيد من الوجهة المالية والقضائية ، وإنما هو حديث مريض قد صدر عن متعب مكدود ، فلا ينبغى أن نبحث فيه عن معنى صحيح ورأى مستقيم . ولهذا أشفقنا على رئيس الوزراء ، ولم نشأ أن نقف عند حديثه هذا وتمنينا لو فطنت الوزارة لما فيه من ضعف ، فأصدرت بلاغا يصلحه أو ينفيه . وما رأيك فى رجل يرى نفسه ويراه الناس أعظم المصريين — نستغفر الله — بل أعظم الساسة حظا من الكفاية والبراعة فى السياسة وأحاديثها حتى إذا تحدث إلى صحفى من أهل باريس زعم له أن الأمة المصرية تريد أن تلغى الامتيازات ، ولكنها تفضل إلغاءها شيئا فشيئا ، وقليلا قليلا ،ومرحله مرحلة، ومتى كان من السياسة والكياسة ، ومن البراعة والمهارة أن يقال مثل هذا الكلام للصحف حتى ولو كان الحق الذى لا شك فيه ؟ وباسم من يتحدث رئيس الوزراء بهذا الكلام ؟ ومن الذى زعم لرئيس الوزراء أن الأمة تريد أن تلغى الامتيازات شيئا فشيئا وقليلا قليلا ؟ أم هو يزعم أنه الأمة وأنه متى رأى رأيا فهو رأى الأمة ؟ حتى وإن كان هذا الرأى مريضا ، وما رأيك فى رجل يتحدث إلى صحفى من أهل باريس فلا يتحرج من أن يقول إننا ننتظر أن تفرغ بريطانيا العظمى من مشاغلها لنحل ما بينها وبيننا من المسائل المعلقة ، ثم يطلب إليها بعد ذلك أن تعيننا على إلغاء الامتيازات ؟ أكلام رجل يشعر حقا بما ينبغى لوطنه من كرامة وعزة هذا الكلام ، ننتظر أن تفرغ بريطانيا العظمى من مشاغلها ، ولم لا تكون المسألة المصرية بين هذه المشاغل ؟ ولم تقدم المشاغل الأخرى على المسألة المصرية ؟ أمجاملة منا للإنجليز ؟ أم استكبارا من الانجليز علينا وازدراء من الانجليز لنا ؟ فإن تكن الأولى فما أكرمنا بحقوق مصر وما أحرصنا على رضا الإنجليز ، وإن تكن الثانية فما أصغرنا فى أنفسنا وما أيسر أمرنا على أنفسنا ! ولكن الذى يتحدث هو رئيس الوزراء ، ورئيس الوزراء — كما تعلم — متعب مكدود — وليس من اليسير أن يتمكن فى كل وقت من أن يزن ما يقول ، ولو أنه يستطيع

حقا ان يزن ما يقول ، لاستحى أن يتحدث إلى صحفى من أهل باريس فيزعم له أنا ننتظر أن يتم الاتفاق بيننا وبين الانجليز لنطلب إليهم أن يعينونا على إلغاء الامتياز ، ومن يدرى لعل التعب خيل إلى رئيس الوزراء أنه يخيف الفرنسيين بهذا النذير ويملأ قلوبهم رعبا حين ينبئهم بأننا سنتفق مع الانجليز ثم نستعينهم على إلغاء الامتيازات ! ولكن التعب أنسى رئيس الوزراء أن هذا الكلام لا ينبغى أن يقال حتى وإن كان حقا لأنه لا يلائم العزة ولا الكرامة ، ولا المنفعة السياسية ، ولأنه يلقى فى روع الأجانب أنا لن نستطيع أن نلغى الامتيازات إلا أن يعيننا على ذلك الانجليز ، وأننا سنقدم اتفاقنا مع الانجليز وسيلة وإن شئت فقل رشوة لنتمكن من إلغاء الامتيازات ، ولكن الذى يتحدث هو رئيس الوزراء ، ورئيس الوزراء ، قد ذهب إلى فرسايل ليستريح لا ليشتغل بالسياسة وأحاديثها ، فهو أشد تعبا من أن يوفق إلى الصواب فى هذه الأحاديث .

وما رأيك فى رجل يتحدث إلى صحفى من أهل باريس فيزعم له أننا فى مفاوضات مستمرة مع الانجليز لحل المسائل المعلقة وينسى – وما أشد ما يدفع المرض إلى النسيان – أنه أنكر قبل أن يسافر من مصر أن تكون هناك مفاوضات بينه وبين الانجليز ، وهو إنما أنكر هذا لأن وزارة الخارجية البريطانية نفسها أنكرته إنكارا قاطعا ، فاضطر رئيس الوزراء إلى أن ينكره أيضا . وأكبر الظن أن الرجل لم يشر إلى مفاوضات مستمرة بينه وبين انجلترا منذ كانت مفاوضات ملنر ، فهو أراد اتصال الخلاف بين البلدين ومحاولة الاتفاق فحال المرض بينه وبين حسن الإشارة ودقة التعبير ، ثم جاءت صحيفته فاستغلت هذا الضعف وزعمت أن وراء القبة شيخا كما يقول العامة أو أن وراء الأكمة ما وراءها كما كان يقول القدماء . ثم أخذت تهول وتغلو فى التهويل ، وتزعم أن عندها من العلم ومن أسرار المفاوضات مالا تستطيع أن تبيحه أو تجهر به ، لأن ظروف السياسة لا تسمح بذلك . العفو ! بل نقسم أن لو كان عند رئيس الوزراء وأنصاره وصحيفته أيسر العلم بأمر المفاوضات لما سكتوا عن إذاعته وإشاعته واستغلاله ، والغلو فى استغلاله . كلا ليس عند القوم شيء إلا أمانى كذب تسعة أعشارها ، وعشرها معلق بيد القضاء .

وأظرف ما فى هذا الحديث الظريف عطف رئيس الوزراء على فرنسا واغتباطه لها بأنها لم تملك مصر . أعترف بأنى أحاول أن أجد معنى لهذا الكلام فلا أوفق إلى شيء ومن يدرى لعل عند صحيفة صدقى باشا ما يفسر هذا الكلام الذى لا أشك فى أن الفرنسيين قد قرأوه فضحكوا منه وهزوا له الرءوس والأكتاف .

ثم تحدث رئيس الوزراء عن الدين فلم يقل جديدا ، ولم يصنع شيئا ، ولم يظهر قوة ولا حزما ، وإنما أظهر ضعفا وخوفا واستعطافا وعقد أمله فى صراحة بالانجليز ومعونة الانجليز لأنهم يرون رأى مصر ، ويؤيدون مصر فى أن تدفع ورقا ، لا ذهبا . هذا هو الحديث الذى ألقاه رئيس الوزراء إلى الصحيفة الباريسية فأنكرناه وأشفقنا على صاحبه من أن نتناوله بالشرح والتعليق .

هذا هو الحديث الذى تزعم صحيفة صدقى باشا أن صحف المعارضة قد فرت من شرحه وتفسيره لأن فيه ذكرا للمفاوضات ودليلا على طول البقاء . أجادة صحيفة الوزارة فى هذا السخف أم هى تريد أن تصرف الصحف عن حديث المبشرين وعما

تورط فيه وزير الداخلية من ضعف لا حظ له من قوة ، ومن أنباء لا تصور الحق ومن وعود لا يرجى لها الوفاء .

زعموا أن الكلام إن كان من فضة فقد يكون الصمت ذهبا وزعموا أن العدو العاقل خير من الصديق الجاهل ، ولكن هذه الحكم الشعبية السائرة الخالدة أمرها غريب يصدقها الناس جميعا ، ويؤمن بها الناس جميعا ، ويخالفها الناس جميعا . فأما رئيس الوزراء فمعذور إن نسيها أو خالف عن أمرها ، لأنه متعب مكدود . وأما صحيفة رئيس الوزراء فمعذورة إن نسيتها أو خالفت عن أمرها لأنها غريقة تلتمس النجاة .

فكاهة[1]

لم يشك أحد من أهل الغربية فى أن لنا وزارة قوية غنية ماهرة تحسن حشد الجند وحصار المدن ، واقتحام المواقع الخطرة ، ورد الجيوش الزاحفة ، فقد كانت الغربية يوم الاثنين ميدانا لهذه البراعة التى لا حد لها . والغريب أن بلاغ التهنئة لم يصدر بعد من وزير الداخلية إلى الجند والشرطة الذين عرفوا كيف يسجلون لأنفسهم ولقادتهم هذا الفوز البارع الذى لاغبار عليه .

ومن المحقق أن المصريين مطمئنون سينامون ملء جفونهم منذ اليوم . فقد ثبت أن لديهم من قوة الدفاع ومن المهارة فيه ما يحميهم من عدوان المعتدين وزحف الزاحفين ، فكل دولة كبيرة أو صغيرة تخيل إلى نفسها أنها تستطيع أن تطمع فى مصر أو تزحف عليها أو تعبث بحق من حقوقها ، فهى واثقة بأنها سترد عن ذلك . وقد خابت الآمال وكذبت الأمانى وألم بها الخزى وأظلم فى وجهها الزمان . ففى مصر جنود وبنود ، وفى مصر قوة وفتوة ، وفى مصر قادة يعرفون كيف يدبرون الكر والفر ، ويتقنون رد المغير والإحداق به وأخذ الطرق عليه .

المصريون مطمئنون سينامون ملء جفونهم منذ اليوم ، ومن حقهم إذا ناموا أن يحلموا بعظائم الأمور وجلائل الأعمال ، ومن حقهم أن يستردوا مجدهم القديم وعزهم التليد ، وأن يروا أنفسهم كما كانوا أيام الفراعنة وأيام الفاطميين والمماليك ، بل أيام محمد على الكبير غزاة فاتحين وسادة متسلطين يغيرون فينتصرون ، ويغزون فيظفرون وتخفق الويتهم المظفرة على أقطار الأرض مهما تبعد بينهم وبينها المسافات .

فإن هذا البلاء الحسن البديع الذى أبلاه الجند والشرطة أول أمس فى مدينة طنطا ومن حولها وفى الطريق بينها وبين زفتى وفى الطريق بينها وبين مسجد وصيف ، خليق أن يعيد تلك الأيام ويصدق هذه الأحلام ويثبت للعالم الحديث ما أثبتناه للعالم القديم من أن قوتنا

---

(1) كوكب الشرق فى ٢١ - ٦ - ١٩٣٣ .

أعز من أن تغلب وبأسنا أشد من أن يرد ، ومن أن الناس إن كانوا يريدون الحياة المطئنة الآمنة خليقون أن يقدرونا ويحسبوا لنا ألف حساب وحساب .

ما كان أبرع الشرطة وأمهر قادتها حين أرادوا أن يذودوا رئيس الوفد عن طنطا فذادوه ، وكيف ذادوه ؟ تركوه ينزل من القطار ويخترق المدينة من طرف إلى طرف ، والناس من حوله يلقونه بما يحبون أن يلقوه به من الحب الصادق والود الخالص حتى إذا مر الرئيس بجماعة فتلقى منهم حبهم وودهم وتحيتهم أقبل الشرطة على هؤلاء الناس فجزوهم على هذا الود والحب والتحية أجمل الجزاء وأمثله ، وأصلوهم من عصيهم نارا حامية تمثل قلوبا قاسية وشجاعة لا يعرفها إلا الأبطال الممتازون . وكذلك زار رئيس الوفد مدينة طنطا فلقى أهلها ولقوه ، وحيا أهلها وحيوه والشرطة تنظر إليه وإليهم ثم تصليهم بعد ذلك أشد العذاب .

أما على الطريق العام فحدث عن الطلائع السابقة والكتائب المتلاحقة ، وعن المناورات والمداورات وعن الخنوع والخشوع إذا أشرف رئيس الوفد ، ثم عن التجبر والتنمر بعد أن يمضى ، حتى إذا بلغ الركب مدينة زفتى كانت هناك آية الآيات ومعجزة المعجزات . كان هناك الحصار الضيق والدفاع المتقن ، ومظهر العدة والعدد ، ومظهر القوة والبأس ، ومظهر العظمة والجلال . كانت هناك الاستحكامات التى طوقت بها المدينة تطويقا . فالسيارات على اختلافها ترص رصا ، وتؤخذ بها المنافذ والسبل والخنادق العميقة تحتفر فى الأرض والأسوار الهائلة من التراب ترتفع إلى السماء ، وقد أخليت شوارع المدينة من أهلها ، وأكره الناس على أن يلزموا بيوتهم ، وقطعت المواصلات بين هذه المدينة وما يجاورها من المدن والقرى ، ثم سلط المصورون على هذه الشوارع الخالية والطرق المقفرة ، وأبعد عنها حتى الجند وصورت كما هى خالية من كل إنسان ، برئية من كل حركة ؛ لتقدم هذه الصور بعد ذلك إلى الذين يعنيهم الأمر دليلا على أن رئيس الوفد لم يلق أحدا ، ولم يلقه أحد فى هذه المدينة ، ولم لا ؟ لقد لقى الناس فى طنطا فحسبه ذلك ، ويجب أن لا يلقاهم فى زفتى ، ولم لا ؟ لقد عملت عصى الشرطة فى أجسام الناس الذين لم يلقهم رئيس الوفد فى زفتى . وكذلك أظهرت القيادة العليا شدة ولينا وقسوة ورحمة وعدلا وإنصافا . اشتدت على أهل طنطا ورفقت بأهل زفتى .

وسلكت القيادة العليا هذه الطريق نفسها فتركت الناس يلقون رئيس الوفد فى مسجد وصيف محتاطة لذلك ، مبالغة فى الاحتياط ، قد أرصدت الجند والقطار المسلح وأعدت عصى الشرطة للعمل فى الأجسام حتى إذا دنا الركب إلى بنها كان الحصار والدفاع ، وكان الاستيلاء على الجسور والاحتياط فى أخذ الطرق والمسالك . وأى غرابة فى هذا ؟ أليست بنها موقعا حصينا ، وقلعة عظيمة الخطر ، لا ينبغى أن يدخلها العدو أو يدنو منها ، وإنما حسبه أن يراها ويدور حولها ويمر بها ولم يظفر منها بشىء ! .

وكذلك مثلت أول أمس هذه القصة المحزنة المضحكة فلقى الناس عذابا ، ولقى الناس ما يضحك ويسرى عن النفوس ، وكذلك أظهر وزير الداخلية وعماله فى الأقاليم أن لمصر قوة لا ترد ، وشرطة لا تصد ، وسلطانا لا سبيل عليه . ولم يكن ينقص هذه القصة البارعة إلا شىء واحد ، كانت فى حاجة إليه لتستقيم فصولها ويحسن أثرها فى النفوس ، وهو قليل من الحياء . ماذا أقول ؟ يظهر أنى لا أحسن فن التمثيل ، ولا أعرف من أصوله شيئا ، فلو قد دخل عنصر الحياء فى هذه القصة ولو بمقدار يسير ضئيل لما حوصرت مدينة هادئة مطمئنة هذا الحصار ، ولما سلط عليها مئات من الجند ، ولما حفرت فى أرضها الخنادق ولما أقيمت حولها أسوار التراب . لو دخل عنصر الحياء فى هذه القصة لما استطاع وزير أن يأمر بذلك ، ولما استطاع مدير أن ينفذ ذلك ، ولما استطاع ضابط وشرطى أن يعملا فى تنفيذ ذلك ولحرم النظارة من أهل الغربية أن يشهدوا هذا المنظر البديع ، مشهد الدولة المصرية كلها تعلن فى إقليم من أقاليمها شيئا يشبه حالة الحرب وترصد بأسها وقوتها وجندها وشرطتها للمحافظة على أمن لم يتعرض لخطر ولإقرار نظام لم يتعرض لاضطراب ، ولاتقاء رجلين اثنين أعزلين يزوران قوما عزلا ، لاحظ لهم من سلاح ، ولا رغبة لهم فى كفاح .

نعم لو دخل عنصر الحياء فى هذه القصة لحرم النظارة من أهل الغربية تمثيل هذه القصة الرائعة ، ولحرم القراء من أهل مصر قراءة هذه القصة والعلم بما أحرزت من فوز ، ولحرم الشرق والغرب العلم بمغزى هذه القصة والاعتبار بما تدل عليه من أن أهل مصر مازالت بحمد الله قوية فتية يجب أن تخاف ويجب أن يحسب لها حساب . فالحمد لله الذى قدر لهذه القصة ما قدر لها من فوز فأشعر المصريين بقوتهم ، وأشعر الناس ببأس المصريين . والحمد لله الذى أتاح لرئيس الوفد وصاحبه أن يعلما ما كان يجهلان ، ويريا بأعينهما ما كانا يجحدان . فقد ثبت بالدليل القاطع والبرهان الساطع أن الروح الوطنى فى مصر قد مات موتا لا رجعة بعده ولا بعث . مات فما يخفق به قلب وما ينبض به عرق وما يحسه إنسان .

مات وأصبح حديثا من أحاديث التاريخ وآية ذلك أنهما مرا بإقليم من أقاليم مصر ، أو إقليمين أو أقاليم فلم يرهما أحد ، ولم يريا أحدا إلا هذه الجنود المجندة التى لم ترسلها الدولة إلا لتظهر لهما شيئا من الحفاوة اليسيرة . وأى غرابة فى أن يتفضل المنتصر الظافر على المنهزم المغلوب بشيء من التحية وقليل من الحفاوة ؟ إنما أرادت القيادة العليا فى ظفرها وفوزها أن تقدم لخصومها المنهزمين تحية إن دلت على شيء فإنما تدل على الظرف والعطف وحسن الرعاية للمغلوبين الذين ألقوا السلاح .

تسألنى بعد ذلك متى يتيح الله لمصر حظا من الجد ، ويصرف عنها بعض هذا الهزل الذى أغرقت فيه ، فلا تتعجل ولا تضجر فعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم . لا تضق بهذا الهزل فإن فيه تسلية للهموم وتلهية عن الكروب . ولو قد حرمت مصر هذا الهزل ، ولو قد صرفت عن مصر هذه الدعابة لضاقت بما يلقى أهلها من آلام وبما يقترف فيها آثام وما يصب عليها من مكروه . ولكانت نتيجة هذا الضيق خطرا كبيرا وشرا مستطيرا .

فالحمد لله الذى رزق مصر وزارة ، لا كالوزارات ، تجرح باليمين وتأسو بالشمال . تصب العذاب من ناحية وتهون وقعه بالدعابة من ناحية أخرى وتجعل حياة المصريين مزاجا معتدلا من الجد والهزل ، ومن الشدة واللين . فتأخذها بالبأس وتعينها على احتمال البأس حتى يأتى اليوم الذى تنجلى فيه الغمرة ، ولعل هذا اليوم أن يكون قريبا .

تلهية

تحدثت زميلتنا « السياسة » الغراء صباح اليوم إلى قرائها بحديث إن صح ما فيه كان فضيحة لا كالفضائح ، ونكرا لا كغيره من النكر الذى تعود الناس أن يشهدوه فى هذه الأيام .

تحدثت السياسة بأن وزير الداخلية القيسى باشا عبث بمجلس النواب وبالأمة المصرية كلها حين زعم للنائب الذى سأله مساء الأربعاء فى أمر المبشرين أن الحكومة تريد أن ترصد سبعين ألفا من الجنيهات لإنشاء ملاجىء ومدارس تؤوى إليها الفقراء والبائسين من أبناء المسلمين وبناتهم لتجعلهم فى مأمن من عدوان المبشرين على دينهم وأخلاقهم وأعراضهم .

تحدثت السياسة بأن وزير الداخلية القيسى باشا قد عبث بمجلس النواب وبالمسلمين جميعا من أهل مصر حين قص عليهم هذه القصة لأن الحكومة لم تفكر فى إرصاد هذا المال لعلاج التبشير ولا لحماية أبناء المسلمين وبناتهم من المبشرين ، وإنما أرصدته لتنفيذ قانون آخر أقره البرلمان ، ولم يكن بينه وبين التبشير والمبشرين صلة ، وهو القانون الذى يقضى بمنع التسول . وإذن فقد قال وزير الداخلية القيسى باشا – إن صح ما جاء بالسياسة – للنواب وللمسلمين غير الحق . وإذن فقد ظفر وزير الداخلية القيسى باشا بثناء النواب وشكر الشاكرين له من المسلمين ، لأنه قال لهم غير الحق ، وخيل لهم مالم يقع ، وصور لهم ما لم يكن وأنبأهم بأن الحكومة تفكر فيما لم تفكر فيه .

وإذن فقد تعمد وزير[1] الداخلية القيسى باشا – إن صح ما جاء بالسياسة – أن

كوكب الشرق فى ٢٠ – ٦ – ١٩٣٣ .

(١) قالت صحيفة الكوكب (٢٢ – ٦ – ١٩٣٣) انتهى الأستاذ صادق العجيزى وكيل نيابة مصر ومن معه من ضباط البوليس والجنود من تفتيش إدارة الكوكب فى نحو الساعة الثالثة من بعد ظهر ٢٢ – ٦ – ١٩٣٣ وحينئذ رفع الحصار عن إدارة الكوكب وانصرف المحقق ورجال البوليس .

وفى الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم المذكور اتصلت نيابة مصر بدار الدكتور طه حسين طالبة منه أن يذهب إلى

يلهى الناس عن المبشرين ، فحاول ذلك وسلك إليه طريقا لا ندرى أين يقع من فضائل الإسلام ومكارم الأخلاق لاسيما الأخلاق التى تلائم كرامة الوزراء ومناصب الدولة الكبرى ، وإذن فقد كان الأمر كله تلهية وتلهية بغير حق .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ولكن الوزراء جميعا أقروا زميلهم بالسكوت على ما قال ووافقوه على ما زعم فشاركوه فى تبعاته الخلقية والدينية ، فهم جميعا قالوا لمجلس النواب وللمسلمين – إن صح زعم السياسة – غير الحق . وهم جميعا حاولوا صرف الناس عن المبشرين وأعمالهم بهذا النبأ الذى لا يصور الحق ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، فإن للوزارة صحفا تؤيدها وتدعو لها ، وتثنى عليها ، وقد استغلت هذه الصحف موقف وزير الداخلية فأذاعته وبشرت به ، وغلت ومازالت تغلو فى حمده والثناء عليه . وإذن فهذه الصحف تشارك الوزراء فى إذاعة غير الحق ، والتلهية بغير حق ، وصرف الناس عن المبشرين بهذه الأنباء التى لا تلائم الحق .

ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد زعمت صحيفة الشعب أن هذا المقدار كان كبيرا ، ولكن حضرة صاحب الجلالة الملك لم يرض به ، بل أمر فرفع إلى السبعين ألفا . وإذن فقد استباحت صحيفة الشعب لنفسها – إن صح ما تحدثت به السياسة – أن تتحدث عن حضرة صاحب الجلالة الملك بغير حق . واستباحت صحيفة الشعب لنفسها – إن صح ما تحدثت به السياسة – أن تموه على الناس ، وتدعو للوزارة باسم جلالة الملك ، ومقام جلالة الملك أرفع وأعلى وأكرم على المصريين جميعا من أن يتخذ وسيلة إلى الدعاية ، ولاسيما حين لا تعتمد هذه الدعاية على الحق . فان من الهين على الناس أن يعد الوزراء ويخلفوا ، ومن الهين على الناس أن يقول الوزراء ثم لايدققوا فى القول ولكن الشيء الذى لا ينبغى ولا ينبغى أن يؤذن به أو يصر عليه أن تذاع الوعود باسم حضرة صاحب الجلالة الملك ، ثم يتبين الناس أنها لم تكن حقا ، وأنها لم تصدر عن جلالة الملك ، وإنما اخترعت اختراعا ، واتخذت وسيلة للدعاية السياسية من جهة ، ولصرف الناس عن المبشرين من جهة أخرى .

دار النيابة الساعة السابعة مساء فذهب ومعه الأستاذ صبرى أبو علم المحامى واستمر التحقيق من الساعة السابعة إلى التاسعة فيما كتبه تحت عنوان « تلهية » .

وسمعت أقوال فريد أفندى شحاته سكرتير الدكتور طه كشاهد بعد أن حلف اليمين أمام رئيس النيابة ، وقرر أن الدكتور طه هو كاتب المقال .

وقد وجهت إليه النيابة تهمة الطعن فى وزير الداخلية بأن نسب إليه أمورا لو صحت لأوجبت احتقاره فى نظر مواطنيه .

وقد حكمت عليه المحكمة بغرامة قدرها خمسون جنيها .

صبـــر

هو فضيلة من غير شك ، بل قل فضيلة من أرقى الفضائل وأزكاها ولعله أرقى الفضائل وأزكاها . فبالصبر يمتاز الرجل الذى تمت له خصال الرجولة كلها ، والذى يستطيع أن يلقى المكروه فلا يفزع منه ، ولا يضيق به ، ولا يصبح صدره منه حرجا كأنما يصعد فى السماء .

وبالصبر يستطيع الرجل أن يهزأ من الحوادث ، ويسخر من النوائب ويبتسم للخطوب . وبالصبر يستطيع الرجل أن يحتمل الفتنة ويثبت للمحنة ، وينظر فى الأشياء نظرا هادئا مطمئنا ، لا يفسده خوف ولا رجاء . وإنما هو مستقيم معتدل ، قوامه حكم العقل وصواب الرأى . ثم بالصبر يستطيع الرجل أن يخطو فى حياته العاملة خطوات بريئة من الطيش ، آمنة من العثار بمقدار ما تسمح الطبيعة الإنسانية لأصحابها بأن يبرأوا من الطيش ويأمنوا من العثار .

ولكن هذا الصبر أنواع ، وله ضروب وفنون ، وفيه ألوان وأشكال ، فهناك صبر ثقيل جدا ، ليست فيه مرارة الانتظار وحدها ، بل فيه أيضا ثقل الأعباء وشدة الحرمان . وهناك صبر لذيذ تحيط به ضروب من النعمة وألوان من اللذة ، فتشوب مرارته وتخففها بعض الشيء وتجعلها محتملة بل محببة إلى الأذواق ، مشتهاة فى النفوس .

وقد ابتلى الله الأمة المصرية بالصبر فى هذه الأيام ، لم يفرق فى ذلك بين أغنيائها وفقرائها ، ولا بين شعبها ووزرائها ولا بين جهالها وعلمائها ، فكل مصرى ممتحن فى قدرته على الصبر مفتون فى طاقته للاحتمال .

وقد ذكر رئيس الوزراء فى أحد حديثيه مع الصحف الباريسية الصبر ومزاياه ، فجعل الصبر قاعدة من قواعد الحكم وأصلا من أصول السياسة . ورئيس الوزراء كان

كوكب الشرق فى ٢٣ - ٦ - ١٩٣٣ .

موفقا كل التوفيق فى اهتدائه إلى الصبر وجعله أساسا لكل المشاكل السياسية بيننا وبين الانجليز ، بل بيننا وبين الأجانب عامة . فرئيس وزرائنا واثق بأن المفاوضات آتية لا ريب فيها ، وبأن الخلاف بيننا وبين الانجليز سيزول فى يوم من الأيام ، ولكن السبيل إلى المفاوضات وإلى حل الخلاف إنما هو الصبر ، والصبر وحده . وأؤكد لك أنك تسرف وتغلو ، بل تتجاوز الإسراف والغلو إلى شيء لا أدرى كيف أسميه إن أنكرت على رئيس وزرائنا أنه جلد صبور فى المسائل السياسية عامة ، وفيما بيننا وبين الانجليز بنوع خاص .

لقد نهض الرجل بأعباء الحكم ، وأراد أن يفاوض ولكنه يرجو أن يفاوض ، فلما دخل فى العام الثانى هم بالمفاوضة ، وكان قد أجرى الانتخاب وجمع البرلمان فتقدم إلى الانجليز فى المفاوضة ولكنهم استمهلوه فأمهلهم ، واستنظروه فأنظرهم ، ومضى صيف ، جاء بعده صيف ، جاء بعده خريف . ومضى شتاء جاء بعده ربيع . وتمت دورة العام ودورة البرلمان ، فهم رئيس الوزراء بالمفاوضة ، ودعا إليها وألح فى الدعاء ، ولكن الانجليز دفعوه فاندفع ، وردوه فارتد ، وطالبوه بالصبر فأسرع إليه ، أسرع إليه ولكن بشرط أن يعطيه الانجليز لجة كما يقول الشيخ حمزة فتح الله — رحمه الله أو تصبيرة كما يقول مثلك ومثلى من الناس ! وقد أعطاه الانجليز هذه اللمجة أو التصبيره ، فلقيه وزير خارجيتهم فى جنيف ومس معه طرفا من السياسة فى طرف من حديث . وعاد رئيس الوزراء وقد تبلغ بهذا الطعام اليسير فتعلل به وصبر عليه . ومضى خريف تبعه شتاء ، وجاء بعده ربيع ووقعت فى هذه الفصول أحداث عدلت لها الوزارة مرتين ، ومرض لها رئيس الوزراء وغيره من زملائه ، ولكن شيئا من هذا لم يزعزع رئيس الوزراء عن صبره الواسع واحتماله العريض . فمازال واثقا بالمفاوضات ، راغبا فيها ، ملحا فى الثقة والرغبة ، مستعينا عليهما بالصبر وزيارة الشيخ الإنبابى وغيره من الأولياء والقديسين ، حتى أقبل الصيف وسافر إلى فرنسا ليستريح ويستعين بالصبر على المفاوضات.هو إذن صابر مصابر ، أستاذ فى الصبر والمصابرة ، وليس صبره مقصورا على المفاوضات ، بل هو يتناول كل المسائل السياسية التى يعرض لها بحكم منصبه ، فهو كالأمة المصرية ، يريد إلغاء الامتيازات من غير شك ، لأن إلغاء الامتيازات شرط لتمام السيادة القومية ، ورئيس وزرائنا شديد الحرص جدا على السيادة القومية ، واذكر رده التاريخى على رئيس وزراء الانجليز .

هو إذن يريد إلغاء الامتيازات ولكنه يستعين على إلغاء الامتيازات بما يستعين به على

المفاوضات بالصبر وطول البال وزيارة الشيخ الانبابى وغيره من أولياء الله المقربين ، وهو واصل من غير شك إلى إلغاء الامتيازات من نفس الطريق التى سيصل منها إلى مفاوضة الانجليز .

ورئيس وزرائنا شديد الحرص كغيره من المصريين على ألا يستهلك الدين ولا يؤدى فوائده إلا وَرَقًا ، ولكن هذه مسألة سياسية خطيرة تحتاج إلى التمهل والأناة ، وإلى سعة الحيلة وطول الانتظار . ورئيس وزرائنا خير من يتمهل وخير من يستأنى ، وخير من يحتال وخير من ينتظر . وهو يستعين على هذا كله بالصبر وزيارة الشيخ الإنبابى وغيره من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ومادام رئيس وزرائنا صابرا مصابرا ، مرابطا فى فرسايل ، فسيذعن له الفرنسيون والإيطاليون والانجليز ، وسيقبلون منه الورق مكان الذهب النضار .

وكذلك يلقى رئيس الوزراء على المصريين درسا فى الصبر والاستعانة به على الأحداث والخطوب ، ولكن صبر رئيس الوزراء مهما يطل فهو هين يسير الاحتمال ، لأن إرجاء المفاوضات إلى أجل غير مسمى يؤذى الشعب المصرى فى مصالحه ومنافعه وحاجاته وآماله أكثر ألف مرة ومرة مما يؤذى شخص رئيس الوزراء ، ولأن بقاء الامتيازات يؤذى مصر كلها فى كرامتها واستقلالها أكثر ألف مرة مما يؤذى شخص رئيس الوزراء ، ولأن الإبطاء فى حل مسألة الدين يضيع مصالح مصر أكثر ألف مرة ومرة مما يمس رئيس الوزراء . فصبر رئيس الوزراء على هذه الأشياء ليس صبرا على أذى يصيبه أو ضرر يلم به ، وإنما هو صبر على أذى يصيب غيره وعلى آلام تلذع غيره ، وعلى ضر يمس غيره .

ما أيسر الصبر على مثل هذه الأشياء ! ما أيسر صبر الصحيح على مرض المريض ، ولاسيما إذا لم يكن من أهله ولا من أصدقائه ! كلنا صابر على هذا النحو كرئيس الوزراء مهما يكن مرا فقد تشوبه وتخفف مرارته حلاوة المنصب وما تستتبع من قوة وبأس ، ومن جاه وسلطان ، ومن ترف ونعيم فى مصر حينا ، وفى أوربا حينا آخر . كان صبر رئيس الوزراء لونا من ألوان الترف الذى يتمناه الناس جميعا ولكنه لا يتاح للناس جميعا .

هناك صبر آخر ليس كصبر رئيس الوزراء لأنه مر خالص لا تشوبه حلاوة ولا يخففه لين ولا نعيم . فيه خضوع لضروب من العسف والجور ، وفيه احتمال لصروف من

البأس والمكروه وفيه جوع وفيه حرمان ، وفيه تعرض للمرض والأوبئة ، وفيه أكثر من هذا كله ، وأشد من هذا كله . فيه شعور الناس ، بأنهم قد خلقوا كراما أحرارا ، وعجز الناس عن أن يستمتعوا بهذه الكرامة وهذه الحرية وهذا الصبر المر الثقيل الطويل هو الذى أراد الله أن يمتحن به فى هذه الأيام جيلا من الناس يقال لهم المصريون . والله – عز وجل – قادر على أن يبلو المجاهدين والصابرين بالوان المحن فى الأنفس والأموال والثمرات ، وهو قادر بعد أن يبلوهم فى هذا كله على أن يثيبهم على ما صبروا ، ويأجرهم على ما احتملوا ويحسن جزاءهم على ما جاهدوا ويرد عليهم ما امتحنهم فيه فإذا هم كرام وإذاهم أحرار .

فليصبر رئيس الوزراء فى فرسايل وغيرها من ربوع أوربا وليصبر المصريون فى مصر ، فإن الله مع الصابرين ، ولكن مع الصابرين حقا .

إبطـــاء

ماذا صنع الله بالموظفين ؟ وعلاوة الموظفين ؟ والاعتماد لهذه العلاوة ؟ فقد زعموا أن بابا عظيما من أبواب الاستثناء فتح على مصراعيه قبل أن يبرح رئيس الوزراء أرض مصر ، وأن قوما من الأصفياء والأولياء والمقربين والمحسوبين قد مستهم أجنحة الرحمة فزيد فى أرزاقهم وارتقوا درجات فوق درجاتهم وزعموا أن المساكين من صغار الموظفين شكوا من هذا الاستثناء ، وتبرموا به ، وألحوا فى أن تمسهم هم أيضا أجنحة الرحمة هذه ، وزعموا أن الحكومة رقت لهم وعطفت عليهم ، وطلبت إلى الوزارات أن تقدم كل واحدة منها ثبتا بأسماء الذين يستحقون أن تنالهم رحمة الله ورحمة الوزارة لطول ما صبروا على البؤس واحتملوا ثقل الحرمان ، وزعموا أن الوزارة فكرت فى أن ترصد أو أرصدت بالفعل عشرة آلاف من الجنيهات ترد بها على هؤلاء الموظفين بعض ما يستحقون من رحمة وعطف ، ومن بر وإشفاق . ثم زعموا أن الوزارة ألفت لجنة للنظر فى هذه العلاوات كيف توزع ، وفى هؤلاء الموظفين كيف يرقون ويزدادون ، وتحدثوا بعد ذلك بأن هذه اللجنة اجتمعت وتفرقت مرة أو مرتين ، لا أدرى ثم انقطع الحديث وشغل الناس عن أمر هؤلاء الموظفين وعلاواتهم وترقياتهم فلم يفكر فيهم أحد ، ولم يتحدث عنهم أحد ، إما لأن الحوادث فى مصر يسرع بعضها إثر بعض فيمحو بعضها بعضا ، أو ينسى بعضها بعضا ، وإما لأن الأمور فى مصر لا تحب السرعة ، وإنما تحب الأناة والهدوء ولاسيما حين تدعو الحاجة إلى السرعة وتمس إليها الضرورة الملحة . وإما للأمرين جميعا . ومع ذلك فلايزال البؤس ملحا على هؤلاء الموظفين ، ولعل الحاجة تزداد من يوم إلى يوم . ولعل حظهم وحظ أبنائهم من الحرمان يعظم بين شروق الشمس وغروبها ، ولعل ضيقهم بذلك الاستثناء وسخطهم على إيثار غيرهم بالخير من دونهم يشتدان من حين إلى حين ، ولعل من المنفعة للحكومة وللموظفين الذين مسهم الاستثناء وللموظفين الذين ينتظرون الخير ، ألا يكون وعد الوزارة بهذه العلاوات أفلاطونيا كسحاب الصيف لا يكاد يظهر فى الجو ويحيى الأمل حتى يتفرق ويعقبه اليأس .

كوكب الشرق فى ٢٣ – ٦ – ١٩٣٣ .

فالحكومة من غير شك حريصة ونحن حريصون معها على أن يحسن ظن الموظفين بها ورأيهم فيها ، وعلى أن يصدقها الموظفون إن قالت ، ويؤمنوا لها إذا وعدت وينتظرون صدق القول وتحقيق الوعد فلا يطول بهم الانتظار . والموظفون الذين مسهم الاستثناء قد يرضيهم أن يمتازوا ، وقد يسرهم أن يظهروا امتيازهم هذا ، وقد يعجبهم أن تؤثرهم الوزارة من دون غيرهم بالبر والعطف والتمييز ولكنهم مصريون على كل حال ، فما نظن رضاهم بهذا الامتياز إلاموقوتا،يهدأويستقر إذا مضت عليه الأيام والأسابيع ، وهم من الناس على كل حال ، فما نظن أنهم يحبون أن يسيىءإخوانهم بهم الظن ، ويضمروا لهم الحقد ، ويطيلوا حسدهم على ما أولتهم الوزارة من فضل ، فهم قد فرحوا وهم قد ظفروا ، وهم قد رضوا بالامتياز واقتحام الصفوف ولكنهم لا يكرهون أن يفرح غيرهم ويظفر ، ولا يكرهون أن يصيب غيرهم بعض ما أصابهم من هذا الغيث .

وهؤلاء الموظفون الذين لم يترددوا فى التضحية حين طلبت التضحية ، ولا فى احتمال الحرمان حين طلب إليهم احتمال الحرمان ، ولم يجزعوا حين أعلن إليهم أن قد حيل بين مرتباتهم وبين الزيادة ، ولم يفرقوا حين أعلن إليهم أن مرتباتهم على ضآلتها ستنقص بعض الشيء ، هؤلاء الموظفون ابتهجوا حين سمعوا أن الوزارة تريد أن تنالهم بشيء من العطف وأن ترفع مرتباتهم قليلا ، ابتهجوا وعادوا إلى أهلهم باسمين ينبئونهم بأن شيئا من الضر قد يرفع عنهم ، وأن شيئا من اليسر قد يلم بهم ، وأخذوا يمنون أنفسهم وأهلهم الأمانى ، وأخذوا ينتظرون وأهلهم ينتظرون معهم ، فليس من الخير أن يظفروا باليأس ويغنموا خيبة الأمل . وليس من الخير أن يطول انتظارهم كما يطول ليل الشتاء أو كما يطول شهر الصوم فيما كان يقول القدماء . وإنما الخير أن تتعجل الحكومة فتبر بوعدها وتفى بعهدها ، وتريح هؤلاء الناس من بعض ما يجدون .

ولقد نحاول أن نتبين سر هذا الإبطاء فلا نجد الى هذا سبيلا ، فأى شيء أيسر من عمل هذه اللجنة التى ألفتها الوزارة منذ سافر رئيس الوزراء .

إن أمور هؤلاء الموظفين واضحة بينة وحاجتهم إلى العلاوة والترقية أوضح وأجلى ، واستحقاقهم لهذه العلاوة والترقية أشد وضوحاً وأكثر جلاء . وكل وزارة أو مصلحة قادرة على أن تهيىء ماعندها من ذلك فى أسرع وقت وأقصره . واللجنة قادرة على أن تقضي فيه دون إسراف فى التمهل والتريث ،ولكن فى الأمر عسرا فيما يظهر . فأين تقع العشرة آلاف من هؤلاء الموظفين الكثيرين الذين يحتاجون إلى العلاوة ويستحقونها

وينتظرونها وكيف يكون التمييز العدل بين من ينبغى أن يمسه جناح من رحمة ومن ينبغى أن ينتظر الآن ؟

هذه مشكلة حقا ، وكان من اليسير أن تحل لو أن الحكومة طابت نفسها عن مقدار أوسع وأضخم من هذه العشرة آلاف . ومازال من حق الحكومة أن تزيد المقدار مادامت خزانتها تسمح بالإنفاق على جبل الأولياء ، وعلى بحيرة تسانا ، وعلى المؤتمرات التى تعقد فى القاهرة أو يشهدها المصريون فى غير القاهرة دون أن تدعو إليها حاجة أو تمس إليها ضرورة . ومن الحق الذى لا يقبل شكا ولا نزاعا أن الموظفين الصغار أجدر بأن تنفق عليهم هذه الآلاف التى أرصدت أو يراد أن ترصد لمؤتمر الطيران ، فقد نكون فى حاجة إلى أشياء كثيرة قبل أن نحتاج إلى مؤتمر الطيران هذا . ومن الحق الذى لا يقبل شكا ولا نزاعا أن هؤلاء الموظفين كانوا أجدر بأن تنفق عليهم هذه الألوف التى أنفقت على مؤتمر السكك الحديدية ، فلأن يستريح صغار الموظفين المصريين فى حياتهم ويقبلوا على أعمالهم محبين لها ، مخلصين فى النهوض بها خير ألف مرة ومرة من أن يستمتع الأجانب من أعضاء هذا المؤتمر بضيافتنا الواسعة العريضة وما تستتبعه من اللذة والنعيم فى أقطار مصر ، وعلى ضفاف النيل .

ومهما يكن من شيء فإنا نريد أن نذكر الحكومة بأمر هؤلاء الموظفين إن كانت قد نسيته ، وأن نتعجلها فيه إن كانت لاتزال تذكره وأن نطلب إليها ألا تتخذ الصبر لها قاعدة كما يتخذ رئيس الوزراء الصبر له قاعدة فى أمر المفاوضات والامتيازات والدين وغيرها من المسائل السياسية العامة ، فقد يكون من اليسير كما قلنا أمس أن يصبر المكتظ على جوع الجائع ، والموسر على عسر المعسر ، والصحيح على مرض المريض ، ولكن الشيء العسير حقا الشاق حقا هو أن يصبر الجائع على الجوع ، والمعسر على العسر ، والمريض على المرض والمحروم على الحرمان . وقد صبر هؤلاء الموظفون فأحسنوا الصبر وآن لهم أن يجنوا ثمرته . ومادامت الحكومة قد خرجت عن منع العلاوات ، ووعدت بالترقية على هؤلاء الموظفين ، فمن الخير أن تسرع إلى البر فى غير مما طلة ، ولا التواء ، وقديما قال الناس إن خير البر عاجله .

تجـــن

إذا أخطأت الحكومة فبين المعارضون خطأها ، وطلبوا إليها أن تصلحه ، وإذا قصرت الوزارة فأظهر المعارضون تقصيرها وطلبوا إليها أن تنصرف عنه ، وإذا شطت الوزارة فبين المعارضون شططها وطلبوا إليها أن ترتد إلى شيء من القصد والاعتدال ، غضبت الوزارة واشتد غضبها ، وشكت الوزارة وأشتدت شكاتها ، وفكرت الوزارة فى البأس والبطش وهمت بهما ، وأندفعت فيهما ما وجدت إليهما سبيلا ، وقال أنصار الوزارة وأعوانها فى هؤلاء المعارضين إنهم يتجنون ويتكلفون اللوم ، ويأبون إلا النقد ، لا يريدون به خيرا ، ولا يبتغون به منفعة ، وإنما يذهبون به إلى إحراج الوزارة وأخذ الطرق عليها واضطرارها إلى أن تدفع عن نفسها بالشدة فتغلو فى الدفاع . وإذا عمد رئيس الوزراء إلى دستور كان قائما يؤمن له الناس ويحبونه ويرون الطاعة له فرضا لأنهم عاهدوا الله على ذلك ، وأقسموا عليه بمحرجات الأيمان ، إذا عمد رئيس الوزراء إلى هذا الدستور فأقام مكانه دستوراً آخر ، ولم يسلك إلى ذلك الطريق الدستورية المنصوص عليها فيه والتى كانت مشروعة مفروضة فأنكر الناس ما فعل رئيس الوزراء ، ورغب الناس فى أن يعود إليهم هذا الدستور ، ولم يسلكوا إلى ذلك إلا الطريق المشروعة المباحة التى لا إثم فيها ولا تثريب ، قال رئيس الوزراء إنهم ثائرون ، وقال أعوانه وأنصاره معه نعم ، إنهم ثائرون . وإذا أباح الدستور القائم للناس أن يقولوا ما وسعهم القانون ، وأن ينتقلوا ما وسعهم القانون ، وأن يستمتعوا بحريتهم كما يستمتع بها رئيس الوزراء وأصحابه ، قال رئيس الوزراء إنهم ثائرون ، وحال رئيس الوزراء بينهم وبين القول ، وحال رئيس الوزراء بينهم وبين الانتقال ، وحال رئيس الوزراء بينهم وبين الاجتماع ، وصدهم رئيس الوزراء عن أسفارهم وعن أنديتهم بأيدى الشرطة وعصيها وسياطها . وأبى رئيس الوزراء عليهم أن يلقى بعضهم بعضا أو يزور بعضهم بعضا ، أو يتحدث بعضهم إلى بعض ، وأرصد رئيس الوزراء لهم الشرطة تطوف حول بيوتهم ، وتقوم على أبوابهم وتتبعهم إذا بكروا وتتعقبهم إذا راحوا وتقتحم عليهم مساجد الله إذا أدوا فيها الصلاة ، وسكت الأجانب على هذا كله ، واطمأن الأجانب إلى هذا كله ، ورضى

الانجليز عن هذا كله وقالوا : مصر بلد مستقل فلا ينبغي أن ندخل بين حكومته وأهله ، وأثنوا على رئيس الوزراء وعلى أعوانه وأنصاره ، لأنهم يثبتون النظام بهذه السيرة ، ويقرون الأمن بهذه الخطة . وإذا طغى الأجانب على المصريين فتحكموا فى منافعهم ومرافقهم ، وازدروا حريتهم وكرامتهم وعرضوا فريقا منهم للجوع والحرمان . وأظهر المصريون شيئا من استنكار ذلك أو السخط عليه ، غضب الأجانب وأسرفوا فى الغضب ، وشكا الأجانب وألحوا فى الشكوى ، وقال الأجانب إن فى مصر بغضا لهم ، وائتمارا بهم وتحريضا عليهم . واستعان الأجانب على المصريين بالإنجليز ، وشكا الأجانب من المصريين إلى الوزارة المصرية . وإذا اعتدى المبشرون من الأجانب على صبيان المصريين من أبنائهم وبناتهم ففتنوهم فى دينهم لا يفرقون فى ذلك بين المسلم والمسيحى واليهودى ، وسلكوا إلى ذلك طريق الإكراه والتعذيب حينا ، وطريق الإغواء والإغراء حينا آخر ، وطرق العبث والخداع وإفساد الإرادة بالتنويم المغناطيسى مرة ثالثة . إذا فعل المبشرون هذا كله وقامت عليه الحجة الواضحة ونطقت به الحقائق الواقعة ، واعترف به المبشرون أنفسهم ، واعترفت به الوزارة نفسها ، واعترف به البرلمان نفسه ، ثم أنكره المصريون ، واحتجوا عليه وطلبوا أن يصرف عنهم هذا الشر ، ويرفع عنهم هذا الضر ، غضب الأجانب وسخط الانجليز وقالت التيمس إن المعارضين يتخذون قضية التبشير وسيلة إلى إحراج الحكومة والكيد لها ، ولم يتحرج أنصار الوزارة نفسها من أن يقولوا كما تقول التيمس ويتهموا المعارضين بمثل ما تتهمهم به التيمس ، ويزعموا أن المعارضين لا يقولون ولا يعملون إلا ليحرجوا الوزارة ويكيدوا لها ويسلطوا عليها أنواع الإحراج والتعجيز . ومعنى هذا كله أن المصريين يجب أن ينكروا أنفسهم وينزلوا عن حقهم فى الحياة الحرة ويرضوا بما قسم الله لهم من الذلة والخضوع ، لا ينبغى لهم أن يلوموا الوزارة إن أخطأت أو قصرت أوشطت لأن ذلك إحراج للوزارة وتجن عليها . ولا ينبغى لهم أن يشكوا أو يتبرموا إن طغى الأجانب على مرافقهم ، واستأثروا من دونهم بالخير فى بلادهم ، لأن ذلك بغض للأجانب وكيد لهم ، ولا ينبغى أن يسخطوا ولا أن يستعدوا الوزارة على المبشرين إذا اعتدى هؤلاء المبشرون على الأطفال فى الدين والأخلاق والأعراض ، لأن ذلك إغراء بالفتنة ، وتحريض عليها ، ولأن ذلك إحراج للوزارة ، وخروج على النظام .

يجب إذن ألا يكون المصريون ناسا من الناس فلا يحسوا شيئا ولا ينكروا شيئا ، ولا يشكوا من شيء ، لأنهم إن أحسوا شكوا وأنكروا ، وهم إن شكوا أو أنكروا ثائرون أو

كائدون أو محبون للفتنة وراغبون فيها . ولا تقل إن هذه الحال التى تريد الوزارة وأنصارها ، والتى يريد الأجانب والانجليز أن يردوا إليها المصريين غير ملائمة لطبيعة الأشياء ، ولا ملائمة للحق والعدل والإنصاف ولا ملائمة للكرامة الإنسانية اليسيرة ، فإن الأمر فى هذة الأيام ليس إلى طبيعة الأشياء ، ولا إلى الحق والعدل والإنصاف ، ولا إلى الكرامة الإنسانية ، وإنما هو إلى المنافع وإلى منافع الأقوياء خاصة . فيجب أن تجرى سفينة الوزارة على بحر هادىء مطمئن مستقر ، لا تعصف به الريح ، ولا يضطرب فيه الموج . وإنما يداعب صفحته النسيم . ويجب أن تضطرد أمور الأجانب على خير ما يحبون ، لا يجدون من المصريين مقاومة ، ولا شيئا يشبه المقاومة . ويجب أن تجرى أمور المبشرين على أحسن ما تجرى عليه فى أى بلد من الأرض فلا يغضب الآباء والأمهات إذا خضع أبناؤهم وبناتهم لأنواع العدوان .

يجب أن يكون المصريون كقطعة العجين يشكلها الأقوياء كما يحبون فلا يجدون منها مقاومة ولا امتناعا ، وإنما يجدون منها مرونة وطاعة ولينا . ولا تقل إن الأجانب أنفسهم فى بلادهم يعارضون الوزارات وينصبون لها الحرب ، ولا تقل إن الأجانب فى بلادهم لا يرضون بحال من الأحوال أن يعتدى على الدين والأخلاق والأعراض ، وأن يكون المعتدون من الغرباء . لا تقل شيئا من هذا ، فهذا كله حق لا شك فيه ، ولكنه حق فى أوروبا وأمريكا ، فلا ينبغى أن يكون حقا فى مصر ، لأن فى أرض مصر وسمائها ، وفى هواء مصر ومائها عناصر خاصة لا تكاد تتسلط على الحق حتى تجعله إجحافا . فى إقليم مصر عناصر خاصة تفرض على المصريين أن يحتملوا مالا يحتمل أحد غيرهم ، وأن يتعرضوا لما لا يتعرض له أحد غيرهم وأن يؤخذوا بمالا يؤخذ به الناس .

هؤلاء الأجانب من المبشرين وغير المبشرين يخشون الفتنة ويشفقون منها ، ولكنهم يثيرونها ويلحون فى إثارتها فمن المحقق أن المصريين لم يدعوهم إلى مصر ، وإنما هم الذين جاءوا مصر طائعين ومن المحقق أن المصريين قد شكوا إلى حكومتهم واستعانوا بهذه الحكومة ، ومازالوا يشكون إليها ، ويستعينون بها على إتقاء الفتنة قبل وقوعها — والاحتياط للشر قبل أن يصيب الآثم والبرىء . ومن المحقق أن المصريين — على كثرة ما يجدون من الشر ، ويحتملون من الضر — يتواصون بالصبر، ويتواصون باللين ، ويتواصون بالمحافظة على الأمن والنظام ، ولكن هؤلاء المبشرين لا يقفون عند شىء من ذلك ولا يحفلون بشىء من ذلك ، وإنما يريدون أن يباح لهم كل شىء ، ويؤذن لهم فى

كل شيء ، وألا يقاوموا فى شيء فإن رضى المصريون بهذا فذاك وإلا فهم أصحاب الفتنة والدعاة إليها ، وهم أعداء الأمن ، والخارجون على النظام .

هذا كثير وأكثر منه أن تقبله الوزارة وتصبر عليه ، فالوزارة مصرية على كل حال . ومهمايكن مذهبها فى الحكم ، ومهما يكن رأيها فى سياسة الشعب فإن من الحق عليها لنفسها أن لا ترضى أن يقال عن المصريين إنهم أصحاب فتنة مع أنهم أبعد الناس عنها ، وأحرص الناس على ألا تكون .

ليس من الحق (والوزارة نفسها تعلم أن ليس من الحق) أن المعارضين يتخذون قصة المبشرين وسيلة إلى إحراجها . وإنما الحق الذى لا شك فيه أن المعارضين قد أرادوا ومازالوا يريدون وسيريدون دائماً أن تنهض الحكومة بما خلقت له ، وهى إنما خلقت قبل كل شيء لحماية المواطنين من العدوان الخارجى ، ومن فساد النظام واضطراب الأمن فى داخل البلاد ، وليس حماية للمواطنين من العدوان الخارجى أن يترك المبشرون يفدون عليهم من كل مكان فيعبثون بصبيانهم ويسيئون إليهم فى الدين والكرامة والأخلاق ، وليس من إقرار الأمن وتثبيت النظام أن يخلى بين هؤلاء المبشرين وبين القصر والضعفاء يعبثون بهم كما فعلوا إلى الآن .

فالمصريون لا يثورون بأحد ، ولا يريدون شرا لأحد ، ولا يضمرون مكرا بأحد ، آمنين مطمئنين على ما يحب الناس أن يأمنوا عليه من الدين والكرامة والأخلاق والمنافع ، وهم يطلبون إلى وزارتهم أن تنهض بهذا الواجب على وجهه أو تستقيل .

فــوز

الناس مصروفون فى هذه الأيام بالأحداث السياسية وبما يصيبهم من المحن المختلفة فى حياتهم العامة والخاصة عن أشياء ما كانوا لينصرفوا عنها لو أنهم يحيون حياة طبيعية قوامها الهدوء والاطمئنان ولكنهم قد حرموا هدوء النفوس وحيل بينهم وبين اطمئنان القلوب فهم لا يخرجون من خطب إلا إلى خطب ، وهم لا يخلصون من حدث إلا إلى حدث . وهم لا يتحدثون إذا لقى بعضهم بعضا ، وخلا بعضهم إلى بعض إلا عن هذه الكوارث الملمة والحوادث التى لا تريح ولا تستريح . فكيف يتاح لهم مع ذلك من رضا النفوس وفراغ البال ما يمكنهم من أن يفرحوا بما يوجب الفرح ويغتبطوا بما يبعث الغبطة ويبتهجوا بما يدعو إلى الابتهاج . ومع ذلك فالله – عز وجل – لا يريد أن تكون حياة الناس شرا كلها ولا حزنا كلها ، وهو لا يريد أن يخليها مما يسر ويبعث على الرضا .

ولقد حدث فى الحياة المصرية منذ أسابيع حدث لو أن المصريين ينعمون بحياتهم الطبيعية لما مر فى هذا الصمت العميق الذى مر فيه . فهذه الجامعة المصرية قد أهدت إلى مصر لأول مرة الطبقة الأولى من الفتيات اللاتى أتممن دراسة الآداب والحقوق ، وظفرن فيها بدرجة الليسانس . ولو قد حدث هذا الحادث منذ ثلاثة أعوام لاغتبطت به مصر أشد الاغتباط ، ولأثار فى مصر أشد ما تثيره الحوادث من عناية الأفراد والجماعات ، ولكنه لم يثر شيئا فى هذا العام ، لأن الناس عن الخير القليل فى شغل بهذا الشر الكثير الذى يأخذهم من كل ناحية ، ويفسد عليهم حياتهم كلها .

لأول مرة أخرجت كلية الآداب فتاة مصرية قد درست اللغة العربية واللغات الشرقية وآدابها ، وظفرت بدرجة الليسانس ، وهى الآنسة سهير القلماوى ، ولأول مرة أخرجت كلية الآداب فتاة درست اليونانية واللاتينية وآدابها وظفرت فيهما بدرجة الليسانس وهى الآنسة فاطمة سالم ، ولأول مرة أخرجت كلية الآداب فتاتين درستا

كوكب الشرق ، ٢٦ – ٦ – ١٩٣٣ .

الفلسفة وعلوم الاجتماع ونالتا فيها درجة الليسانس وهما الآنستان زهيرة عبد العزيز ، وفاطمة فهمى .

ثم لأول مرة أخرجت كلية الحقوق فتاة درست علوم القانون وظفرت فيها بدرجة الليسانس وهى الآنسة نعيمة الأيوبى . وعما قليل تخرج كلية العلوم وكلية الطب فتيات أخريات درسن العلوم الخالصة ودرسن الطب وفروعه وظفرن فى هذا كله بالدرجات الجامعية .

فأى حدث خطير هذا الحدث فى حياتنا المصرية العقلية والاجتماعية ، وأى فوز عظيم هذا الفوز لأنصار الرقى والنهوض وأصحاب تحرير المرأة والتسوية بينها وبين الرجل فى الحقوق والواجبات . وأى أمل عظيم يبسط هذا الحادث أمام المصريين فى أن يروا أنفسهم كغيرهم من الأمم الراقية ، لا يختص فيهم بالعلم فريق دون فريق ، ولا يحتكر الثقافة فيهم جنس دون جنس ، ولا يحتفظ الرجل فيهم بما كان يحتفظ به من أسباب التفوق و العلو والسلطان .

رحم الله قاسما فلو قد عاش إلى هذه الأيام لسعد حين يرى جهوده قد وفقت ، وآماله قد حققت ، وكفاحه قد انتهى إلى غايته . رحم الله قاسما لو عاش إلى هذه الأيام لوجد فى هذا الفوز العظيم عزاء عما لقى فى حياته من أذى وما احتمل فى دعوته من مكروه ، ولكن الله – عز وجل – يريد أن يبتلى المصلحين بالفتنة والمحنة ، وقلما يتيح لهم أن يتعزوا فى حياتهم عما يصيبهم من فتنة ومحنة كأنه يؤثرهم بإعظام الأجر لهم فى حياتهم الثانية هذه التى لا يتعرض فيها النعيم لما يشوبه فى حياتنا الأولى من كدر أو سوء .

هؤلاء فتياتنا قد ظفرن بما يظفر به فتياننا من التعليم العالى ، وانتهين إلى ما ينتهى إليه فتياننا من نيل درجاته والنجاح فيه فلنهنىء مصر بهذا الفوز ولنهنىء المرأة المصرية بهذا التوفيق ولنهنىء الجامعة المصرية بأنها هى التى مهدت السبيل إلى هذا الفوز والتوفيق ، ولكننا لا نحب أن نكتفى بتسجيل الفوز ، ولا نريد أن نقف عند تهنئة مصر والمرأة المصرية وآنساتنا الناجحات، وإنما نريد أن نعرف ماذا أعدت مصر ، أو ماذا تريد أن تعد لهؤلاء الفتيات اللاتى خرجن من الجامعة واللاتى سيخرجن منها يتبع بعضهن بعضا . فقد تغيرت حياتنا كلها وعقليتنا كلها ، ولم تصبح المرأة فيها كما كانت ترفا وزينة ، وإنما أصبحت مقوما لها كالرجل ، ليس بينهما فى ذلك فرق قليل ولا كثير . وقد تغيرت حياتنا كلها وعقليتنا كلها وأصبحنا لا نعلم الفتاة على أن يكون تعليمها ترفا وزينة لها

ولاسرتها وبيئتها ، وإنما نعلمها لتنتفع بالعلم كما ينتفع به الفتى فترقى كما يرقى ، وتعمل فى الحياة كما يعمل ، وليس يكفينا أن يقال إن فتياتنا قد ظفرن بالدرجات الجامعية ، وإنما نريد أن ينفع ظفرهن بهذه الدرجات وأن تفتح هذه الدرجات لهن أبواب النشاط فى فروع حياتنا المختلفة . وكانت الجامعة قد فكرت فى بعض ذلك منذ عامين فأتفقت مع وزير المعارف السابق على أن تفتح للجامعيات أبواب معهد التربية كما فتحته للجامعيين . وكانت هذه الفكرة قد وجدت من وزير المعارف السابق استعدادا حسنا ، فألف لجنة نظمتها ووضعت لها الحدود ، وبالغ فى العناية بهذه الفكرة فقرر أن يأخذ على الطالبات عهدا بالالتحاق بهذا المعهد ، وأن يعتبرهن بعثة فى الجامعة ، تعينهن وزارة المعارف بالمكافآت . ومضى وزير المعارف السابق فى تنفيذ هذه الفكرة إلى أقصى حدوده ، فقدم الطالبات إلى الكشف الطبى ، وأخذ على بعضهن تلك العهود فلما ترك وزارة المعارف ، وجاء الوزير القائم غير ما كان قد اتخذ من قرار ، وفكر فى أن ينشىء للفتيات معهدا خاصا ، غلوا منه فى المحافظة ، وإصرارا منه على التقاليد ، وأنكرنا عليه تلك الخطة لأن فيها عبثا وإسرافا ، ولأن فيها تناقضا واضطرابا . فمادامت التقاليد قد أذنت أن يختلف الطلاب والطالبات إلى دروس العلم فى الجامعة فإنها تأذن – من غير شك – فى أن يختلف الطلاب والطالبات إلى دروس العلم فى معهد التربية على أن وزير المعارف لم يصنع شيئا ، فلا هو أنشأ معهدا للفتيات ، ولا هو أذن لهن فى الالتحاق بالمعهد القائم ، ومع ذلك ففى مصر تعليم ثانوى للبنات . وهذا التعليم محتاج إلى معلمات . وهؤلاء المعلمات تخرجهن الجامعات الأوربية التى ترسل إليها وزارة المعارف فتيات مصريات يتعلمن فيها ويظفرن بدرجاتها . وقد أخذت الجامعة المصرية تمنح درجاتها لفتيات مصريات . فأيسر أصول الحق والعدل والمنفعة والاقتصاد تقضى على وزارة المعارف بأن تعتمد على هؤلاء الفتيات فى إمداد المدارس الثانوية للبنات بمن يقمن فيها بأمور التعليم ، وليس على التقاليد حرج فى هذا ، فمن اليسير أن تقبل هؤلاء الفتيات فى معهد التربية على ألا يخضعن لنظامه الداخلى حتى تستطيع وزارة المعارف أن تهيىء ذلك لهن على ما يلائم التقاليد والدين والآداب ، أى تستطيع وزارة المعارف أن تجد لهن دارا يأوين إليها وحدهن إذا فرغن من الدرس .

وقد ظفرت الفتاة الفرنسية خلسة منذ أعوام بالنجاح فى مسابقة مدرسة المعلمين العليا ، فاضطرت وزارة المعارف الفرنسية أن تفتح لها هذا الباب الذى كان مغلقا فى وجهها من قبل . وقبلت الفتاة فى هذه المدرسة على ألا تخضع لنظامها الداخلى فليخط

وزير المعارف هذه الخطوة فإن فيها الخير كل الخير ، وليس فيها على التقاليد بأس ولا جناح .

خاتمــة

أما المقدمة فقد قرأهـا من قرأهـا ، وسمعهـا من سمعهـا من النـاس يوم افتتـحت الـدورة البرلمانية فى آخر العام الماضى ، وألقى رئيس الوزراء خطبة العرش ، فرأى الناس وعودا كثيرة . وأما الخاتمة فقد سمعها من سمعها ، وقرأها من قرأها ، ورآها من رآها أمس واليوم فى هذه الخطب القصار والطوال التى القيت فى مجلس النواب وفى مجلس الشيوخ . وفيها تسجيل وليس فيها وعد ، وفيها آمال يرجو الشيوخ والنواب والوزراء أن تتحقق ، وعند الله وحده تحقيق الآمال . والله وحده قادر على أن يمضى فيتم ما قضى مهما يقل الناس ، ومهما يعملوا ومهما يرج الناس ومهما يأملوا .. على أن هذه الخاتمة التى انتهت بها الدورة أمس لا تخلو مما يدعو إلى التفكير ، ويثير فى النفوس عبرا وعظات يحسن أن يعتبر بها الحكماء ويتعظ بها الألباء فقوام هذه الخاتمة شكر وثناء ، وحمد وإطراء . كل إنسان فى البرلمان شاكر ومشكور ، وكل إنسان فى البرلمان باذل للمدح وقابل للثناء .

أما رئيس مجلس النواب فيبدأ بما يجب البدء به من حمد الله عز وجل والثناء عليه ، ثم ينثر باقة من الزهر تغمر الوزراء والنواب جميعا ، ثم يعود إلى التفصيل بعد الإجمال فيحمد الوزراء ويثنى عليهم ، ويشكر النواب ويطريهم ولا ينسى الموظفين من سكرتيرية المجلس ولايكاد يفرغ الرئيس حتى يقفى على آثاره النواب ، فإذا هم يحمدون ويثنون ، وإنما هم يشكرون ويطرون ، ثم يرد رئيس الوزراء بالنيابة فيجزى ثناء بثناء ، وإطراء باطراء . ويقع مثل هذا فى مجلس الشيوخ فقد شرب الوزراء والنواب والشيوخ إذن من الثناء بالصغير وبالكبير حتى ارتووا ريا لن يظمأوا بعده إلى آخر الصيف وكم كنا نحب أن نقدم أقداح الثناء وكئوسه إلى الوزراء والنواب والشيوخ من غيرهم ، لا من أنفسهم ، وأن يثنى عليهم الشعب أفراده وجماعاته بدل أن يثنى بعضهم على بعض ، ويهدى بعضهم إلى بعض هذه الباقات المنسقة من الحمد والإطراء ، ولكن المثل القديم لم يخطىء حين قال :

ما حك جلدك مثل ظفرك .·. فتول أنت جميع أمرك

فإذا قصر الشعب راضيا أو طائعا فى ذات الوزراء والنواب والشيوخ فمن الحق عليهم هم ألا يقصروا فى ذات أنفسهم ، وإذا بخل الشعب راضيا أو كارها على الوزراء والنواب والشيوخ بالتقدير والشكر والاعتراف بالجميل ، فمن الحق عليهم لأنفسهم أن يقدروها ويشكروها ويعترفوا لها بالجميل ، وقد فعلوا وبلغوا من ذلك أمس ما يريدون وأكثر مما يريدون . ومهما ننقدهم ، ومهما ننكر عليهم فلن نستطيع أن نصفهم بأنهم قصروا أمس في ذات أنفسهم أو بخلوا أمس على أنفسهم بالإكبار والإعظام ، وبالتحية والتقدير .

أما الشعب فهو بين اثنتين : إما أن يكون جاحدا للفضل منكرا للجميل ، ظالما للذين يحسنون إليه ، بخيلا على الذين ينالونه بالفضل ، ويغمرونه بالنعمة ، وهو لذلك يستقبل الخاتمة فاترا كما استقبل المقدمة فاترا ، فلا يحمد ولا يثنى ، ولا يشكر ولا يطرى . وإما أن يكون بليد الحس ، نائم الشعور ، يأخذه الإحسان من كل مكان فلا يحسه ولا يشعر به ، وتغرقه النعمة إلى أذنيه فلا يشعر بهذا السيل الجارف من البركات الذى كاد يأتى عليه . وهو لذلك معقود اللسان عن الحمد والشكر ، مغلول الأيدى عن التصفيق ، قد غشت وجهه سحائب فيها من ظلمة وحزن ، كأنه شقى مع أنه سعيد ، وكأنه محزون مكلوم مع أنه فرح مبتهج ، وكأنه يائس قانط مع أن قلبه يملؤه الأمل ويفعمه الرجاء .

لإحدى هاتين الخصلتين أولهما جميعا كان الشعب فاترا يوم افتتحت الدورة ، وكان الشعب فاترا يوم اختتمت الدورة . وما رأيك فى شعب يجتمع عليه العقوق وبلادة الحس ؟ إنه لشعب خليق بما يلقى ، حقيق أن تعبث به الأحداث لعلها تعلمه شكر المحسنين إليه ، ولعلها توقظه من هذا النوم العميق الذى يغرق فيه إغراقا ! مهما يكن من شيء فلابد من تسجيل هذه الظاهرة ليعرفها الشعب حين يستيقظ ويفيق وهى أن الشعب كان نائما غافلا مسرفا فى النوم والغفلة ، على حين كان الوزراء والشيوخ والنواب يقظين متنبهين ، وإن الشعب كان ماضيا فى نومه يحلم بالأمل والرجاء ، والنعمة وحسن الحال ، ويشكو من الحزن والضيق والبؤس وسوء الحال ، بينما كان الوزراء والشيوخ والنواب ماضين فى يقظتهم وتنبههم يرون الحقائق الواقعة ويسجلون ما انتهت إليه مصر من رخاء وسعة ، ومن رقى وتقدم ، ومن ارتفاع الكلمة وعلو المنزلة ، ويحمدون هذه النعم كلها للذين أسدوها ، ويشكرون هذه الآلاء كلها للذين أهدوها وهم الوزراء والنواب والشيوخ .

وما رأيك فى شعب تذكر له هذه الملايين التى أرصدتها الوزارة ، وأقرها النواب والشيوخ لحل الأزمة وتفريج كربها فلا يزيد على أن يشكو الضنك والضيق ، ويذكر الجوع والحرمان ، والمرض والأوبئة ، ويؤكد ويلح فى التأكيد أن الأزمة مازالت قائمة لازمة ملحة ثقيلة ؟ أليس من الحق عليك أن تنبيء هذا الشعب بأنه نائم يحلم وبأن الحق كل الحق فيما يقوله الوزراء والنواب والشيوخ فى خاتمتهم أمس ، فليس هناك ضنك ولا ضيق ، وليست هناك عسرة ولا أزمة وإنما هى أحلام نيام قد اكتظوا بالثروة والغنى ، فخيل إليهم عسر الهضم أنهم جياع محرومون ؟

نعم ، وما رأيك فى شعب يذكر له الوزراء والشيوخ والنواب أنهم قد أرصدوا أموالا وأموالا ، وأنفقوا ألوفا وألوفا للرى والصرف وإقامة الخزانات والتمهيد لها ، فلا يعترف بفضلهم فى ذلك ، بل يشكو ويلح فى الشكوى ، ويأسف لأن هذه الأموال قد كان يحسن أن ترصد لغير ما رصدت له ، وتنفق فى غير ما أنفقت فيه ؟ أليس هذا الشعب نائما غافلا قد صرفه النوم عن منافعه وألهته الغفلة عن مصالحه فرأى كل حسن قبيحا ، وخيل إليه أن كل قبيح حسن ، بلى لقد أخطأ الشعب كل الخطأ وأصاب الوزراء والشيوخ والنواب كل الصواب !

وما رأيك فى شعب يذكر له الوزراء والشيوخ والنواب أنهم قد أقاموا له صرحا مشيدا متينا متناسب الأجزاء من الثقافة ففرضوا التعليم الإلزامى ، وأصلحوا نظم الجامعة ، ووسعوا نشاط الأزهر ، فلا يعترف بشيء من ذلك ولكنه يتعلل ويتجنى ويزعم أن التعليم الإلزامى لم يدرس ويمحص ، وإنما أرسل على عجل ليقال إن قانونه قد صدر ، ويزعم أن الحكومة والبرلمان قد نشرا جناح الأزهر إلى أبعد مما ينبغى ، وقصا جناح الجامعة حتى عجزت عن أن ترتفع فى الجو ، وأمضيا أمر هذا كله فى سرعة لا يعرفها بلد من بلاد الأرض ، وعجلة لا يعرفها جيل من أجيال الناس . وكانت الفكرة السياسية أظهر فيها من الفكرة الفنية حتى لم يبق بد للأحزاب السياسية المعارضة من أن تجعل فى برامجها إصلاح أمر الثقافة والتعليم ورده إلى حيث كان أو إلى خير مما كان قبل هذا العهد السعيد ؟ أليس هذا دليلا على أن هذا الشعب نائم حالم ، يرى الخير فيحسبه شرا ، ويرى النعمة فيحسبها بؤسا ؟

ما أشد حاجة هذا الشعب إلى أن يؤخذ بشيء من العنف والقسوة لتستقيم قناته المعوجة ، ويعتدل مزاجه المنحرف ، ويؤمن بما يقول الوزراء والنواب والشيوخ !.. ولكن قناة هذا الشعب مع الأسف أو مع السرور ، ومع الحزن أو مع الابتهاج تأبى أن

تلين لغمز الغامزين ، وتثقيف المثقفين وتقويم المقومين . فستظل كما هى معوجة ، وسيظل مزاج هذا الشعب كما هو منحرف ، لا تستقيم القناة ، ولا يعتدل المزاج مهما يقل الوزراء والنواب والشيوخ ، ومهما يعملوا .

ما أشد التناقض بين هاتين المصرين اللتين تعيشان فى أرض واحدة ، وتتنفسان هواء واحدا ، وتشربان من نهر واحد : مصر الرسمية ومصر الشعب !..

وأى دليل على هذا التناقض بين هاتين المصرين أكثر من أن تضطرب مصر الرسمية بما يثور فيها من عواطف الرضا والسخط ، وبما يدفعها من بواعث الأمل واليأس ، وبما يسيطر عليها من أسباب النشاط والفتور منذ تليت المقدمة فى العام الماضى إلى أن تليت الخاتمة أمس ، فلا يكون لشىء من هذا كله صدى فى نفس مصر الشعبية ؟ تناقض شديد ، وافتراق بعيد بين هاتين المصرين ، والله وحده قادر على أن يلائم بين هذين النقيضين .

واجبات

هى هذه التى سجلها صاحب الفضيلة الأستاذ المراغى فى كتابه إلى نائب رئيس الوزراء باسم جماعة الدفاع عن الإسلام ، يطالب الحكومة فيه بأن ترد عن المصريين جميعا عدوان هذه الهيئات الأجنبية التى تنهض بأعمال التبشير . ومن المحقق أن الأستاذ الجليل قد وفق فى كتابه كل التوفيق ، ووضع الأشياء فى مواضعها ، وأقر الأمور فى نصابها ، واصطنع صراحة لا تدع سبيلا إلى الغموض ، ولا طريقا إلى التأويل ، وحزما لا يمكن أن يتهم معه بالضعف أو الفتور . والأستاذ لا يتحدث عن نفسه وحدها ، وإنما يتحدث عنها وعن الجماعة التى اختارته لها رئيسا . وهو يتحدث عن المصريين جميعا مهما تختلف أهواؤهم ومذاهبهم ، ومهما تكن دياناتهم ونحلهم .

وأول ما يجب أن يهنأ به الأستاذ أنه قد ارتفع بهذه القضية عن أن تكون طائفية يختص بها فريق دون فريق ، ويلح فيها بعض المصريين دون بعضهم الآخر ، وجعلها قضية مصرية خالصة تنهض بها مصر فى وجه الأجنبى الذى يغزوها فى أرضها ، ويعتدى على مرافقها وعقائدها .

فالأستاذ ومن ورائه جماعة الدفاع عن الإسلام لا يذود عن الإسلام وحده ، ولكن يذود عن المسيحية أيضا ، بل هو يذود عن الحرية المصرية كلها . وما كان لعلماء الإسلام أن يسلكوا غير هذا الطريق أو يتحدثوا بغير هذه اللهجة ، فدينهم يلزمهم الذود عن حرية الرأى ، ودينهم يلزمهم أن يتوخوا الحق فى كل ما يقولون وما يعملون . والحق إن الإسلام دين الدولة ، ودين كثرة المصريين ، فيجب أن يحميه المصريون جميعا وأن تكون الحكومة أول من يحميه . والحق إن المسيحية دين جماعة من المصريين ، وأن الكنيسة القبطية مظهر من مظاهر المجد المصرى المؤثل ، فيجب أن يحميها المصريون جميعا ، وأن تكون الحكومة أول من ينهض بحمايتها.والحق أن لا إكراه فى الدين فيجب على المصريين جميعا أن يحموا كل دين قائم فى مصر من الإكراه مهما يكن . يجب أن

كوكب الشرق فى ٢٩ - ٢٦ - ١٩٣٣ .

تحمى الديانات من أن يخرج الناس منها مكرهين . ويجب أن يستبين للناس جميعا أن الإكراه فى نفسه إثم يمقته الدين ، ويمقته القانون . ولم تنشأ الحكومات إلا لتمحوه وتقضى عليه وتعاقب الذين يقترفونه أو يدعون إليه .

بهذا كله تقول جماعة الدفاع عن الإسلام ، وبهذا كله تقول هيئة كبار العلماء ، وبهذا كله يقول إخواننا الأقباط فليست المسألة إذن مسألة اعتداء على الإسلام وحده ، وإنما هى مسألة اعتداء على الحرية الإنسانية . مسألة اعتداء على الحضارة كما أشار إلى ذلك الأستاذ المراغى فى كتابه إلى رئيس الوزراء بالنيابة . فإذا كان التبشير مباحا أو مستحسنا فى البيئات الهمجية التى لم تأخذ بحظ من رقى ولم تنل نصيبا من ثقافة ، كان من القبيح الممقوت أن يتخذ التبشير وسيلة إلى محاربة حضارة قائمة لها مجدها ولها حظها الرفيع من الرقى ، ولها أثرها البعيد فى تهذيب الناس .

أشار الأستاذ المراغى فى كتابه إلى هذا كله ، فهو خليق أن يهنأ به والناس خليقون أن يسمعوا لما قال فى هذا كله ، والحكومة خليقة أن تستجيب لدعائه ، وتنهض بهذه الواجبات التى أحصاها كتاب الأستاذ فى دقة وصراحة واستقامة وصرامة معا .

ما أكثر هذه الواجبات وما أيسرها لو أن الحكومة أرادت حقا أن تؤدى عملها فى قوة وحزم على يقين لأنها لم تنشأ لنفسها وإنما أنشئت لخدمة الأمة التى تقوم فيها . فمما لا شك فيه أن القوانين لم تشرع عبثا وإنما شرعت القوانين لتأخذ الناس بما فيها من أحكام ، وأقيم القضاء لينصف المظلوم من الظالم . فمن حق الأستاذ المراغى ومن حق الناس جميعا أن لا يرضوا من الحكومة بالإجراءات الموقوتة وأن يطالبوها بأن تحيل بالفعل إلى القضاء ما يستكشف من آثام المبشرين الأجانب . ولو أن عدوان هؤلاء المبشرين وقع من المسلمين على الأقباط ، أو من الأقباط على المسلمين لما ترددت الحكومة فى أن تنفذ القانون ، وترفع أمر الآثمين إلى القضاء ، لأن هؤلاء الآثمين سيكونون يومئذ من المصريين الذين لا تحميهم الامتيازات ولا تتحرج الحكومة من أخذهم بالشدة حتى يقضى العدل بذلك .

وليس من شك فى أن وزارات الخارجية والمفوضيات السياسية لم تنشأ لتكون زينة وإنما لتحقق الصلات الصادقة المتينة بين الأمم والشعوب ، فإذا جنى الأجانب فى مصر جناية أو اقترفوا إثما وأخلوا بواجبات الضيافة ، فمن الحق على وزارة الخارجية المصرية أن

تستخدم نفوذها السياسى لتقوم هذا العوج وتصلح هذا الفساد ، وبهذا تطالب جماعة الدفاع عن الإسلام .

فإذا غلا الأجانب فى العدوان وتجاوزوا واجبات الضيافة وانتهكوا حرمات البلاد التى يعيشون فيها ، فمن الواجب على الحكومة لكرامتها وكرامة الأمة أن تكفهم عن ذلك وتقطع عليهم الطريق إليه وتغلق معاهدهم ومدارسهم حيث يثبت أنها تتخذ وسائل إلى الإثم والإجرام . وبهذا يطالب الأستاذ المراغى وتؤيده جماعة الدفاع عن الإسلام ، ويؤيدها المصريون جميعا .

ومن الحق على الحكومة ألا تنفق أموال الشعب إلا فيما ينفع الشعب فإذا ثبت أن الأجانب الذين تعينهم الحكومة بأموال الشعب يسيئون إليه ويعتدون عليه ، فمن الإثم أن تمضى الحكومة فى إعانتهم وأن لا تكف عنهم ما تمنحهم من المال ، وأن لا تقتضيهم ما تنزل لهم عنه من المال ، وألا تطالبهم بما تحط عنهم من الضرائب ، وبهذا يطالب الأستاذ المراغى ، وتؤيده جماعة الدفاع عن الإسلام ، ويؤيدها المصريون جميعا .

وقل مثل ذلك فى هذه الأرض التى تمنحها الحكومة للأجانب بلا ثمن أو بثمن يسير على أن يقيموا عليها المدارس والمعاهد النافعة فإذاهم يقيمون عليها معاهد ومدارس تضر ولا تنفع ، وتسوء ولا تحسن ، فيجب أن تسترد منهم هذه الأرض .

وقل مثل ذلك فى هذه الامتيازات التى تمنح لرجال الدين من الأجانب فتبيح لهم السفر بلا أجر فإن الواجب على الحكومة أن تلغى هذه الامتيازات إذا ثبت أن هؤلاء الناس لا يسافرون ليذيعوا الخير ويأمروا بالمعروف ، وإنما يسافرون ليذيعوا الشرويأمروا بالفساد .

وليس من يستطيع أن ينكر على أى دولة تستحق أن تسمى بهذا الأسم أن تصدر من القوانين ما يمكنها من أن تراقب كل ما يقع فى أرضها لتتقى شره ، وتدفع نكره ، وتحمى الشعب من آثاره ، وبهذا يطالب الأستاذ المراغى ويطالب معه المصريون جميعا . وهم لا يطلبون شططا ولا يكلفون الحكومة عسيرا من الأمر ، وإنما يطلبون إليها أيسر ما يجب أن تنهض به الحكومات ، وإنما الغريب أن تنتظر الحكومة حتى يطلب إليها ذلك ، وألا تنهض به وحدها ومن تلقاء نفسها دون أن تحتاج إلى من يذكرها به أو ينبهها إليه .

لقد نهض الشعب المصرى كله بما يجب عليه لنفسه ولكرامته وللحرية الإنسانية والحضارة الإنسانية ، وقال الشعب المصرى كله فى ذلك كلمة الحق التى لا لبس فيها ولا غموض فاللهم وفق حكومة مصر إلى أن تنهض بواجبها كما نهضت به مصر .

تكريـــم

ليس من شك فى أن وزير التقاليد بطل من أبطال الجيل المصرى الحديث ! وفذ من أفذاذ هذا العصر الذى نعيش فيه ، ودعامة من دعائم هذا العهد الذى نستمتع بما يسوق إلينا من خير وما يمطر علينا من بر ، وما يغمرنا به من إحسان !! وليس من شك فى أن كل تاريخ يكتب لتصوير الحياة المصرية فى هذه الأيام لن يستطيع أن يهمل اسم وزير التقاليد ، ولا أن ينسى جهوده الرائعة البارعة فى تصوير العقلية التى يراد ان تفرض فرضا على المصريين . والقالب الذى يراد أن تصب فيه نفوس المصريين . ومن المحقق أن اثنين ، واثنين ليس غير من وزراء هذا العهد السعيد سيبقى اسمهما فى تاريخ مصر إلى زمن غير قصير هما رئيس الوزراء ووزير التقاليد .

وليس معنى هذا أن زملاءهما لم يحدثوا ما هو خليق بالذكر ، جدير بالتفكير والتسجيل فلن ينسى التاريخ لوزير الداخلية براعته فى المحافظة على النظام ومهارته فى إقرار الأمن وتفوقه فى حماية الدولة من رئيس الوفد وأصحابه حين يغيرون على أحياء القاهرة أو على المدن والقرى والأقاليم فسيذكر الناس مع الإعجاب الذى لاحد له خطف رئيس الوفد وصاحبه من قنا ، وسيذكر الناس مع الإعظام والإكبار تسليح الجنود لحصار سمنود وإلغاء إجازات الضباط وإمساك المديرين فى أقاليمهم أيام العيد ، وسيذكر الناس — مع الثناء الجزيل والشكر الجميل — حفر الخنادق وإقامة الأسوار ، وصف السيارات والعربات حول زفتى يوم زارها رئيس الوفد وصاحبه . لكن هذه الأشياء كلها على جلال خطرها وارتفاع شأنها ، وعلى أنها قد أقامت لمصر مجدا مؤثلا ، وكسبت للدولة نصرا مؤزرا ، ليست طريفة ولا مبتكرة ، وإنما هى تقليد أو شىء يشبه التقليد كان يأتيه رئيس الوزراء حين كان يتولى وزارة الداخلية فى عهده القديم والجديد . ففضل هذه الأعمال الجليلة يرجع إليه أكثر مما يرجع إلى وزير داخليتنا القائم . وإذا أذن الله للوزارة بطول البقاء وامتداد أسباب الحياة فقد يأتى وزير الداخلية من الأعمال ما يقرنه إلى زميليه العظيمين .

كوكب الشرق فى ٣٠ - ٦ - ١٩٣٣ .

ووزير الزراعة خطب وله أحاديث وله صولات وجولات ، ولكنه على ذلك كله حديث عهد بالوزارة ، لاتظهر شخصيته بارزة تفرض الإعجاب على الناس إلا إذا دار عليه العام وحدث فى حياتنا الزراعية حدث جديد يشبه الأحداث السياسية والتعليمية . وكان لنا وزير للحقانية كاد يفرض شخصيته فرضا ويضطر حزب الاتحاد إلى أن يقيم له ، لانقول حفلات التكريم ، بل النصب والتماثيل لولا أن هذه الشخصية أدركها الضعف فى منتصف الطريق فضاقت بالبدارى ، وضاقت بها البدارى ، وطاحت قضية البدارى بهذا الوزير واثنين من أصحابه .

ومر الآخرون من وزراء هذا العهد بمناصبهم مر الطيف ، لم يتركوا آثارا ولا أحداثا كبارا حتى قال الانجليز إن وزارة صدقى باشا وزارة رجل واحد فى حقيقة الأمر ، فالآن تصحح الحوادث رأى الانجليز وتثبت أنها وزارة رجلين : رئيس وزرائنا الذى يستريح فى فرسايل ، ووزير التقاليد الذى يتعب فى القاهرة ويتعب غدا فى الاسكندرية .

فليس غريبا إذن أن تقام حفلات التكريم لوزيرينا العظيمين فهما من غير شك أهل للتكريم ولأكثر من التكريم ، إنما الغريب ألا تقام هذه الحفلات إلا من حين إلى حين مرتين أو مرات فى العام . ولو أن المصريين يعرفون الجميل لأهله ويقدرون حسن الصنيع لمن يتولاهم بالخير ويمسهم بالمعروف لاتصلت حفلات التكريم للوزيرين الجليلين ولاصبحا فى تكريم وأمسيا فى تكريم وباتا فى تكريم . ولكان هذا أقل ما يجب على مصر لهما من الشكر وأيسر ما تؤدى إليهما مصر من الثناء .

لهذا لم نفهم هذه الحيرة التى ظهرت واضحة جلية فى خطبة وزير الزراعة حين أراد أن يتكلم باسم الوزراء وباسم حزب الشعب فى تكريم القائد العظيم لحزب الاتحاد ، فقد كان وزير الزراعة حائرا حقا يلتمس العلل والأسباب لهذا التكريم الذى ظهر فجأة وطرأ على غير انتظار ، ويحاول أن يرد الأمر إلى نصابه فيضيف شيئا من فضل وزير التقاليد إلى رئيس الوزراء ، ويرد شيئا من فوز حزب الاتحاد إلى تأييد حزب الشعب له وعطفه عليه . لم نفهم هذه الحيرة التى ظهرت على وزير الزراعة وهو الذى إذا تكلم فى مجلس زانه ، وإذا نطق أطلق بالشهد لسانه ، وإذا دعا البيان انقاد له البيان فى استسلام واذعان . ففضل وزير التقاليد أظهر من أن ينكر وخطر وزير التقاليد أجلى من أن يرتاب فيه . ولولا أن بعض الظن إثم لأشفقنا على وزير الزراعة أن يكون قد أوجس خيفة من هذا التكريم الفجائى ، وظن أن له أسبابا يجهلها الناس وأسرارا لا يقف عليها إلا

الراسخون فى العلم . ولكن الأمر أيسر من ذلك فمآثر وزير التقاليد بادية لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . وأول مأثرة من مآثر وزير التقاليد أنه نهض وحده بتمثيل حزب الاتحاد فى الوزارة منذ زمن بعيد ، منذ أبعد عنها ماهر باشا ، ومنذ مرض وزير الخارجية ، فكان واحدا بين زملائه لكنه احتمل الأمانة على ثقلها ، وأدى الواجب على وجهه واحتفظ بعلَم الحزب مرفوعا ، وبلوائه منشورا خفاقا . أليس ذلك وحده يكفى لأن يقيم له حزب الاتحاد حفلات التكريم إذا أشرق الصبح ، وإذا دنا المساء ، وإذا أظلم الليل .

بلى ، فكيف إذا كانت لوزير التقاليد مآثر جاوزت حزب الاتحاد ، لا أقول إلى الأمة المصرية وحدها ، ولا أقول إلى الشرق العربى وحده ، بل أقول إلى العالم المتحضر كله . فوزير التقاليد هو الذى أنشأ المجمع اللغوى . وليس يعنينا أن يكون المجمع قد وجد ، أو لم يوجد وعمل أو لم يعمل فذلك شيء ينبغى أن يكون فى الدرجة الثانية أو الثالثة من التقدير . إنما المهم أن المجمع قد صدر به المرسوم وذكر فى خطبة العرش ، وكتبت فيه الصحف ، وخوطبت فيه دول الشرق والغرب ، وهيئت له بعثة وسيؤلف من غير شك فى يوم من الأيام . وأنت تعرف أن هذا المجمع ليس مقصورا على المصريين ، ولا على الشرقيين ، بل هو يتناول الشرق والغرب جميعا ، فلاغرابة فى أن ينهض المصريون من حزب الاتحاد بتكريم وزير التقاليد ، ولا غرابة فى أن تنهال الأوسمة من الشرق والغرب على وزير التقاليد فأذا أضيفت إلى هذه المأثرة مأثرة أخرى ينعم بها الأجانب طول فصل الشتاء من كل عام ، وهى مأثرة الرقص والتمثيل والغناء فى الأوبرا وما تكلف وزير التقاليد من إكراه البرلمان على أن يرصد لها الآلاف رغم الأزمة ورغم وزير التقاليد ، لم نشك فى أن الأجانب مقصرون حين لم يشتركوا مع المصريين فى تكريم وزيرنا العظيم ويزداد تقصير الأجانب نكرا إذا ذكرت هؤلاء المحاضرين الذين دعاهم وزير التقاليد من بلاد الانجليز والفرنسيين وأنفق عليهم المئات من الجنيهات ليثقفوا الأجانب ويفقهوهم فى آدابهم ألست ترى أن من الحق على الأجانب لو أنهم يحسنون الشكر لمن يستحق الشكر أن يقيموا لوزير التقاليد حفلة تكريم واحدة على أقل تقدير . ولوزير التقاليد مآثر أخرى مهما نقل ومهما نكتب فلن نحسن تصويرها ، فهو الذى قص جناح الجامعة وطرد استقلالها من مصر وهو الذى ضيق حدود التعليم العالى وأخضعه لقيود أقل ما يقال فيها إنها لا تلائم آمال مصر ولا حاجتها ولا كرامتها . واحذر كل الحذر أن تنظر إلى هذه الأعمال على أنها إساءة إلى مصر أو إفساد لأمورها فلم يخدم مصر كما خدمها وزير

التقاليد بسياسته الشيطانية لأنه فرض على المصريين أن يقدروا أمور التعليم وفرض على الأحزاب السياسية المعارضة أن تجعل مسألة التعليم فى أول برامجها السياسية لتصلح منها ما أفسده هذا العهد . ولو لم يمن الله على مصر بوزير التقاليد لظلت مسائل التعليم مهملة محرومة من الإصلاح فى غير نظام ولا اطراد . أما الآن فقد أصبحت مصر واثقة بأن بناء التعليم فيها سيستأنف من جديد وسيقام على أساسه الصحيح يوم ترد إلى مصر حريتها الصحيحة فلو لم يكن لوزير التقاليد إلا هذا الفضل لكان خليقا أن يكرم مرات فى كل يوم لا فى كل عام .

رجلان اثنان سيحفظ التاريخ الحديث اسميهما على أنهما من أكبر المحسنين إلى مصر : رئيس الوزراء لأنه نبه الشعب المصرى إلى واجبه فى الإصلاح السياسى أحسن تنبيه ، ووزير التقاليد لأنه نبه الشعب إلى واجبه فى الإصلاح التعليمى أحسن تنبيه . وستستقيل هذه الوزارة فى يوم من الأيام ، وسيرى رئيس الوزراء ووزير التقاليد أن المعارضين الذين يخاصمونهما اليوم سيقيمون لهما حفلات التكريم أجمل وأروع وأبدع من الحفلات التى تقام لهما الآن فى حزب الشعب أو حزب الاتحاد .

راحة

لم يكن غنيا يتدحرج على الذهب ، ولا معدما ينام على القش ، وإنما كان رجلا من أوساط الريف ، يأكل حتى يشبع ، ويشرب حتى يروى ، وينام ملء جفونه إذاجنه الليل ، ولم يتكلف فى كسب هذا العيش المطمئن الفارغ مشقة ولا جهدا ، إنما تركت له أسرته التى كانت حسنة الحال فيما مضى من الزمان بقية من أرض كثر عليها الدين وتنازعها الغرماء ، ولكنها كانت على ذلك تقيه وتقى أهله شر الجوع والحرمان ، ولم يكن مثقفا ولا قريبا من المثقف ، وإنما تركت له أيام النعيم بقية من علم بالقراءة كانت تتيح له أن ينظر فيما يصل إلى القرية من الصحف بين حين وحين . وكانت تمكنه من أن يقرأ فى بعض هذه الكتب التى يمر بها الطوافون على أهل الريف فيحملون إليهم قصصا وطنيا يجدون فى قراءته والاستماع له لذة ومتاعا . وكان راضيا عن حاله ، مطمئنا إليها مغتبطا بها ، لا يفكر فى أن يغيرها أو ينتقل إلى حال خير منها . بل كان يضيق صدره كلما أحس من أهله رغبة فى سعة أو تمنيا لخلاص أرضه من الدين والغرماء .

وكان عقله نائما أو كالنائم ، لا يكاد يفكر فى غير ما يحيط به من أمور أهل القرية ينظرون إليه فى شيء من الإكبار والازدراء والاشفاق معا . يكبرون أسرته القديمة ذات المجد التليد ، ويزدرون فتوره وخموده ، وما انتهت إليه حاله من الخمول ويشفقون عليه مما اضطر إليه من ضيق بعد سعة ، وضعة بعد ارتفاع . وكان كل شيء من حوله مضطربا شديد الاضطراب . فالأحزاب تختصم في غير هدنة ولا أمل فى الهدنة ، والانتخابات النيابية يتبع بعضها بعضا فى سرعة غير مألوفة ، لايكاد يسفر انتخاب عن مجلس من مجالس النواب حتى يحل ويتفرق أعضاؤه ، ثم يستأنف الجهاد ، وتشب الحرب ويكون انتخاب جديد ، ومجلس جديد ، لايكاد يفتتح ويبدأ عمله حتى يرد أعضاؤه إلى حيث كانوا فإذا هم يتفرقون مرة أخرى فى مدنهم وقراهم ليستأنفوا الجهاد ويعيدوا حرب الانتخاب جذعة كما كانت قبل أشهر أو قبل أسابيع .

---

(١) كوكب الشرق ١٤/ ٧/ ١٩٣٣ .

ولم يكن صاحبنا يحفل بهذا كله ، بل قل إنه لم يكن يفهم من هذا كله شيئا . قيل له ذات يوم لابد من أن تثبت اسمك فى جدول الانتخاب ففعل ، ثم قيل له لابد من أن تذهب إلى حيث الانتخابات ، ومن أن تختار نائبا أو ناخبا لنائب ففعل . ويجب أن ننصفه فنؤكد أنه كان شديد الثقة بالعمدة ، لا يأتى فى الانتخاب وما يتصل به من الأعمال أمر إلا بعد أن يشيره . فإذا أشار عليه استمع له ، ولم يخالف عن أمره مهما تكن الظروف ، ومهما تكن المغريات بالخلاف .

ولم تكن ثقته بالعمدة رهينة بشخص العمدة ، وإنما كانت رهينة بمنصبه ، فقد كان العمد يغيرون ويبدلون فى سرعة ملائمة لسرعة الانتخابات وتتابعها بين حين وحين . وكان صاحبنا دائما رهينا بمشورة العمدة القائم ، مطيعا لأمره فى ثقة وتسليم وإذعان . وأشرقت الشمس ذات يوم على ما يحيط بالقرية من الربى وما يطوقها من الحدائق والحقول . واستفاق صاحبنا من نومه سعيدا راضيا كدأبه فى كل يوم . فلما خرج من فراشه أكل كعادته فأكثر الأكل وشرب كعادته فأكثر الشرب ، وأخذ يشعل السيجارة فى إثر السيجارة حتى أحرق منها خمسا كدأبه كل يوم إذا امتلأ من طعام الصباح وقهوته ، حتى إذا استقرت معدته فى جوفه ، وقلبه فى صدره ، وعقله فى رأسه عمد إلى عصاه الغليظة فأخذها وخرج يعبث بها حينا ، ويعتمد عليها حينا آخر فى شىء من الخيلاء لم يكن يقدم عليه أحد من غير هذه الأسرة الخاملة بعد علو الذكر ونباهة الشأن .

ولم يكد يتجاوز باب الدار قليلا حتى لقيه العمدة ومعه من يمثل الإدارة فسلم عليه العمدة فى شىء من الإكبار لم يعهده من قبل ، وهو يقول : أين تذهب ؟ لقد كنا نريد أن نزورك . قال صاحبنا فى شىء من الدهشة والعجب : تفضلوا على الرحب والسعة . ثم التفت إلى العمدة وقال : ولكن هلا بعثت إلى ولم تتكلف مشقة هذا السعى ؟ قال العمدة : وإذا لم يسع إلى أبن فلان وحفيد فلان ، فإلى من يكون السعى ، ثم كانت الزيارة وكان حديث لست أدرى أفهمه صاحبنا أول الأمر حين فهمه ولكنه أكبره ودهش له على كل حال .

ومنذ ذلك اليوم كثر تردده على دار العمدة ، وتردد العمدة على داره . وكثر انتقاله من القرية إلى حيث تقيم الإدارة ، وكثر تردد رجال الإدارة على القرية . وتحول صاحبنا نشيطا بعد فتور ، يقظا بعد غفلة ، ذكيا بعد غباء . وما هى إلا أسابيع حتى كان

صاحبنا عضوا فى البرلمان ، لا يقيم فى قريته البعيدة النائية فى أقصى الريف وإنما يقيم فى باريس أكثر العام : وكان فى أول أمره صامتا فى المجلس طويل الصمت ، ثم أخذ يتكلم قليلا ، ينطق بالجمل القصار ثم الجمل الطوال . ثم أصبح خطيبا يسهب ويطنب ، ويفصح ويبين !! تغير فى شكله وهيئته كل شيء ، وانقطع عنه إلحاح الغرماء ، وخلصت له أرض أبيه وأصبح العمدة يكبره لا عن تكلف ، ولا عن خضوع لأمر الحكام ، ولكن شيئا واحدا لم يتغير فيه ،وهو أنه لم يصدر فيما يأتى من الأمر أو يلقى من الخطب إلا عن رأى رجل قام فى حياته الجديدة مقام العمدة فى حياته القديمة . وهذا الرجل هو الوزير ، فقد ارتفع صاحبنا عن منزلته الأولى بين أهل الريف حيث كان يذعن للعمدة إلى منزلة جديدة فى العاصمة ، فأصبح يذعن للوزير .

وطالت به هذه الحال فانقضى عام وجاء بعده عام ، ولكن صاحبنا أخذ يستفيق بعض الشيء فى العام الثانى ، وحياة العواصم قوية خصبة ، تذكى الشعور الخامد ، وتنبه العقل النائم ، وتفتح البصائر المغلقة . فما أيسر ما تنبه صاحبنا إلى موقفه وشعر بمكانته ، وعرف أنه قد أصبح قوة لا يستهان بها ، ولا يستغنى عنها فكبر فى نفسه ، وأراد أن يكبر فى نفوس الناس . وهنا وجد صاحبنا المشقة ، والعناء كل العناء. نظر فإذا زملاؤه ووزراؤه ورفاقه السياسيون لايزالون ينظرون إليه اليوم كما كانوا ينظرون إليه من قبل ولا يكبرونه ولا يشعرون بجلال خطره . وكلما هم بأن يتقاضاهم شيئا من الإعظام والإكبار ابتسموا له ، ونغضوا إليه رءوسهم ساخرين ، فإذا ألح ذكروه ببيئته الأولى وحياته الأولى ، وأنبأوه بأن طريق العودة إلى هذه البيئة وتلك الحياة ليست بالشاقة ولا بالطويلة . ونظر فإذا كثرة الناس من أهل العاصمة أولئك الذين لا يظفرون بشرف السياسة ومغانمها ولكنهم يحتملون أثقالها ومغارمها ينظرون إليه شذرا ، ولا يقبلون عليه الا بمقدار ما تدعو إليه الحاجة الماسة الى الحديث فضاقت به العاصمة على سعتها ، وضاق هو بالعاصمة على حبه لها ، وأعرض عن أنديتها ومجالسها ، وأعرض عن ملاعبها وملاهيها . وآثر أن يلزم ناديه السياسى ويكثر الاختلاف إلى اللجان البرلمانية فى الصباح ، وإلى الجلسات البرلمانية فى المساء حتى إذا كان آخر الدورة وطلب إلى النواب والشيوخ أن يتفرقوا ليستريحوا من عناء العمل ويريحوا الوزارة من طول الحديث وكثرة الكلام تنفس صاحبنا كالمبتهج السعيد ، فقد آن له أن يدع زملاءه الذين يزدرونه ، وأن يدع أهل العاصمة الذين ينكرونه ، وأن يذهب إلى الريف . هنالك حيث الهواء الطلق ، والربى الجميلة ، وحيث الجبال الشاهقة تحيط بالقرية من بعيد ، وقد اتخذت على قممها

عمائم من الثلج الناصع النقى ، وحيث أهل الريف وطباعهم السمحة ، ونفوسهم الساذجة ، وقلوبهم الطاهرة التى لا تعرف إسرافا فى الحقد والبغض ، ولا غلوا فى الحسد والمنافسة ، والتى لا تجحد فضل الأسر القديمة ، ولا تعرض عن أبنائها ولاسيما حين يكون هؤلاء الأبناء قد أعادوا المجد القديم ، وارتفعوا إلى حيث أصبحوا من أولى الحل والعقد . ومن الذين يرجع إليهم فى تصريف الأمور .

وبلغ صاحبنا قريته مع الصباح بعد سفر أنفق فيه ليالى طوالا وكان يقدر أنه لن يدع العربة حتى يلقاه أهل القرية جميعا مكبرين له مبتهجين بلقائه . أليس قد بلغ رسالتهم وأبلى فى الدفاع عنهم ما أقام فى العاصمة . ولكنه ترك العربة فلم يجد أحدا إلا خادمه الشيخ قد أقبل ينتظره ، فلما رآه حياه ثم شغل عنه بما كان يصطحب من متاع . وتقدم النائب خطوات وأبى أن يركب العربة التى كانت تنتظره وآثر أن يبلغ داره ماشيا ، وكان من غير شك يقدر أن هؤلاء الجاحدين الذين لم يخفوا للقائه سيرونه رغم أنوفهم وهو يسعى فى الطريق وسيحيونه كارهين ، ولكنه مضى فى الطريق يمر أمام المتاجر وأمام الدور ، ويمر به الناس ذاهبين وجائين فلا يلتفت إليه منهم أحد ، ولا يشعر به منهم أحد . وهو يتكلف من الأشكال والصور ما يظهره للناس ولكنهم يمرون وكأنهم لا يرونه فإذا تلقى أحد منهم بالتحية رد عليه تحيته ومضى مسرعا لا يلوى على شيء . ولم يبلغ الرجل داره حتى كان ضيقه بالقرية وأهلها كضيقه بالعاصمة ومن ترك فيها من الناس . على أن أهله كانوا قد تهيأوا للقائه فرحين مبتهجين له ، ولكنه لم يكد يراهم ويرى ابتهاجهم به والتفافهم من حوله حتى أظهر من الفتور والانقباض مارد فرحهم إلى شيء إلا يكن حزنا فهو قريب من الحزن . ومضت ساعة وساعة والصمت طويل بين الرجل ومن يحيط به من أهله وذوى قرباه . فلما أذن الله لهم بالحديث أظهر صاحبنا بعض العجب لفتور أهل القرية فى استقباله وإعراضهم عنه حين كانوا يلقونه فى الطريق ، فابتسمت زوجته وكانت ذكية فطنة وقالت فى رفق : أكنت تنتظر منهم غير ذلك ؟ وقد ذهبت إلى العاصمة وعدت منها وأقمت فيها ما أقمت وأبليت فى العاصمة ما أبليت فلم ينجل عنهم هم ، ولا رد عنهم بأس ، ولا فرج عنهم كرب . لقد كنت أظن أنك قد أقدمت على ما أقدمت عليه وأنت تعلم حق العلم أنك معرض لدفع ثمنه احتمالا لتجهم الناس لك ، وتنكر المتنكرين منهم وسخط الساخطين فيهم .

منذ ذلك اليوم أقام صاحبنا فى الريف كما كان يقيم فى العاصمة لا يرى الناس ولا يراه الناس . وإنما يلزم داره أكثر النهار فإذا لم يكن بد من خروج فإلى دار العمدة فى القرية

وإلى مستقر الإدارة فى المدينة حتى إذا انقضى الصيف ورجع إلى العاصمة ليستأنف حياته العامة لقى زملاءه مبتهجا راضيا مسرورا . وكان يقول كلما لقى منهم أحدا : هلم إلى العمل ، ما أكثر ما ينتظرنا من الجهد هذا العام . لقد لقينا الناس ، وتحدثنا إلى الناخبين وعرفنا حاجاتهم . فقد آن لنا أن نقضى هذه الحاجات ونحقق هذه الآمال ، وإلا فما نحن عنهم بنواب ، وما نحن لهم بممثلين .

كان ذلك فى فرنسا فى أوائل القرن الماضى .

احتيــاط

كان رئيس الوفد وصاحبه فى القاهرة أمس لم — يبرحاها ولم يفكرا فى الانتقال منها قبل أن يأتى ميعاد السفر ، وكانت بينهما وبين هذا الميعاد ليلة كاملة وساعات طوال . وكانا من غير شك يتحدثان فى غير السفر ، ويفكران فى غير الاسكندرية ويعنيان بما يعنى به المقيمون فى القاهرة من الأمر ، ولكن الوزارة كانت تفكر فيهما وتتهيأ لهما وتأخذ الحملة التى تتعرض لها إذا أقبل مساء اليوم .

ولو أن هذا الحديث قيل فى بلد غير مصر لضحك منه الناس ولزعموا أن الكاتب يريد أن يعبث ويلهى قراءه ، ولكن هذا الحديث يقال فى مصر ، فيجب أن يصدق ، ويجب أن يطمئن الناس إليه . ففى مصر ظاهرتان لا يوجدان فى غيرها من بلاد الأرض . فى مصر وفد خطر ، وفى مصر وزارة حذرة . فإذا استيقظ خطر الوفد تنبه حذر الوزارة . وإذا تحرك رئيس الوفد[1] أو أحد من أعضائه نشط وزير الداخلية ، وعدا أعوانه وموظفوه فى العاصمة والأقاليم !

وكذلك لم تكد تعلم وزارة الداخلية أن رئيس الوفد وصاحبه يريدان السفر إلى الاسكندرية ظهر الأحد حتى احتاطت للأمر ، وتأهبت للخطر ، وأخذت للحرب عدتها فأسرعت يوم السبت إلى نفر من أهل الاسكندرية ، فبسطت عليهم سلطانها ، وأظلتهم بجناحها الرحيم وزجت بهم فى أعماق السجن لتحميهم من رئيس الوفد ومن صاحب رئيس الوفد . فوزارة الداخلية تحب هؤلاء الناس وترعاهم ، وتؤثرهم بالمودة والبر ! وتشفق على حناجرهم من الهتاف وعلى أيديهم من التصفيق ! وترى من الخير أن تغيبهم فى السجن وتحبسهم عن أهلهم وأصدقائهم ، وتعطل منافعهم ومرافقهم ، فذلك خير لهم وأبقى عليهم من أن يتعبوا حناجرهم بالهتاف ويقطعوا أكفهم بالتصفيق ويسعوا

كوكب الشرق ٢٤ — ٧ — ١٩٣٣ .

(١) رئيس الوفد هو دولة مصطفى النحاس باشا رضى الله عنه ، وصاحبه هو الأستاذ مكرم عبيد (مكرم باشا فيما بعد) .

إلى لقاء هذين اللذين كان من الحق عليهما ألا يصطافا كما يصطاف الناس ، وألا ينتقلا كما ينتقل الناس ، وألا يكون لهما أعوان وأنصار كما أن لرجال السياسة أعوانا وأنصارا ، وألا يحبهم الشعب كما تعودت الشعوب أن تحب زعماءها وقادتها .

نعم ووزارة الداخلية لا تشفق على هؤلاء الناس ولكنها تشفق على الاسكندرية(١) كلها ، وهى إذا آثرت هؤلاء الناس بحبها وسجنها فلعلها أن تؤثر بالحب والسجن أهل الاسكندرية جميعا ، فهم جميعا يحبون رئيس الوفد وصاحبه ، وهم جميعا يريدون أن يخفوا لاستقبال رئيس الوفد وصاحبه ، وهم جميعا يحرصون على أن يلقوا رئيس الوفد وصاحبه بالهتاف والتصفيق . وليست حناجر أهل الاسكندرية وأيديهم بأقل حظا من عناية الوزير بحناجر هؤلاء الناس الذين تفتحت لهم أبواب الرحمة فى سجون أمس فى الاسكندرية وأيديهم . وأخص ما تمتاز بها الحكومات إيثارها للعدل، وإنصافها فى الحكم وتسويتها بين الناس فى شدتها ولينها ، وفى بأسها ونعيمها . فهى أرفق بأهل الاسكندرية وأحدب عليهم من أن تؤثر بالسجن منهم فريقاً دون فريق ، وتختص بالحبس منهم جماعة دون جماعة . وأكبر الظن أن الحكومة لم تبخل بالسجن على أهل الاسكندرية إلا لأن سجونها فى هذه المدينة أضيق من أن تسعهم وأكبر الظن أنها ستجعل المدينة كلها سجنا منذ اليوم فتبث حولها الجنود ، وتنشر حولها البنود ، وتضاعف فيها الشرطة فى النهار ، والعسس فى الليل . وأكبر الظن أنها سترضى بذلك حاجة الاسكندريين إلى العدل ، ورغبة الاسكندريين فى الإنصاف والمساواة . بل أكبر الظن أنها سترضى كثيرا من المصريين الذين سيذهبون إلى الاسكندرية ليصطافوا أو ليقضوا بعض منافعهم ومرافقهم فسيذوق هؤلاء المصريون كلما ذهبوا إلى هذه المدينة السعيدة أو أقاموا فيها حلاوة السجن وعذوبة المقام فيه !!

---

(١) أراد مصطفى النحاس باشا – رضى الله عنه – أن يتوجه إلى ساحة الاحتفال بالمولد النبوى الشريف بجهة أبى العباس المرسى والبوصيرى . فاعترض موكبه وكيل الحكمدار وقال : إن عندى أمرا عسكريا بمنع المرور .

فأجاب الرئيس غاضبا : إن هذا الأمر لا مبرر له ، وإن الشعب مسالم وأنتم الذين تتحرشون به ، فحافظوا على النظام فقط يتبين لكم هدوء الشعب ومسالمته فرد وكيل الحكمدار قائلا إن لديه أمرا عسكريا بمنع المرور .

وأجابه الرئيس بأنه لابد من المرور ، وأمر السائق بالسير فعلا . ولم تمض لحظة حتى كانت سيارة الرئيس تخترق الحصار بين الكتل البشرية من الجماهير المتحمسة والألوف الهاتفة المصفقه والأعلام المرفوعة .

وكم كان جميلا وداعيا إلى الغبطة والفخر أن نسمع اسم المجاهد الكبير المحبوب الأستاذ مكرم يتردد على السنة ألوف المحتفلين بمولد النبى ﷺ مقرونا بالدعاء له بالحياة فى كل مكان .كوكب الشرق ٥ – ٧ – ١٩٣٣ .

والغريب أن رئيس الوفد وأصحابه لا يتعظون بالحوادث ولا ينتفعون بالتجارب ، ولا يزالون يفكرون فى أنهم كغيرهم من الناس من حقهم أن يفزعوا من حر القاهرة إلى هواء الاسكندرية الطلق ونسيم الاسكندرية العليل . أليس من الممكن أن يكون رئيس الوفد وأصحابه يجدون لذة فى حياة السجون ! ويجدون نعمة فى مراقبة الجند لهم وللناس ؟! أليس من الممكن أن يكون رئيس الوفد وأصحابه قد ذهب بهم الإيثار إلى أبعد حدوده وأقصى غاياته فهم لا يريدون أن ينعم أهل القاهرة وحدهم بتضييق الحكومة عليهم كلما أرادوا أن يتصلوا بهم أو يسعوا إليهم . وإنما يريدون أن تشيع النعمة ويعم الإحسان ، ويشمل لطف الحكومة وبرها أهل العاصمة الثانية فى الصيف كما يشمل لطف الحكومة وبرها أهل العاصمة أهل القاهرة فى غيره من فصول العام ؟!!

أليس من الممكن أن يكون الله - عز وجل - قد جمع كلمة الوفد والوزارة مع بعد ما بينهما على حب المصريين ، والبر بهم ، والعطف عليهم ورياضتهم على حياة السجون من حين إلى حين فتكمل فيهم صفات الحزم والعزم والقدرة على المقاومة والثبات للمكروه ؟ أليس من الممكن أن يكون هناك اتفاق خفى بين الوفد والوزارة على أخذ المصريين بهذه الألوان من الرياضة اللذيذة الخصبة التى تنتج فى حياة الأمم أحسن النتائج وتؤثر فى رقى الأمم أجمل الآثار ، وأن يكون قوام هذا الاتفاق أن يتحرك الوفد فتنشط الحكومة وأن ينتقل الوفد فيسخر الجند ، وأن لا ينزل رئيس الوفد فى مكان إلا سجن فيه وسجن معه الناس .

كل هذا ممكن ، وأى شىء غريب يقع فى هذه الأيام ، وإذا كان من الحق أننا نعيش فى عهد الحرية الواسعة المطلقة وأننا مع ذلك لا ننتقل إلا فى رقابة الشرطة ولا نتكلم إلا إذا أذن لنا فى الكلام ولا نكتب إلا إن صادف ما نكتبه أهواء سادتنا والمتسلطين علينا ، إذا كان هذا كله حقا فما الذى يمنع أن يكون من الحق أيضا أن الوفد يحب السجن لنفسه وللناس . وما الذى يمنع أن الوفد قد أمضى مع الحكومة اتفاقا خفيا على أن تذيقه وتذيق الناس معه الحياة الحلوة الناعمة ، حياة السجون !

كل شىء ممكن فى هذه الأيام ، لأن كل شىء مختلط فى هذه الأيام فكن ذكيا ما وسعك الذكاء ، وكن فطنا ما أتيحت لك الفطنة فلن تستطيع أن تفسر لغير المصريين هذه الحياة التى يحياها المصريون والتى تعقد فيها المخالفات بين السعة والضيق ، وبين النعيم والبؤس ، وبين الحرية والتضييق على الناس ، وبين الدستور والخروج على

الدستور ، وبين القانون ومخالفة القانون وبين معارضة الوفد للوزارة واتفاق الوفد مع الوزارة على أخذ الناس بحياة السجون .

لن تستطيع أن تبين هذا لغير المصريين لسبب يسير ، وهو أن الحياة المصرية قد انفصلت من حياة الناس جميعا ، فأصبح المصريون وحدهم ممتازين ، واشتركت الشعوب الإنسانية كلها فى هذه الصفات السخيفة التى يسمونها الحرية والإخاء والمساواة ، ولأن عقلية المصريين قد انفردت من عقليات الناس جميعا ، فأصبح المصريون وحدهم عقلاء ، وأصبح غيرهم من الناس مجانين ، وآية ذلك ، وهل ذلك يحتاج إلى آية أن العالم كله مضطرب يخضع لأنواع الأزمات وضروب المحن والخطوب ، وأن مصر وحدها – مصر من دون الشعوب جميعا – هادئة مطمئنة ، وراضية ناعمة ، يجرى كل شيء فيها على أحسن ما تحرك الأشياء .

لقد وفقت الوزارة كل التوفيق حين احتاطت أمس ، وحين تحتاط اليوم لسفر رئيس الوفد وصاحبه إلى الاسكندرية لفتح أبواب السجون ، وبث الشرطة والجند ، ووفق رئيس الوفد وصاحبه كل التوفيق حين لم يمنعهما هذا الاحتياط من مضيهما في عزمهما على السفر وذهابهما الى هذه المدينة التى ستصبح سجنا منذ اليوم ، فإن الوفد ورئيسه أحزم وأرشد من أن يدعا أعمال الحكومة تذهب فى غير طائل ، وجهود الحكومة قد جعلت مدينة الاسكندرية سجنا منذ اليوم ، فيجب أن يذهب إليه رئيس الوفد وصاحبه . وهل تنشأ السجون على هذا الطراز إلا للوفد والوفديين .

قــوة

قوة بالغة تمثل عظمة الدولة وجلالها ، وعز الدولة وإقبالها ، ومجد الدولة واستقلالها فى مدينة الإسكندرية حين انتهى إليها أمس رئيس الوفد وصاحبه ، وضعف بالغ فى بورسعيد يمثل حلم الدولة ورضا الدولة وامتثالها ، وصبر الدولة واحتمالها إذ طغى المبشرون واحتال المحتالون ، واعتدى المعتدون على الدين والأخلاق ، وعلى الكرامة والأعراض .

أما فى الاسكندرية فيضرب الحصار حول المحطة ويحشر الجند والشرطة من داخل المحطة ، ولا يؤذن للناس باستقبال زعيمهم إلا بمقدار . فإذا خرج رئيس الوفد وصاحبه من المحطة فحدث عن الجند والشرطة ، وحدث عن القوة والبأس ، وحدث عن العدد والعدة ، وحدث عن أخذ الطرق واحتلال المواقع وصد الجماهير ورد المستقبلين ، وحدث عن العصى والسياط ، وحدث عما شئت مما يمثل البأس والسلطان والقوة التى لاتشبهها قوة ، ولاتبلغ بالجنود مائة ولامئات ، ولاترتفع بها إلى الألف ولكن ارفع بها إلى الآلاف . ولم يكن فى الاسكندرية مع ذلك عدوان على دين ولا اقتراف ولا اجتراح لسيئة ، ولا ارتكاب لمنكر ، ولا خروج على أمن ، ولا إفساد لنظام ، وإنما كان زعيمان من زعماء مصر يقصدان إلى مدينة من مدن مصر فيستقبلهما فيها الناس من أهل مصر ، ليس فى الأمر أكثر من ذلك

وأما فى بورسعيد فتظهر السياسة والكياسة ، ويظهر الهدوء والأناة ، ويظهر ضبط النفس وأخذها بالصبر والانتهاء بها من الاحتمال إلى أقصى مايصل إليه الاحتمال أمام قوم من الأجانب أقبلوا علينا ضيوفا فأحسنا لقاءهم ، وأكرمنا ضيافتهم ومنحناهم الحماية ومنحناهم المعونة ، ويسرنا لهم كل شيء ، ومهدنا لهم كل سبيل فكافأونا أحسن مكافأة ، وجزونا أجمل جزاء ، وعمدوا إلى فتياتنا وفتياننا ، وإلى رجالنا ونسائنا يغوونهم

كوكب الشرق فى ٣ - ٧ - ١٩٣٣ .

ويغرونهم ويفتنونهم فى دينهم ويكرهونهم على الخروج منه والارتداد عنه إن دعت الحاجة إلى الإكراه .

ونحس نحن ذلك ونألم له ونشكو نحن من ذلك ونضيق به ، ونلجأ نحن فى ذلك إلى حكومتنا القوية ذات الحد والجد ، وذات العدد والعدة ، وذات البأس والسلطان ، وذات الحرص الشديد على الاحتفاظ بالكرامة ، وحماية الأنفس والأموال وصيانة العقائد والأخلاق والاغراض ، نلجأ نحن إلى حكومتنا هذه فنستعديها على ضيوفنا هؤلاء فلا تبلغها أصواتنا إلا بعد الجهد والمشقة ولا تحركها شكاتنا إلا بعد الإلحاح وطول العناء ، فإذا بلغتها الأصوات وحركتها الشكوى أظهرت من الاقتصاد فى الجهد والاحتفاظ بالرزانة والحلم ما يضرب به المثل وتحسن به القدوة لهذه الأمم الجامحة التى تسمى نفسها أمما حرة مستقلة .

هناك تطاول الحكومة وتماطل وتصبر الحكومة وتصابر ، وتتكشف الحكومة عن فنون من الذكاء وألوان من سعة الحيلة ، لا لتصد هؤلاء المبشرين عن عدوانهم ، ولا لتردهم عن طغيانهم ، فذلك شيء فوق طاقة المطيق ، بل لتنقذ منهم ما يمكن إنقاذه من ديننا وكرامتنا وأخلاقنا وأعراضنا وحريتنا ولنخلص منهم من يمكن تخليصه من أبنائنا وبناتنا فى هدوء كامل وسلم شامل ومجاملة موفورة وابتسام حلو جميل . ولا يقف أمر حكومتنا فى الهدوء والدعة وفى حب السلم وفى مجاملة المبشرين وملاطفتهم عند هذا الحد فتدع مدارسهم ومعاهدهم قائمة مفتوحة الأبواب ، مبسوطة الرحاب لمن يجرهم إليها الإغراء والإغواء ، ولكنها تملى لهم وتمد لهم فى أسباب العدوان والطغيان حتى يداوروها ويحاوروها وحتى يستأنفوا السعى فى استرجاع بعض من أفلت منهم وخرج عن سلطانهم ، وحتى يحاولوا تعطيل أحكام القضاء ويعطلوها وقتا طويلا أو قصيرا ، لا يقف الأمر بحكومتنا عند هذا الحد ولكنه يتجاوزه إلى ما هو أدل على التسامح وسعة الصدر ورجاحه الحلم ، والحرص على مجاملة الأجانب والتلطف لهم ، وعلى مصانعة الأجانب والرفق بهم . فقد كتب إلينا كاتب من بورسعيد ينبئنا بأن الحكومة تراقب نفسها بنفسها وتعطل أمرها بأمرها وتغل يدها بيدها . نعم كتب إلينا كاتب ينبئنا بأن الحكومة تأتى هذا فى بورسعيد مبالغة فى مجاملة الأجانب وغلوا فى الاحتياط أن يصيبهم من الحكومة أذى أو ينالهم من الحكومة مكروه .

زعموا أن وزارة الأوقاف وهى فيما نعلم وزارة من وزارات الحكومة أعدت خطبة منبرية فى أمر المبشرين ، وأذاعتها على أئمة المساجد لتلقى على المسلمين يوم الجمعة . وفى

هذه الخطبة دعوة معتدلة إلى الله ودعوة مسرفة إلى الحكومة وتهوين لأمر المبشرين . قالوا وانتهت الخطبة إلى بورسعيد ووقعت إلى إمام من أئمة المساجد ، واستعد الرجل لإلقائها ، واستعد المسلمون لاستماعها ، ولكن يدا حكومية أخذت فى عنف ما أرسلته يد حكومة أخرى ، وامتدت يد وزارة الداخلية فأخذت ما أعطته يد وزارة الأوقاف . ولم يستطع الإمام الرسمى أن يلقى الخطبة الرسمية بأمر رسمى فألقى خطبة ما وسعها الناس وتساءلوا وأكثروا من التساؤل وألحوا فيه . فلما قضيت الصلاة ومضى على قضائها وقت طويل ردت الخطبة إلى الإمام ليلقيها إن أراد بعد أن فات موعد إلقائها .

قالوا : وكان الذى مثل وزارة الداخلية فى الحجر على وزارة الأوقاف هو الحكمدار الانجليزى لا المحافظ المصرى . قالوا : وأكبر الظن أن هذا الحكمدار الانجليزى متصل بوزارة الداخلية وبإدارة الأمن العام الأوروبية ، ولعل اتصاله بها أن يكون أشد وأمتن من اتصاله بإدارة الأمن العام المصرية . قالوا : ومعنى ذلك أن إدارة الأمن العام الأوروبية هى التى راقبت مسجداً من مساجد المسلمين ، وحجرت على إمام من أئمة المسلمين وتدخلت فى أمر من أمور المسلمين ، وغلت يد وزارة هى أشد الوزارات اتصالا بحياة المسلمين وشعائر الإسلام .

قالوا هذا كله وكتبوا إلينا بهذا كله ، وأشرنا إلى هذا كله يوم السبت ، وسألنا الحكومة أن تكذبه أو تنفيه فمضى مساء السبت وليله ، ومضى نهار الأحد وليله وانتصف يوم الاثنين ولم تقل الحكومة فى ذلك حرفا ، ولم تنف الحكومة من ذلك شيئا . إما لأن الوزارة كانت مشغولة برئيس الوفد وصاحبه ورحلتهما إلى الاسكندرية واحتشاد الناس لاستقبالهما فيها ، وصرف الناس عن هذا الاحتشاد ومراقبتهم حين عجزت عن أن تصرفهم ، ومراقبة رئيس الوفد وصاحبه فيما يأتيان من حركة وما يلقيان من خطب . وإما لأن الوزارة نفسها كانت متنقلة إلى الأسكندرية تبدأ عملها فى العاصمة الثانية ، فكان الوزراء مشغولين عن التبشير والمبشرين ، وعن الأئمة والمصلين ، وعن الخطباء والحكمدار بالنظر فى مكاتبهم وإصلاح أمرها وترتيب أثاثها ووضع مجالسهم من حيث يقبل الهواء أو يدبر وبما يتبع ذلك من النظر فى بيوتهم ومنازلهم من الفنادق وملاءمة هذا كله لحاجتهم وراحتهم . وأى غرابة فى هذا فحاجة الوزراء هى حاجة الدولة وراحة الوزراء هى راحة الدولة . ومن المعقول أن يشغل الوزراء ببعض أمور الدولة عن بعضها الآخر ، وإما لأن الحكومة لا تجد ما تقول .

والأنباء التى انتهت إلينا من بورسعيد صحيحة ليس إلى تكذيبها أو نفيها من سبيل .

وهذا هو الذى نخافه وهو الذى نتمنى على الله ألا يكون فكثير جدا على وزارة الداخلية أن تغل يد وزارة الأوقاف إلى هذا الحد ، وكان من اليسير ، بل كان من اللازم أن تتفق وزارة الداخلية ووزارة الأوقاف على نص هذه الخطبة قبل أن يذاع . وأكثر منه أن يكون الحكمدار الانجليزى قد أتى هذا الأمر من عند نفسه فراقب وزارة الأوقاف وغل يداً من أيدى الدولة ، وتدخل فى أمر الدين والحكومة لا تعلم شيئا من هذا ولا تسمع به . وأكثر من هذا وذاك أن تصح هذه الأنباء وتسكت عليها الحكومة كأنها لم تكن أو كأنها لا تخالف ما يجب للدولة من كرامة ، وما يجب للدين من الصيانة وما يجب للشعائر من الاحترام.إحدى اثنتين : إما أن يكون هذا النبأ صحيحا فيجب أن تتخذ فيه الحكومة إجراء يلائم الكرامة والعزة القومية . أو يجب أن تفسر لنا موقفها منه على كل حال . وإما أن يكون هذا النبأ غير صحيح فيجب على الحكومة أن تكذبه تكذيبا قاطعا وتنفيه نفيا لا يدع سبيلا إلى الشك والريب .

وما نظن الحكومة ترضى أن يعلم الناس عنها . بمثل هذا التسليم والإذعان ، وما نظن وزير الداخلية يرضى أن يعلم الناس عنه أن موظفا من موظفيه يأتى مثل هذا الأمر دون أن يرجع فيه إلى الوزير . وما نظن وزير الداخلية يرضى أن يظن الناس به أنه أذن لحكمدار بورسعيد فى أن يأتى مثل هذا الأمر ، وما نظن وزير الأوقاف يرضى أن تصبح خطب المساجد خاضعة هى أيضا لمراقبة الانجليز ، ولاسيما حين تكون هذه الخطب صادرة عن الحكومة ، لا عن الشعب ، ولا عن زعماء الشعب . ومهما يكن من شىء فإنا نستطيع أن نؤكد للحكومة أن قصة هذه الخطبة وغيرها من قصص المبشرين أحق بعنايتها وأولى برعايتها وأجدر أن تشغلها فى النهار وتؤرقها فى الليل وأحرى أن تظهر قوتها وسلطانها من رحلة رئيس الوفد وصاحبه إلى الاسكندرية ومن لقاء الناس لهما بما هما أهل له من تحية تصور حبهم الصادق وإجلالهم العظيم .

عنـــاء

عناء ثقيل مضن هذا الذى تلقاه الوزارة القائمة فيما تحاول من إزهاق الروح الوطنى وإخماد هذه الجذوة التى كان يجب على كل وزارة أن تتعهدها وترعاها ، وتحرص ما وسعها الحرص على ألا يزيدها مر الأيام إلا قوة واضطرابا .

عناء ثقيل مضن هذا الذى تلقاه الوزارة القائمة فى إزهاق هذا الروح وإخماد هذه الجذوة ، ولعل ثقله يزداد من حين إلى حين ، ويشتد من يوم إلى يوم ، ولعله أن يبلغ الازدياد والشدة أن ينوء بالوزارة كما ناء بغيرها من الوزارات ، وأن يضطرها كما اضطر غيرها من الوزارات إلى الإذعان والتسليم ، فقد حورب هذا الروح وحوربت هذه الجذوة وسلك الإنجليز وسلكت الوزارات المؤيدة للإنجليز فى حربها كل طريق . واتخذ الانجليز واتخذت الوزارات المؤيدة لهم إلى القضاء عليهما كل وسيلة فلم يفلح الانجليز ولم تفلح الوزارات التى أيدتهم وظل هذا الروح قائما قويا ، تشتد أيده ، ويعظم بأسه ، وينبسط سلطانه ويستأثر بالقلوب والنفوس كلما طال الكيد له ، وكلما اشتدت الحرب عليه . وظلت هذه الجذوة مضطرمة تبعث لهبها الخالد إلى القلوب المريضة فيطهرها ، وإلى النفوس الضعيفة فيقويها ، وإلى الضمائر المرتابة فيمحو منها كل شك ، ويزيل منها كل ريب . لو أن الوزارة القائمة اعتبرت بالحواث واتعظت بما أصاب الوزارات من قبلها لما قامت ولو أنها إذ أهملت الحوادث ولم تنتفع بما خلا قبلها من المثلات فنهضت بأعباء الحكم ، عرفت كيف تبتكر من أساليب الحرب لهذا الروح الوطنى ووسائل الإخماد لهذه الجذوة الوطنية مالم تسبق إليه لكان من الممكن أن تريح نفسها من هذا العناء الثقيل الطويل الذى تلقاه وتشقى به دون أن تستفيد منه خيرا قليلا ولا كثيرا ، ولكن الإنسان ضعيف وسلطان الغرور على النفوس عظيم ، وعبث الآمال الكاذبة بالقلوب والعقول لا حد له ، وحب الحكم والتسلط يغرى وينسى ويصرف عن العبر والعظات .

كوكب الشرق فى ٥/ ٧/ ١٩٣٣ .

لقد نهضت هذه الوزارة منذ ثلاثة أعوام قوية شديدة القوة ، نشيطة موفورة النشاط . وقد تهيأ لها من البأس والسلطان مالم يتهيأ لأحد من قبلها . ومد لها الأمل وطول البقاء مالم يمد لأحد من قبلها ، وأطلقت يدها فى أمور هذا البلد كما لم تطلق يد أحد من قبلها . فإذا برلمان يصرف ، ودستور يغير ، ونظام جديد يقام ، وبأس عظيم ينفق لتأييد هذا النظام ، وطغيان يصطنع فى غير تحرج ولا احتياط ، لإكراه الناس على أن يذعنوا للوزارة القائمة ويؤمنوا لها . وإغراء لا حد له يسلط على النفوس ، وتنتهز به الفرص ويتلمس مواضع الحاجات من الناس ، ويتعرف مواقع الضرورات من المأزومين . وإذا خروج على النظام الجديد نفسه ، وتجاوز لقواعده وأصوله وتضييق على الناس فيما وسع لهم فيه . يريدون أن ينتقلوا فإذا هم يكرهون على البقاء ، ويريدون أن يتكلموا فإذا هم يكرهون على الصمت ، يريدون أن يكتبوا فإذا أقلامهم تعقل وصحفهم تعطل . ويريدون أن يعيشوا فإذا عيشهم نفسه تؤخذ عليه السبل وتقام من دونه العقاب .

كان كل هذا ليس له إلا غاية واحدة ، وهى أن يتحول الناس عن هذا الروح الوطنى الذى أحيا نفوسهم وقلوبهم ، وجرى مع دمائهم وأصبح مقوما لحياتهم فلم توفق الوزارة إلى شيء مما أرادت ولم تظفر الوزارة بشيء مما أحبت ، ولم تستطع الوزارة أن تقنع أصدقاءها الانجليز بأن الأمر قد تم لها ولهم ، وبأن الريح قد طابت لها ولهم وبأن سفينتها وسفينتهم تستطيع أن تجرى بها وبهم على بحر هادىء مطمئن بها وبهم يوما ما إلى ما تبتغى وما يبتغون من المفاوضات وإمضاء المعاهدة التى يريدون أن يأخذوا بها مصر أخذا ، ويفرضوها على مصر فرضا .

نعم مازال الروح الوطنى اليوم كما كان يوم نهضت الوزارة بأعباء الحكم لم يمسسه ضعف ولم يصبه وهن ، ولم ينقبض سلطانه ، نستغفر الله ، بل لقد اشتدت قوته وازداد سلطانه انبساطا ، وظله امتداد. وآية ذلك أن الوزارة لم تستطع ولن تستطيع أن تغير أساليبها فى الحكم ولا أن تأخذ الناس بغير ما تعودت أن تأخذهم به من العنف ، ولا أن تنفذ الدستور على وجهه ، وتجرى أحكامه فى غير مخالفة لها ، ولا خروج عليها . فمازال خصومها السياسيون يعاملون معاملات شاذة لا تلائم الحياة الهادئة فى بلد هادىء ، بيوتهم يطوف بها الجند ، وأشخاصهم يبث من حولهم الأرصاد والعيون ، وانتقالهم يخفق له قلب الوزارة وتضطرب له نفسها ، ويختل له حسابها . وكلامهم ممنوع ، واتصالهم بالناس أمر يجب أن تأخذ عليه الوزارة كل سبيل . ماذا ؟ بل إن الوزارة لا

تتحرج ، لا نقول من مخالفة القانون والنظام ، بل من مخالفة المألوف والتورط فيما يضحك ويدعو إلى هز الرءوس ورفع الأكتاف ، فمن خطف فى القطار السريع إلى تسليح للقطر ، وتعبئة للجند وتسوير للمدن ، واحتفار للخنادق ، ونصب للمتاريس إلى ما شئت مما تتخذه البلاد الجادة حين تتعرض الأوطان للخطر الداهم يأتيها من الخارج أو يصيبها من ثورة داخلية مهلكة .

ومصر - والحمد لله - آمنة ، لا يغير عليها عدو أجنبى ، ولا تشب فيها حرب أهلية ولكن وزارتها قامت على أن تزهق هذا الروح الوطنى فهى تتخذ هذا الروح عدوا تنصب له الحرب ، وتعبىء له الجند ، وتدبر له ألوان الكيد ولا توفق مما تريد إلى شىء ، لأن الروح الوطنى لا يحارب بالعدد والعدة ، ولا يقاوم بالبأس والسلاح ، ولا يؤخذ بالإغواء والإغراء ، وإنما الوزارة الحازمة الموفقة هى التى تجاريه ولا تقاومه ، وتؤيده ولا تحاربه ، وتقويه ولا تحاول له إضعافا ولا إخمادا .

لقد جرب رئيس الوزراء حين كان وزيرا للداخلية نصب الحرب لهذا الروح الوطنى فلم تغن عنه كفايته وبراعته وبأسه شيئا ، بل قوى هذا الروح الوطنى وضعف رئيس الوزراء ، ومازال الروح الوطنى يقوى ، ورئيس الوزراء يضعف حتى انتهى أمر رئيس الوزراء الى المرض فلزم الفراش ، وأقام على هذه الحرب وزيرا آخر ، وكانت أنباء الصراع بين الوزير الجديد وهذا الروح الوطنى تلقى إلى رئيس الوزراء فى سرير مرضه فلا ترد إليه قوته ولا تدنيه من الشفاء . ومازال الروح الوطنى يقوى ومقاومة الوزارة له تضعف حتى مضى رئيس الوزراء إلى أوربا ليستريح ويستشفى ، وبقى وزير الداخلية الجديد فى مصر على حرب هذا الروح ، يبذل من الجهد ما كان يبذله صاحبه وينفق من الحيلة ما كان ينفقه صاحبه ، ويحتمل من العناء ما كان يحتمله صاحبه . والله وحده قادر على أن لا يلقى وزير الداخلية من الأعباء فى هذه الحرب مثل ما لقيه صاحبه . والله وحده قادر على أن يلهم الوزارة التسليم للروح الوطنى والانصراف عن حربه والكيد له قبل أن ينتهى الجهد بوزير الداخلية الجديد إلى مثل ما انتهى إليه وزير الداخلية القديم ، فإن قوة الأمم لا تغلب وليس إلى قهرها من سبيل . وإن الروح الوطنى يفنى الناس ويعجز عن إفنائه الناس . ذلك بأنه لايقوم على منفعة عاجلة ، ولا على أمل كاذب ولا على حب للجاه ، ولا على كلف بالسلطان ، بل لا يقوم على حب للحياة وإنما يقوم على إيمان خالص قوامه الصبر والاحتمال والتضحية .

لقد أنفق وزير الداخلية جهدا عظيما يوم السبت ويوم الأحد فزج بالناس من أهل الإسكندرية فى السجن ، لالشيء إلا لأنه أشفق على هؤلاء الناس أن يلقوا رئيس الوفد وصاحبه حين يذهبان إلى الأسكندرية ، وحشد ما استطاع حشده من قوة الدولة وجنودها فى هذا الثغر الذى كان أمينا سلما ، فأصبح مخوفا حربا ، ولكن وزير الداخلية لم يظفر بشيء ولم ينته إلى شيء ، فوصل رئيس الوفد وصاحبه إلى الأسكندرية واستقبلهما الشعب وأى شعب ! ومتى استطاع الوزراء أن يسجنوا شعبا كاملا . هنالك وقف الجند يراقبون ، ومضى الجند يطاردون وعملت عصى الجنود وسياطهم فى الأجسام ولكن وزير الداخلية رغم هذا كله لم يصنع شيئا ولم يمنع شيئا . فقد دخل رئيس الوفد الأسكندرية ولقى رئيس الوفد أهل الأسكندرية وتحدث رئيس الوفد بعد ذلك فى الناس جميعا ، وخيل إلى وزير الداخلية وزملائه بعد ذلك أن الصراع قد انتهى وأن الحرب قد وضعت أوزارها ، وأن الله قد كتب لهم النصر ، وضمن لهم الفوز ، لأن حدثا منكرا لم يحدث ، ولأن الأمن والنظام لم يتعرضا لخطر ، ولم يلحقهما أذى .

ومن الذى كان يريد أن يحدث حدثا منكرا ، أو أن يفسد الأمن والنظام ؟ إنما هى أوهام وأحلام تخيف قوما يخافون من كل شيء . وتفزع قوما يفزعون من كل شيء .

لقد ترك الوزراء جميعا مدينة الأسكندرية إلا وزير التقاليد . أقبلوا هم إلى القاهرة ليحتفلوا فيها بالمولد النبوى ، وكأنهم تركوا وزير التقاليد فى الاسكندرية لينبئهم بما سيكون ، وإن عند وزير التقاليد لأنباء سيقصها على زملائه الوزراء ، أنباء هذا اللقاء الذى كان بين الشعب وزعيمه أمس أثناء الاحتفال بالمولد فى ثغر الأسكندرية . لقد همت الشرطة أن تمنع هذا اللقاء وجدت فى ذلك ، وحشدت له ولكنها لم تمنع شيئا ، ولم توفق إلى شيء ، وتستطيع أن تقرأ أنباء هذا اللقاء فى غير هذا المكان ، فسترى أنه كان أروع وأبدع مما كانت تقدر الوزارة ومما كانت تقدر الشرطة . وسترى مع ذلك أن الأمن لم يضطرب وأن النظام لم يتعرض لخطر ، وأن الوزارة مسئولة حقا عن هذه الجهود التى تنفقها فى غير حاجة إلى إنفاقها ، وعن هذه الجنود التى تحشدها فى غير حاجة إلى حشدها . فهو عناء ضائع ، وتعب لا خير فيه ، يكلف مالا ويحمل مشقة ويضحك الأجانب ويلهيهم . وهو لايدفع شرا ، فليس فى الأمر شر ، ولا يرد خطراً فليس فى الأمر خطر ، ولا يدل إلا على شيء واحد ، وهو أن كل هذه الجهود التى بذلت منذ أعوام قد ضاعت فى غير طائل ، كما ضاعت الجهود التى بذلت من قبل . وأن

هذا الروح الوطنى الذى يراد إزهاقه أو إضعافه لم يزهق ولم يضعف وإنما قوى واشتد وعظم أمره حتى أصبح لا يلقى ما ينصب له من الحرب إلا بالضحك والابتسام .

ما أجدر الوزارة أن تريح نفسها وتريح الناس وأن تذعن لقضاء الله فيها وتكف عن هذا الجهد الضائع وتلقى عن نفسها هذا العناء الطويل الثقيل ، وتكتفى بتصريف الأمور حتى يأذن الله لها فى أن تستقيل .

إذن

سأل سائل فى مجلس النواب الانجليزى عن أمر المبشرين أمس فأجابه وزير الخارجية جوابا نحب أن نقف عند آخره ، لأن آخره خليق بالتفكير ، جدير بأن يزيل بعض الغموض الذى يحيط بموقف الوزارة المصرية من مسألة التبشير . فالناس يذكرون أن المبشرين أثاروا غضب الناس فى العام الماضى ، وأن هذا الغضب استطاع أن يصل إلى البرلمان وأن يثير لنفسه صدى فى مجلس النواب . والناس يذكرون أن رئيس الوزراء أراد أن يرد على هذا الصدى فأعلن أن الحكومة تفكر فى إصدار قانون يمكن الدولة من مراقبة التعليم ، ويمكنها بعد ذلك من اتقاء التبشير .

وانتظر الناس أن يصدر هذا القانون فى الدورة الماضية فلم يصدر ، وانتظر الناس أن يذكر هذا القانون فى خطبة العرش لهذا العام البرلمانى فلم يذكر ، وانتظر الناس أن يعرض هذا القانون على البرلمان فى دورته الأخيرة فلم يعرض .

وأثار المبشرون غضب المصريين مرة أخرى وكان غضب المصريين فى هذه المرة عنيفا ، وكان إجماعيا . فلم يكن بد من أن يصل إلى البرلمان ، ومن أن يحدث لنفسه صدى فى المجلسين ، ولم يكن بد من أن تتكلم الوزارة ومن أن تعمل لتسكت غضب المصريين وترد على صداه فى البرلمان . وانتظر الناس أن تتحدث الوزارة عن هذا القانون الذى وعدت به منذ عام فلم تتحدث وكتبنا نحن وكتبت الصحف الأخرى تطلب إلى الحكومة أن تصدر هذا القانون فلم تقل الحكومة شيئا ، ولكن صحيفتها لامتنا على ذلك أشد اللوم ، وأنبتنا على ذلك أشد التأنيب وزعمت أننا نطالب الحكومة بما لاقبل لها به وأننا نتحداها ونتعمد تعجيزها وإحراجها . ونسيت أن رئيس الوزراء نفسه هو الذى وعد بإصدار هذا القانون ، ثم ألح المصريون فى المطالبة بهذا القانون ووضع الوزراء أصابعهم فى آذانهم وأعرضوا عن هذا الأمر إعراضا . فالآن يخيل إلينا أن وزير الخارجية البريطانية قد حل بجوابه أمس هذا اللغز ، وأزال بجوابه هذا الغموض . فهو يعلن إلى

كوكب الشرق فى ٦ – ٧ – ١٩٣٣ .

سائله فى مجلس النواب الانجليزى أنه أذن للمندوب السامى فى أن يتحدث إلى ولاة الأمور من المصريين فى إمكان وضع نظام لمراقبة مركزية على بعض النواحى لأعمال المبشرين . ومعنى ذلك ، إن فهمنا لغة السياسة البريطانية أن المندوب السامى مفوض من حكومته فى أن يدرس مع حكومتنا أمر هذا التشريع الذى وعد به رئيس الوزراء منذ أكثر من عام ، والذى انتظره الناس منذ صدور هذا الوعد عن رئيس الوزراء ، فلم يظفروا به إلى الآن ، والذى كانت صحيفة الوزارة ترى مطالبة الحكومة به إسرافا عليها وتعجيزا لها ، وتعمدا لدفعها إلى الحرج والضيق .

وإذن فقد تفضلت وزارة الخارجية البريطانية فأذنت بالكلام فى هذا الموضوع وهى بالطبع لم تأذن للوزارة المصرية . فالوزارة المصرية أكبر وأكرم وأعز وأجل خطرا وأحرص على الاستقلال من أن تحتاج إلى مثل هذا الإذن ، أو من أن تتلقى هذا الإذن من حكومة أجنبية مهما تكن ، ومن الحكومة الانجليزية بنوع خاص . وأنت تذكر ذلك الرد التاريخى الخالد الذى أفحم به رئيس وزرائنا صدقى باشا رئيس وزراء الانجليز رمسى مكدونالد .

لم يصدر إذن وزارة الخارجية لحكومتنا ، وإنما صدر للمندوب السامى . وهنا نحب أن نبين موقف الوزارة من المندوب السامى بعد هذا الإذن ، ما هو ؟ وكيف يكون ؟ وأى الفريقين يبدأ فيتحدث إلى صاحبه فى وضع هذا النظام الذى يمكن الدولة من مراقبة التبشير والمبشرين ؟ أهو المندوب السامى الذى سيتقدم أو تقدم بالفعل إلى الوزارة فقال لها إن أمر المبشرين قد عظم خطره ، واشتد شره ، وأصبح مضيعا لسيادة الدولة المصرية ، معرضا أمنها للاضطراب ونظامها للفساد . والرأى أن تستطيع الدولة المصرية مراقبة المبشرين فى بعض ما يأتون من الأمر . فتعالى نتحدث فى هذه المراقبة كيف تكون ؟ وإلى أى حد ينبغى أن يتسع سلطانها وما الثمن الذى يمكن أن تدفعه مصر لتكون هذه المراقبة ؟ أم هى الحكومة المصرية قد تقدمت إلى المندوب السامى فقالت له : أمر المبشرين قد عظم ، وشرهم قد انتشر ، وضاق به المصريون جميعا ، وأن المعارضة وهى الأمة كلها كما تعلم تلح فى أن يصدر قانون يمكن الدولة من مراقبة التبشير والمبشرين .

والظاهر أن المعارضة محقة فيما تطلب ، وأن الحكومة ستضطر إلى حرج شديد إذا لم تقبل هذه المعركة ولم تصدر هذا القانون . فهل لك فى أن تستأذن الحكومة البريطانية لعلها لا تكره أن نبدأ بالحديث فى هذا الموضوع ؟ أم سكت المندوب السامى وسكتت

الحكومة المصرية حتى خطر هذا الرأى لوزارة الخارجية البريطانية بعد ما رأت من غضب المصريين وإلحاحهم فكلفت مندوبها السامى فى أن يتصل بالحكومة المصرية ويتحدث معها فى أمر هذا القانون ، ونحب أن نعلم أبدأ المندوب السامى بالفعل هذا الحديث أم لايزال صامتا يراقب المبشرين من كثب وينتظر ؟ وقد ظهر تصريح وزير الخارجية فى الصحف أن تقول للوزارة : لقد نشرت الصحف أن وزير الخارجية صرح فى مجلس النواب بأنه أذن لك فى كيت وكيت ، وقد وقع هذا الخبر من النفوس موقعا حسنا ، لأنه سيمكننا من أن نقول للمعارضين : ها نحن أولاء نقبل المعركة ونجد فى إصدار القانون الذى كنتم تطلبونه تعجيزا لنا وإحراجا . فهل تسمح بأن نبدأ الحديث فى هذه المراقبة كيف تكون وإلى أى حد ينبغى أن تتسع والى أى حد ينبغى أن تضيق ؟ كل هذه الأشياء يجب أن نتبينها وأن نعلم وجه الحق فيها ، ونريد أن نعتقد أن الحكومة المصرية هى التى بدأت الحديث فى أمر هذا القانون وأن إذن وزير الخارجية لم يصدر إلى المندوب السامى إلا إجابة لطلب الحكومة المصرية . نريد أن نعتقد هذا ولكننا نأسف حقا لأن الحكومة المصرية آثرت هذا الصمت العميق وتركت صحفها تذكر التعجيز والإحراج وتظهر هذا القانون كأنه شىء لا سبيل إليه ، ولا أمل فيه حتى ساءت الظنون وشعر الناس بعجز الحكومة عن الوفاء بوعد رئيس الوزراء للبرلمان . وأنه لمن المؤلم حقا أن يطلب المصريون شيئا لهم الحق فى أن يطلبوه وأن يلحوا فى الطلب فلا تنبؤهم الحكومة حتى بأنها آخذة فى السعى إلى تحقيق ما يرجون وإجابتهم إلى ما يطلبون حتى إذا استشعر المصريون اليأس من تحقيق هذا الأمل ، أنبأهم وزير الخارجية البريطانية بأن الأمر ليس مستحيلا وأنه قد أذن للمندوب السامى فى أن يتحدث إلى الحكومة المصرية فيه .

وشىء آخر نحب أن نعرفه : باسم من يتحدث المندوب السامى ؟ أباسم الحكومة الانجليزية وحدها ؟ وإذن فهل بدأت حكومتنا تتحدث إلى الحكومات الأجنبية حديثا مباشرا فى هذا الموضوع . أم باسم الأجانب جميعا ، وإذن فهل قبلت حكومتنا مذهب الانجليز فى أنهم هم الذين ينبغى أن يتحدثوا عن الأجانب وينوبوا عنهم فيما قد يكون بيننا وبينهم من حديث . وإذن فوزارة خارجيتنا إنما أنشئت لتتحدث إلى الانجليز ، لا إلى غيرهم ، وإذن ففيم المفاوضات هنا وهناك ؟ وفيم المراسم التى لا تحصى ؟ وفيم النفقات التى لا تطاق ؟ أم هل تقف الحكومة الانجليزية من هذه المسألة موقفها من مسألة الدين فتؤيد وجهة النظر المصرية وتسند مصر الضعيفة حين تريد أن تتحدث إلى الدول فى هذا الموضوع .

كم كنا نود لو سلكت الحكومة المصرية فى هذا الموضوع مسلكها فى غيره من الأمور التى تمس الأجانب فهيأت قانونها ثم عرضته على الجهات الأجنبية المختصة وفاوضت فيه على أنه موضوع عادى ، لا يحتاج إلى أن تعقده السياسة القائمة بيننا وبين الانجليز ، والطريف الظريف أن الأمر لا يقف عند هذا الحد ، فوزير الخارجية البريطانية ينبئنا بأن مباحثات تجرى الآن مع مجلس اتحاد المبشرين فى هذا الموضوع . فمن الذى يجرى هذه المباحثات مع مجلس اتحاد المبشرين ؟ أهى الحكومة المصرية ، وإذن فعلى أى قاعدة ؟ ومتى كان اتحاد المبشرين هيئة سياسية تفاوضها الحكومة المستقلة ذات السيادة فى إصدار ما تريد إصداره من القوانين .

أهى الحكومة الانجليزية ؟ وإذن فمن الذى وسطها فى هذا الأمر ؟ وهل بلغ من أمر المبشرين من الخطر فى مصر أن لا نراقبهم لندفع عدوانهم إلا بعد مفاوضة يتوسط فيها الانجليز .

إن هذا الموقف غامض جدا ، يحتاج إلى توضيح فهل للحكومة أن تصدر بيانا يمحو هذا اللبس ويزيل هذا الغموض ، ويؤكد للناس أن الوزارة التى أفحمت رئيس الوزراء الانجليزى لا تعجز عن إقناع الدول الأجنبية بحقها فى مراقبة التعليم وغير التعليم مما يقع فى أرضها ، لأن هذا الحق نتيجة طبيعية للسيادة والاستقلال .

عجـــز

لو أنه ظهر على أى وزارة من الوزارات فى أى بلد من البلاد الحرة لما استطاعت أن تبقى ولا أن تسيطر على تصريف الأمور ، ولكنه فى مصر سبب من الأسباب التى تمد حياة الوزارة القائمة ، وتطيل بقاءها . ولعله أن يكون السبب الأول لما تستمتع به الوزارة من حياة متصلة ، وبقاء طويل . فلو قد كان لهذه الوزارة حظ من قوة أو نصيب من قدرة أو استعداد للحزم ومضاء العزم ومقاومة الأجنبى والذود الصحيح عن المنافع المصرية لضاق بها مؤيدوها من الانجليز وأصدقاؤها من الأجانب ولتألب عليها أولئك وهؤلاء ، ولخلقوا لها المصاعب وبثوا أمامها العقاب ، واضطروها إلى أن تستقيل .

ولكنهم – والحمد لله على الخير والشر – راضون عنها كل الرضا ، مغتبطون بها كل الاغتباط . فمن الطبيعى أن يحرصوا عليها كل الحرص ، وأن يحوطوها بالعناية والرعاية ويقرأوا عليها العزائم ويهيئوا لها التمائم كلما اشتد بها الضعف أو تعرضت لخطر السقوط وماذا يكرهون من وزارة نهضت فيما يقال لحماية مصر وتحقيق منافعها ، والذود عن مرافقها بإزاء الأجانب قبل كل إنسان فلم تستطع أن تحتفظ لها من دون الأجانب بشىء ، ولم تستطع أن ترد عنها عادية ولا أن تصرف عنها مطمعا . وإنما حققت للأجانب ومازالت تحقق لهم ما أرادوا وعجزت كل العجز عن أن تحقق لمصر مصلحة ما عند الأجانب هؤلاء .*

دارت وأطالت الدوران حول وزارة الخارجية البريطانية لتظفر بالمفاوضة فلم تجد إلا ردا كان رفيقا أول الأمر ، ثم أخذ يشتد شيئا فشيئا حتى انتهى إلى العنف وأصبح أشبه شىء بإغلاق الأبواب فى الوجوه . وثارت بعض المسائل بينها وبين الانجليز فلم تستطع

---

* كوكب الشرق فى ٨ – ٧ – ١٩٣٣

فيها إلا التسليم المطلق ، والإذعان الذى لا حظ فيه لمقاومة أو ثبات . وثارت بعض المسائل بينها وبين غير الانجليز من الأجانب فلم يكن موقفها منهم خيرا من موقفها من الانجليز ، وهى مع ذلك فيما تزعم وزارة العزة والكرامة ، ووزارة الإباء والاستقلال . وإن المصريين ليشهدون موقفها من مسألة الدين منذ ثارت فيستحون لها ويستحون لأنفسهم من هذا الضعف الذى لا يليق بوزارة تشعر لنفسها بشىء من الكرامة فى هذا العصر الحديث .

أعلنت منذ ثارت مسألة الدين أنها لن تؤدى إلا ورقا ، وكان من الحق عليها لنفسها ولمنفعة البلاد التى جعلت الظروف أمرها إليها أن تتبع هذا القول بالعمل ، وأن تجعل الأداء بالورق أمرا واقعا لا يحتمل جدالا ولا نزاعا ولكنها لم تصنع شيئا وما كان لها أن تصنع شيئا وليس لها حظ من قوة ولا نصيب من قدرة على المقاومة والثبات للأجنبى .

لم تصنع شيئا – نستغفر الله – بل صنعت ما يجعل إعلانها عبثا من العبث ، وكلامها لغوا ، لا يخيف ولا يفيد . قبلت الخصومة أمام المحاكم المختلطة وهى تعلم حق العلم ، وتصيح ما وسعها الصياح أن هذه المسألة لا تصلح موضوعا للخصومة أمام المحاكم ولكنها على ذلك قبلت هذه الخصومة ومضت فيها . والغريب أنها مضت فى هذه الخصومة ومضت فى الوقت نفسه فى مفاوضات سياسية فأتاحت للدول أن تقول لها : لم لا تنتظرين حكم القضاء ؟ ثم قضت عليها المحاكم فمضت فى الخصومة وأستأنفت ومضت أثناء ذلك فى المفاوضات وأتاحت للدول أن تقول لها مرة أخرى ولم لا تنتظرين حكم القضاء ؟ ولاسيما وقد ظهر الحكم الابتدائى مؤيدا لرأينا مغنيا لنا على ما نريد .

كذلك أوحت إليها الكفاية الخارقة والمهارة البالغة والبراعة الفائقة فى تصريف أمور السياسة والمال جميعا أن تقول ولا تفعل ، وأن تعد ولا تفى ، وأن تخاصم أمام القضاء وتزعم أنها لن تنفذ أحكام القضاء ، وأن تذهب إلى المحكمة وتذهب فى الوقت نفسه إلى وزارات الخارجية . مواقف أقل ما توصف به أنها متناقضة مضطربة لم تصدر عن خطة مستقيمة واضحة وإنما صدرت عن حيرة وتردد وعجز .

وهذه المفاوضات لقد طالت ويظهر أنها ستطول وستسرف فى الطول . بدئت فى مصر واستمرت فى أوروبا حين سافر رئيس الوزراء فى العام الماضى للرياضة والراحة ، ثم اتصلت فى مصر ، ثم استمرت فى أوروبا حين وفد كبير المستشارين الملكيين إلى إيطاليا وفرنسا وانجلترا ، ثم اتصلت فى مصر واستمرت فى باريس حين سافر مدير البنك العقارى إليها ثم اتصلت فى باريس حين ذهب رئيس وزرائنا ليستشفى ويستريح ، ثم

استؤنفت فى لندره والله يعلم متى تنتهى وإلى أى نتيجة تنتهى ، ولكن الشيء الذى لا يقبل شكا ولا جدالا هو أنها لن تنتهى إلى ما يحقق المنفعة المصرية أو يحفظ الكرامة المصرية . فإن المفاوضة فى هذه المسألة معناها المساومة ، معناها الأخذ والعطاء ، معناها أن تنزل مصر عن بعض حقها وينزل الأجانب عن بعض ما يزعمون لأنفسهم من حق فيلتقى المختصمون فى وسط الطريق ، وقد كان يجب ألا تنزل لهم عن شيء .

كان يجب ذلك لو أن فى مصر وزارة قوية قادرة على أن تقول فتعمل وتعد فتفى ، وتريد فتنفذ ما تريد . ولكن فى مصر – والحمد لله على الخير والشر – وزارة قوية مسرفة فى القوة بالقياس إلى المصريين ، ضعيفة مسرفة فى الضعف أمام الأجانب . ولذلك لا تريد هذه الوزارة من المصريين شيئا إلا جدت في تنفيذه ، وأنفقت من الجهد ما يطاق ومالا يطاق ، وانتهت أحيانا إلى أن تثير الضحك والابتسام . فإذا أرادت من الأجانب شيئا فسل عن اللين والرفق ، وسل عن الظرف واللطف ، وسل عن الخفة والمجاملة ، ثم سل بعد ذلك عن الإذعان والتسليم .

ولو أن وزارتنا اصطنعت مع المصريين بعض ما تصطنع مع الأجانب من الظرف والمجاملة لهان احتمالها بعض الشيء ولكن أنى لها ذلك ، وهى إن فعلته عرضت نفسها للفشل وخطر الاستقالة . لو أنها صبرت وصابرت فى أمر جبل الأولياء ، لو أنها تمهلت واصطنعت الأناة فى أمر بحيرة تانا ، لو أنها فكرت وتروت فى غير هذين الأمرين من أمور الشركات ، لو أنها تريثت فى أمر التعليم لأمكن احتمالها بعض الشيء ولكنها متعجلة شديدة التعجل حين تطلب إلى المصريين شيئا وهذا معقول فليس للمصريين من القوة والبأس مثل ماللأجانب وليس المصريون قادرين قدرة الأجانب على إحراج الوزارة واضطرارها إلى ترك الحكم . فمن الحق على الوزارة أن تحاسن الأجانب وتخاشن المصريين . والإنصاف يقضى بأن نسجل لها أنها قد بلغت من ذلك أقصى ما تريد ، وظفرت للأجانب من المصريين بكل شيء ، ولم تظفر للمصريين من الأجانب بشيء . وستنتهى مسألة الدين هذه إن مدت للوزارة أسباب الحياة إلى مالا يحب المصريون . وستؤدى مصر ذهبا أو ستؤدى مصر ورقا بشرط أن ترفع الفوائد ويعوض على الأجانب بعض ما يخسرون من العدول عن الذهب فى الأداء .

وليس للمصريين أن يقولوا شيئا ولا أن ينكروا شيئا فقد أنعم الله – عز وجل – عليهم بأعظم الوزارات حظا من القوة والكفاية وأوفرها نصيبا من الرفق بهم والعطف عليهم والرعاية لمصالحهم . فمن قال غير هذا فقد ألغى عقله وتعلق بالأمانى والآمال .

وأى غرابة فى هذا ؟ أليس من الواجب على المصريين أن يؤمنوا بأن لهم وزارة تدبر أمورهم وتشرف على منافعهم وإن كان رئيسها عاجزا عن تصريف الأمور وتدبيرها منذ أشهر طوال ، وسيظل عاجزا عن تصريف الأمور أشهرا أخرى ، وهو يستشفى فى القاهرة ، ويستشفى فى فرنسا ، ويستشفى فى سويسرا دون أن يجد أحد بذلك بأسا ، لأن الأمور تجرى هادئة مطمئنة ، لا عوج فيها ولا اضطرابا . وإذا كان العجز السياسى المطلق لم يضطر رئيس وزرائنا إلى أن يستقيل ، ولم يضطره العجز المادى إلى أن يستقيل ؟ ومن يدرى ؟ لعل قوما يرون من الخير أن لا تكون لمصر إلا وزارة صورية يختلف فيها الوزراء إلى الدواوين ويجلسون إلى المكاتب ولا يعملون شيئا . من يدرى ؟ لعل قوما يرون فى هذا خيرا لأنه يقضى لهم المآرب ويحقق لهم المنافع ولا يكلفهم احتمال التبعات ولكن هذه التبعات قد تكون ثقيلة خطيرة فى يوم من الأيام حين يفسد كل شيء ولابد من أن يفسد كل شيء إذا حكمت مصر على هذا النحو الذى تحكم عليه الآن ، وأهملت مرافقها على النحو الذى تهمل عليه الآن ، وظل العجز السياسى والمادى قواما لحياة وزرائها كما هو الآن .

يومئذ يفكر الذين يرضون عن حالنا الحاضرة فلا يجدون فائدة للتفكير. ويومئذ يقدرون فلا يجدون نفعا للتقدير . ويومئذ يلتمسون الإصلاح فلا يجدون إليه سبيلا . والله وحده قادر على أن يعصم مصر من أن تصل من السوء إلى هذه المنزلة فيلهم رئيس الوزراء ، أو يلهم من ينصح لرئيس الوزراء بأن يستقيل قبل أن يأتى يوم لا تنفع فيه استقالة ولا إقالة .

استقالة

لم يقدمها رئيس الوزراء ، وما ينبغى لرئيس الوزراء أن يقدمها فصحته – والحمد لله – موفورة والشفاء مقبل عليه – والحمد لله – فى خطى واسعة سراع . وما ينبغى لرئيس الوزراء أن يقدمها حتى ولو كانت صحته من الضعف والوهن بحيث لا تسمح له أن ينهض بهذه الأعباء الثقال التى يسمونها أعباء الحكم . فاسم رئيس الوزراء يغنى عن صحته ، واسم رئيس الوزراء خليق أن ينهض الوزراء بأثقال الحكم ، فيتحملوا جهده ، ويصرفوا أموره كأحسن ما يحتمل الجهد وتصرف الأمور !!

فى اسم رئيس الوزراء قوة تندك لها الجبال وتزلزل لها الأرض . وفى اسم رئيس الوزراء بركة يستحيل لها الجدب خصبا ، وتصبح بها الأزمة ثروة ، ويصير بها الشقاء والبؤس سعادة ونعيما . وإذا اجتمعت للوزارة من أسباب الحياة والبركة فى اسم رئيس الوزراء فقد اجتمعت للوزارة من أسباب الحياة وطول البقاء أمتنها وأقواها . وإذن فليس رئيس الوزراء هو الذى قدم الاستقالة ، لأنه ليس فى حاجة إلى تقديمها ، ولأنه واثق كل الثقة ونحن واثقون معه كل الثقة بأنه سينفع مصر صحيحا وعليلا ، وسيخدم مصر قريبا وبعيدا ، وسينقذ مصر مشتركا فى الحكم بالفعل وغير مشترك فيه . ولو قد أزمع رئيس الوزراء أن يرفع استقالته إلى جلالة الملك لأنه مريض عليل ، أو لأنه ناء بعيد لسعت مصر كلها سعيا تلح عليه وتتوسل إليه فى أن يمسك استقالته أو يستردها ! فمصر حريصة على رئيس الوزراء ! ومصر مشغوفة برئيس الوزراء ! تحبه حب الأم الشفيقة البرة لابنها الوفى الوحيد ! مصر قد ذاقت من ألوان السعادة والنعيم فى عهد رئيس الوزراء ما تستعذبه وتستلذه وتحرص كل الحرص على أن يدوم ويتصل وهل ذاقت مصر لذة الحرية قبل رئيس الوزراء ؟! وهل استمتعت مصر بالعزة والكرامة قبل رئيس الوزراء ؟! وهل عرفت مصر الرخاء والثروة قبل رئيس الوزراء ؟ وهل شكت مصر من كثرة المال حتى كادت تكتظ به قبل رئيس الوزراء ؟ فكيف تريد أن تفرط

كوكب الشرق فى ٩ – ٧ – ١٩٣٣ .

مصر فى رئيس الوزراء ؟ أو أن تسمح مصر لرئيس الوزراء بأن يستقيل ؟ كلا لن يستقيل رئيس الوزراء ، ولن تأذن مصر فى ذلك ! ولن تشك فى أن رئيس الوزراء إن قدم استقالته أوهم بتقديمها فلن يفعل ذلك إلا مكرها عليه ، مضطرا إليه من هؤلاء الانجليز الذين لا يحبون مصر ، ولا يحبون لها الخير ، والذين يظهرون التأييد لرئيس الوزراء ، ويسرون الكيد له والجد فى تأييد الوفديين !! ولابد لمصر من أن ترد إلى الانجليز كيدهم وتصرف عن نفسها شرهم وتحوط رئيس وزرائها بالنفوس والقلوب ، وتأبى على الانجليز إكراههم اياه على أن يستقيل . فذلك ليس من شئون الانجليز ، وإنما هو من شئون مصر وحدها . وقد ضرب رئيس الوزراء لمصر فى العزة والكرامة ، وفى الأنفة والإباء مثلا لن تنساه يوم أفحم المستر مكدونالد ووقفه عند حده ، حين أراد أن يعرض لشئون مصر الخارجية . وقد انتفعت مصر بهذا المثل واستفادت مصر من هذا الدرس فستقول للإنجليز يوم يريدون رئيس وزرائها على الاستقالة : مكانكم ، لا تتقدموا ، بل تأخروا . وإن شئتم فلن تسمح لكم مصر القوية العزيزة أن تمسوا بسوء رئيس وزرائها القوى العزيز !!

لم يقدم رئيس الوزراء إذن هذه الاستقالة التى عنونا بها هذا الحديث ، وإنما قدمها رجل آخر ليس له خطر رئيس الوزراء ولا يمكن أن يكون له خطر رئيس الوزراء ، وإنما هو رجل كغيره من الناس ، لا يشارك رئيس الوزراء إلا فى شيئين : فى الوزارة ، وفى المرض .

فهو وزير الخارجية كما أن رئيس الوزراء وزير المالية ، وهو مريض كما أن رئيس الوزراء مريض ، ولكن الحوادث أظهرت أن رئيس الوزراء قد أخطأ ، وأى الناس لا يخطىء ، وهل أكثر خطأ من عظماء الرجال حين اختار نخلة باشا المطيعى ليكون له زميلا فى الوزارة وشريكا فى الحكم . أخطأ لأن وزير الخارجية لم يكد يصيبه المرض حتى استقال أو تحدث فى الاستقالة . وقد تقدم إليه من تقدم فى أن الاستقالة لا تليق بوزراء هذا العهد لأنها ضعف فى النفوس وخور فى الطبيعة . فقبل النصيحة وعدل عن حديث الاستقالة ، ثم طال عليه المرض بعض الشىء فعاد إلى هذا الحديث وعاد ناصحوه يذكرونه بأن الاستقاله آفة قد برىء منها وزراء هذا العهد السعيد . فسكت الرجل على مضض ثم طال عليه المرض فاضطر إلى أن يخرج من الصمت ويذكر الاستقالة من جديد . وأظهرت التجارب أن النصح لا ينفعه وأن الموعظة لا تعنى عنده شيئا ، وأنه لم يكن من الرجال الذين يصلحون لهذا العهد ، وإنما هو من رجال العهد القديم الذى كان

يستقيل فيه الوزراء إذا مرضوا وألم بهم من العلة زائر ثقيل .

وقوم آخرون فيهم مكر وفيهم شدة حتى فى الدعاية ، يزعمون أن وزير الخارجية لم يستقل أول الأمر ، وإنما أثبت أنه من رجال هذا العهد ، وأنه قادر كرئيس الوزراء على أن يجمع المرض والحكم فى غمد ، لكنه أراد أن يسافر ليستشفى كما سافر رئيس الوزراء ليستشفى ، وأستأذن فى ذلك فلم يؤذن له فغضب لكرامته وغضب لصحته واستقال . وإذا كان هذا النبأ صحيحا فهو دليل أيضا على أن وزير الخارجية لم يكن من رجال هذا العهد ، وإنما هو من رجال العهد القديم الذين كانوا يغضبون إذا استأذنوا فلم يؤذن لهم ، أو طلبوا شيئا فلم يجابوا إليه . والذين كانوا يستقيلون إذا أبى عليهم رئيس الوزراء بالأصالة فضلا عن رئيسهم بالنيابة بعض ما كانوا يطلبون .

أثبت وزير الخارجية أنه من تلك الدقة القديمة التى تمرض فتستقيل وأى خطر تتعرض له مصر لو أن جميع الوزراء كانوا من تلك الدقة القديمة يستقيلون للمرض ويستقيلون للغضب ، ومع ذلك فقد خلت المثلات من قبل وزير الخارجية ، وكان عليه أن يستفيد من وزراء قبله غضبوا وألح عليهم الغضب فلم يستقيلوا ، وإنما ثبتوا فى أماكنهم حتى استقال رئيس الوزراء نفسه فأخرجهم من الحكم ، وهم يعلمون أو لا يعلمون . ثم ألف وزارته الثانية فلم يردهم إلى الحكم وهم يريدون أولا يريدون . والغريب أن وزير الخارجية غير موفق حتى فى مرضه ، فهو مشارك فى هذا المرض لرئيس الوزراء ، ولكنه أراد أن يمضى بهذه الشركة إلى أبعد حدوده ، فظن أنه يستطيع هو أيضا أن يسافر إلى أوروبا كرئيس الوزراء ، وأن الذى يؤذن فيه للوزراء إنما هو الراحة إذا تعبوا وهم أصحاء كما يستريح وزير التقاليد بعد أيام لأنه متعب ، لا لأنه مريض . وعلى كل حال فقد كان مرور نخله باشا المطيعى بالوزارة درسا إن لم ينفعه هو فقد ينفع زملاءه . وقد ينفع الوزير الذى سيخلفه على وزارة الخارجية . وخلاصة هذا الدرس أن الوزير الذى يفكر فى أن يقيس نفسه برئيس الوزراء لا يصلح للوزارة ، وإنما الوزير الذى يصلح للوزارة حقا هو الذى يضعه رئيس الوزراء على كرسيه فلا يبرحه حتى يدفعه عنه رئيس الوزراء دفعا ! والوزير الذى يصلح للوزارة هو الذى يعرف أن للناس مقامات ، وأن مقام الوزير رفيع بالقياس إلى موظفيه ، ولكنه على كل حال لا ينبغى أن يرقى إلى ما فوق ذلك أو أن يسامى مقام رئيس الوزراء .

فلعل المصريين أن يشاركوا الوزراء والمستوزرين فى الانتفاع بهذا الدرس السياسى القيم الذى تلقيه عليهم ظروفنا السعيدة فى هذا العهد السعيد .

جـوع

أما وزارتنا[1] شفيقة على الفقراء ، رفيقة بالبائسين ، تتولاهم بالبر الذى لا حد له ، وتشملهم بالعطف الذى لا ينتهى إلى غاية ، وتذود عنهم ألم الجوع ، وترد عنهم المشقة والضر ، وتغمرهم باليسر والنعيم ، فشىء ليس إلى الشك فيه من سبيل ، إلا أن تكون مكابرا تحب المكابرة ، أو محاربا تتهالك على المراء . وفى أى بلد من بلاد الأرض ترى الفقراء والبائسين رغم هذه الأزمة العنيفة ينعمون بخفض العيش ويأخذون من لذات الحياة ما يريدون وفوق ما يريدون كما تراهم فى مصر الآن تستطيع أن تطوف فى المدن والقرى وأن تجوب أقطار الريف فلن ترى مفلسا ولا مأزوما . ولن ترى شقيا بالحياة ولا يائسا منها ، ولا زاهدا فيها . إنما الناس جميعا فى صفو لا يشوبه كدر ، ولين لا تشوبه قسوة . كلهم فرح مرح ، وكلهم سعيد مبتهج ، وكلهم باسم للحياة ، مقبل عليها ، مستزيد منها . وتستطيع أن تطوف فى القاهرة فترى من مظاهر السعادة واليسر ، ومن آيات النعيم وصفو العيش ما يضطرك إلى أن تسأل نفسك : كيف أعرض الفقراء والبائسون من أهل الأرض عن مصر ؟ وكيف لم يرحلوا إليها ، ولم يتساقطوا عليها وقد أصبحت مصر فى هذه الأيام السود جنة الله فى الأرض من غير شك ولا مراء ؟ لقد كان يسخر فولتير حين صور فى قصة من قصصه المشهورة قطرا من الأقطار الأمريكية يمشى الناس فيه على الذهب ، ويعبث الأطفال فيه بالأحجار الكريمة وتنحط فيه قيمة المعدن والجوهر حتى يأبى الناس أن يتخذوهما أساسا للتعامل أو ثمنا للبيع والشراء .

كان فولتير يسخر حين صور هذا القطر . فلو قد عاش فولتير إلى هذا العهد السعيد الذى نحن فيه لعلم أن سخريته قد أصبحت حقا وأن هزله قد أصبح جدا ، وأن مصر إذا لم يمش الناس فيها على الذهب ولم يعبث الأطفال فيها بالدر والياقوت فإن الناس فيها لا يعرفون ألما ولا ضرا ، ولا يخافون أن يصيبهم ألم أو يمسهم ضر .

لهذا كله عجبت أشد العجب حين أقبل على جماعة من الناس قد أضناهم الجوع

---

(١) كوكب الشرق فى ١٠ - ٧ - ١٩٣٣ .

وانهكهم الحرمان ، وظهرت عليهم آثار السوء وضعفت أصواتهم لأنهم لا يجدون ما يقيم أودهم ويمكنهم من أن يتحدثوا إليك فى صوت ظاهر ممتلىء مستقيم . ولم أشك حين رأيت هؤلاء الناس البائسين المحرومين فى أنهم جماعة من الأجانب الذين مسهم الضر فى بلادهم ، وضاقت بهم الحياة فى أوطانهم ، فأقبلوا إلى مصر يلتمسون فيها اليسر والسعة ، ويفزعون إلى ما فيها من النعيم والرخاء . ولكننى لم أكد أتحدث إليهم وأسمع منهم حتى اشتد عجبى وانتهى إلى أقصاه ، لأنى علمت أن هؤلاء الناس مصريون ، نعم مصريون !! أسمعت ؟ إنهم مصريون يلذعهم الجوع ، وتحرقهم الفاقة ، لايستطيعون أن يأووا إلى بيوتهم لأن لهم نساء وأطفالا يقضون اليوم الكامل لا يصيبون فيه طعاما ولا يظفرون فيه بالنوم . وهم مع ذلك مصريون يعيشون على ضفاف النيل . أتستطيع أن تفسره أو تجد إلى تعليله سبيلا ؟ بؤس فى مصر يجوع له الناس ويأرقون ، ورئيس الوزراء صدقى باشا ، هذا الذى تولى وزارة مصر فعاهد النعيم واليسر على أن يقيما فيها ما أقام هو رئيسا للوزراء .

بؤس فى مصر ، وهذه الوزارة القائمة مشرفة على أمور مصر ، وهى التى مست وادى النيل بعصا سحرية فتحول كل شىء جدب فيه إلى خصب وأصبحت مصر زينة الدنيا وبهجتها ، ومطمع الأمانى والآمال . نعم فى مصر بؤس ، وفى مصر قوم يشقون بالجوع ، لا بالجوع الذى يحسونه هم وحدهم ، بل بالجوع الذى يحسه النساء والأطفال . لم أكن أصدق ذلك ولا أطمئن إليه ، فأخذت أسأل القوم وألح عليهم وآخذهم بالأيمان المحرجة حتى لم يبق لى سبيل إلى الشك فى أنهم صادقون ، وفى أنهم مصريون ، وفى أنهم جماعة من العمال الذين كانوا يعملون فى شركة السيارات ، فلما كان الإضراب وقصة الإضراب حيل بينهم وبين العمل لما شئت من هذه الأسباب التى تقبل أو لا تقبل والتى تجوز أو لا تجوز ، فهم الآن عاطلون وهم الآن جائعون ، وهم الآن يصلون نار البؤس والشقاء . أهم قليلون ؟ قد يكون ذلك وقد لايكون ، فهم بين المائتين والثلاثمائة . وفى عنق كل واحد منهم زوج وصبيان ، وكلهم بائس فهم يبلغون الألف أو يزيدون . وألف جائع فى مدينة القاهرة كثيرون إن كنت تحب العدل والبر والرحمة . وألف جائع فى مدينة القاهرة قليلون إن كنت تريد الإحصاء . وقياس هؤلاء الألف الجائعين إلى عشرات الآلاف ومئاتها أولئك الذين لا يجدون جوعا ولا حرمانا . وسواء كانوا قليلين أم كثيرين فهم ألف وهم ألف من المصريين لا ينبغى بحال من الأحوال أن يمسهم الضر إلى هذا الحد ، ولا ينبغى بحال من الأحوال أن تحرقهم نار البؤس إلى هذا الحد . فإذا تبينت أنهم لا يجوعون ولايرون جوع أهلهم ، لأنهم قصروا

فى العمل أو رغبوا فى الكسل ، وإنما هم يشقون بجوعهم وجوع أهلهم لأنهم طلبوا الإنصاف فردوا إلى القسوة والجور . وإذا تبينت هذا كله عرفت أن لهؤلاء الناس وعلى وزارتنا ، ووزارة الثروة والرخاء ، ووزارة البهجة والصفاء حقا محتوم الأداء . لهم علينا الحق أن يشبعوا بعد جوع وأن يرتووا بعد ظمأ ، وأن تستقر قلوبهم فى صدورهم وألا يسمعوا أنين النساء لأنهم اختلفوا مع شركة السيارات فأضربوا مع المضربين فطاولتهم الشركة ولم تسعفهم الحكومة ، وكان من الحق على الحكومة أن تسعفهم فترفع عنهم الظلم وتحفظ عليهم كرامة المصريين ، حتى إذا بلغ بهم الجهد ما أعياهم وتجاوز طاقتهم عادوا إلى العمل فتلقتهم الشركة مزدرية لهم ملتوية عليهم . وأخذت تفصل منهم من تفصل وتهمل منهم من تهمل حتى انتهى أمرهم من السوء إلى هذه الحال . وكانت الحكومة أثناء الإضراب تريد أن تحمى منهم الشركة وتحمى منهم العمل . وهذا حق الحكومة وواجب عليها ، ولكنها أسرفت فى الاستمتاع بهذا الحق ، وأسرفت فى أداء هذا الواجب حتى استحالت حماية الشركة إلى تعقب المضربين ، واستحالت حماية العمل إلى إرهاق للعمال . ونظر الناس فإذا الحكومة تقبض على العمال فى كثرة غريبة وتحول بينهم وبين الاجتماع والتشاور فى أمورهم . ونظر الناس فإذا الحكومة تمهل الشركة وتعجل العمال . وإذا الحكومة تظهر للشركة لينا لايشبهه إلا ما كانت تظهر للعمال من شدة ، ونظر الناس فإذا الحكومة لا تأخذ الشركة بتنفيذ العقد الذى كان بينها وبين الدولة حين احتكرت هذا النوع من أنواع العمل . والناس ينظرون الآن فيرون مئات من المصريين جياعا ، لايعرفون كيف يردون الجوع عن أنفسهم وعن أهلهم . أليس من الحق على الحكومة أن تنظر إلى هؤلاء الناس نظرة عطف ورفق وبر وإشفاق ؟ بلى ولكن زعموا لنا أن الشرطة مازالت تتبعهم وتراقبهم ، وأنهم معرضون فى كل لحظة لتلقى الإنذار الذى يتلقاه المتشردون . يجب أن يفكر وزير الداخلية فى هؤلاء الناس وأن يراجع فى أمرهم شركة السيارات . فإذا كان الانجليز يحمون الأجانب فى مصر ومنهم أصحاب هذه الشركة ، فلا يقصرون فى حمايتهم بل يغلون . فقد يكون من الحق على المصريين أن يحموا مواطنيهم ، لا نقول فى غلو وإسراف ، وإنما نقول فى غير تفريط ولا تقصير .

وإذا كان للأجانب من مدير الأمن الأوربى ركن شديد يأوون إليه ، فمن الحق أن يكون للمصريين من وزير الداخلية ركن شديد يأوون إليه .

إن من العار أن يجوع ألف من أهل القاهرة لا لشىء إلا لأن خلافا شجر بين العمال المصريين وبين شركة أجنبية فليفرغ وزير الداخلية لأمر هؤلاء الناس ساعة من نهار ، وليكن فى هذه الساعة صاحب حزم وعزم وإنصاف، ولعله يستطيع .

عــزة

اضحك إن شئت فالأمر يحتمل الضحك ، واحزن إن شئت فالأمر يحتمل الحزن ، ولكن ثق بأنك ستضحك وحدك ، وستحزن وحدك على كل حال ، لأن الأمر الذى سأحدثك عنه قد أصبح لا يعنى أحدا ، أو لا يكاد يعنى أحدا من الناس ، إنما نكتب لنسجل ونحصى ، لا لنصلح ولا لنقوم . فقد أصبح الأمر لا يحتمل إصلاحا ولا تقويما . أتعرف فيم أريد أن أحدثك ؟ أتعرف مم أريد أن تضحك ! أتعرف علام تريد أن تحزن ؟

أريد أن أحدثك عن الجامعة والجامعيين ، وأريد أن تضحك مما صار إليه أمر الجامعة والجامعيين ، وأن تحزن لما انتهت إليه حال الجامعة والجامعيين . فمازال لنا معهد يسمى جامعة ، أنشىء بقانون ونظم بقوانين وصدرت هذه القوانين ، لا نقول منذ أعوام ، ولا منذ أشهر ، بل منذ أسابيع . وكنا نراها ضيقة وكنا نراها مرهقة ، وكنا نراها هادمة لاستقلال الجامعة ، فظهر الآن أنها واسعة مسرفة فى السعة ، وأنها حرة مسرفة فى الحرية ، وأنها مؤيدة لاستقلال الجامعة ، مسرفة فى تأييده ، وأنها لهذا كله أوسع مما ينبغى وأكثر مما يحتمل المصريون . لم تكد تصدر هذه القوانين حتى عهد وزير التقاليد ورئيس الجامعة الأعلى إلى قانونها الأساسى فهدمه هدما ، وأرغم كلية العلوم على عميد لم تنتخبه ، ولكن وزير التقاليد استطاع أن يرغمها على أن تنتخبه فأذعنت وأطاعت وصدعت بالأمر ، وشاركت الوزير فى مخالفة القانون .

ولم تمض على هذه القصة أسابيع حتى كانت النوبة على كلية الآداب ، فهى تكره هى الأخرى على مخالفة القانون الذى لم يصدر إلا منذ أسابيع فتذعن وتطيع وتشارك الوزير فى مخالفة القانون .

زعموا أن فى كلية الآداب كرسيا خاليا منذ أكثر من سنة حين نقل أستاذ من أساتذة الجامعة إلى وزارة المعارف فى قصة يذكرها الناس . وزعموا أن هذا الكرسى ليس هو الكرسى الوحيد الخالى فى كلية الآداب ، ولكن الحكومة حريصة كل الحرص على أن

كوكب الشرق فى ١٠ - ٧ - ١٩٣٣ .

تشغله لأمر ما ، فمن يدرى ؟ لعل الوزارة أن تستقيل ولعل وزارة أخرى أن تخلفها ولا يصح بحال من الأحوال أن يظل هذا الكرسى خاليا حتى يشغل وزارة المعارف وزير غير وزير التقاليد .

وزعموا أن جماعة من الأساتذة المساعدين فى كلية الآداب رشحتهم الكلية لبعض هذه الكراسى الخالية ، ومن بين هؤلاء الأساتذة أستاذ مساعد رشح لهذا الكرسى المعروف . وهذا الأستاد المساعد فيما يقول الناس رجل كفء من غير شك ، يؤمن له بالكفاية والامتياز أهل العلم بالأدب العربى ، لا فى مصر وحدها ، ولا فى الشرق العربى وحده ، ولا فى الشرق الإسلامى وحده ، بل فى بيئات المستشرقين الأوروبيين عامة . وتستطيع أن تسأل عن هذه البيئات فى روما فسيجيبك نالينو ، وليفى دللفيدا ، وتستطيع أن تسأل هذه البيئات فى باريس فسيجيبك ماسنيون ومارسيه وتستطيع أن تسأل عنه هذه البيئات فى لندرة وكمبردج وأكسفورد فسيجيبك نيكلسن وجيب ومرجوليوث . وتستطيع أن تسألها فى المانيا فسيجيبك ليتمن وبرجشستراسر ، سيجيبك هؤلاء جميعا بأن هذا الأستاذ كفء حقا ، ممتاز ، وبأن الكلية قد وفقت كل التوفيق حين رشحته منذ عام لهذا الكرسى .

ولكن مجلس الجامعة لم يرد أن يقضى فى هذا الترشيح وفى ترشيحات أخرى فى العام الماضى لأسباب لعل الوقت لم يؤن بعد لتفصيلها . ثم عادت الكلية هذا العام فرشحت هذا الأستاذ وأصحابه مرة أخرى ، وكانت القوانين الجديدة قد صدرت وقضى مجلس الجامعة هذه المرة فى الترشيحات فكان حنبليا متشددا فى احترام القوانين ، رفض الترشيحات كلها ، لأن المرشحين لا يحملون درجة الدكتوراه ، والقانون يحتم ذلك ويلح فيه وأصبح من الحق على هؤلاء الأساتذة المساعدين أن يكتفوا بمناصبهم أو يظفروا بدرجة الدكتوراه إن كانوا يريدون أن يكونوا أساتذة ذوى كراسى . ولكن شيئا حدث منذ أيام ، فقد استكشف أولو الأمر فى وزارة المعارف والجامعة أن هذا الكرسى لايزال خاليا ، وسألوا الكلية عن هذا فأجابت الكلية بما أجابت ، ومضت أيام قليلة وإذا مجلس الكلية يدعى إلى الاجتماع فيجتمع أمس ويطول اجتماعه ويكون فيه حوار طويل ثقيل وينتهى الاجتماع بأن يرشح استاذا فى إحدى المدارس العليا ، ليس من الذين يحملون درجة الدكتوراه ، ولا لقب دكتور ، وكانت الفكرة أن يرشح هذا الأستاذ لشغل هذا الكرسى فأبى أعضاء الكلية وألحوا فى الإباء ، ولكن الحوار الطويل وتدبر العواقب والتفكير فى المستقبل انتهى بأعضاء المجلس إلى أن يقبلوا ترشيح الأستاذ لمنصب الأستاذ

المساعد وإن كان القانون الذى لم يجف حبره بعد لا يبيح هذا الترشيح لأنه اشترط درجة الدكتوراه فى الذين يرشحون لمنصب المدرس فضلا عن منصب الأستاذ ذى الكرسى .

وسيعرض هذا الترشيح – من غير شك – على مجلس الجامعة رغم الإجازة والصيف ، كما دعى مجلس الكلية رغم الإجازة والصيف وسيحضر اجتماع مجلس الجامعة عدد قليل جدا من الأعضاء كما حضر مجلس الكلية أمس خمسة أو ستة من الأعضاء ، لأن الناس فى هذه الأيام متفرقون . والله يعلم كيف يقضى مجلس الجامعة فى هذا الترشيح الذى اضطرت إليه كلية الآداب إلى أن تخالف فيه القانون ، كما خالفته الكلية أم يرده كما رد ترشيحات أخرى من قبل فيلقى على الكلية درسا فيه قسوة ولكن فيه عدلا ، ويعلم الكلية أن القوانين لا تصدر اليوم لتخالف غدا .

علم هذا كله عند الله ، ولكن الشيء الذى لا شك فيه والذى يضحك من أراد الضحك ، ويحزن من أراد الحزن ، ويجب تسجيله على كل حال هو أن كلية الآداب أريدت على مخالفة القانون فخالفته أيضا . وإذا كانت هذه حال الجامعيين فماذا تريد من عامة الناس ؟

أما وزير التقاليد فإنا نهنئه بسلطانه العريض ، ونتمنى له سفرا سعيدا ، وظفرا بطائفة من الأوسمة ، فهو معز العلم والعلماء ، وحامى الجامعة والجامعيين من غير شك .

ذكـــرى (1)

رئيس الوزراء ووزير المالية يستشفى فى أوربا ويستريح .ووكيل المالية يتروض فى أوربا ويشهد المؤتمر الاقتصادى ، ووزير المعارف يتأهب لرحلة إلى أوربا كرحلة العام الماضى ، فيها راحة بعد أن تعب فى تشييد بناء التعليم . وفيها اجتناء لثمرة هذا التعب من أوسمة وألقاب . وكيل المعارف قد سبقه إلى انجلترا ليستريح وسكرتير المعارف سيذهب إلى لبنان بعد أيام ليستريح . وأحد وكيلى الداخلية سيسافر إلى أوربا ليستريح ، والوكيل الآخر سيعمل فى الاسكندرية وإن كان قرار الوزراء يقضى بأن يبقى وكلاء الوزراء إلى وزاراتهم من حين إلى حين ، ولكن وكيل الداخلية قد تفضل على الدولة بأن يعمل أثناء غيبة صاحبه فلا بد من أن يجمع بين العمل والاصطياف على حساب الدولة ، لأنه هو أيضا فى حاجة إلى أن يستريح . ومدير الأمن العام قد ذهب إلى رودس ليستريح ، ووكيل الأمن العام قد طلب إجازة ، وأذن له فيها وزير الداخلية ليستريح . ومدير المطبوعات سافر إلى قسطنطينية ليستريح . ووكيل المطبوعات قد أذن له هو أيضا فى إجازة ليستريح .

وهؤلاء الوزراء جميعا يصطافون فى الاسكندرية على حساب الدولة ليستريحوا أثناء العمل . وأمر الوزارات الأخرى كأمر هذه الوزارات الثلاث التى أشرنا إليها آنفا إن لم يكن رجالها أشد حاجة إلى الراحة وأعظم حظا من الاجازات . وأمر المصالح كأمر الوزارات ، رؤساؤها ووكلاؤها وموظفوها فى حاجة إلى الراحة ولهم الحق كل الحق أن يطلبوا الإجازات وعلى الحكومة أن تستجيب لهم وتمتعهم من هذه الإجازات بما يريدون . وللحكومة إن شاءت وكانت ظريفة خفيفة الروح ، حريصة على أن تصطنع المجاملة وحسن المعاملة أن تنتهز فرصة هذه الإجازات لتكلف بعض الموظفين الأكفاء القيام ببعض المهمات فى أقطار أوربا ، وتدفع بإزاء هذا التكليف نفقات السفر والإقامة أو نفقات السفر دون الإقامة أو ماشئت من مقدار ضخم أو نحيف يعين على السفر والإقامة .

---

(1) كوكب الشرق فى ١١ - ٧ - ١٩٣٣ .

وخلاصة هذا كله وما يشبهه مما نعلمه ونسكت عنه ، ونجهله ولا نشير إليه أن فى مصر ظاهرتين خليقتين بالتفكير والتقدير ، خليقتين بأن يكثر فيهما الحديث ، وتذاع فيهما دعوة لمصر لا تشبهها دعوة ، وإعلان عن مصر لا يقاربه إعلان . فأما الظاهرة الأولى فهى أن أمور مصر مستقرة كأحسن ما تستقر الأمور فى حكومة ، وتدبر أمورها بغير مدير ، ونسير أعمالها بغير مسير . فهى إذن نتصور المثل الأعلى للبلاد التى تتخذ الحكومة زينة وترفا وفضلا عن لهو الحياة حتى لا يقال إنها دون غيرها من البلاد .

وآية ذلك أن هذا العدد الضخم من الوزراء والوكلاء ومن الرؤساء والمديرين ، ومن أعمدة الدولة وأساطينها قد سافر أو قد يسافر ، واستراح أو قد يستريح واصطاف أو قد يصطاف ، وأن الإدارات والمصالح لاتزال فى طريقها إلى أمام تسير سيرا مستقيما ، لا عوج فيه . فلو قد كانت مصر بلدا مضطربا أو كالمضطرب ، ولو قد كانت مصر فى حاجة ملحة وضرورة ماسة إلى هؤلاء العمد والأساطين لما استطاعوا أن يستريحوا ولا أن يطلبوا الراحة أو يفكروا فيها . وأنا زعيم لك بأنك لن تجد فى أى بلد من بلاد الأرض عددا كهذا العدد الضخم من الموظفين يستريح أو يتهيأ للراحة ويسافر أو يتأهب للسفر . وأنا أعلم أن بعض المكرة الذين لا يعجبهم العجب ولا الصوم فى رجب سيقولون . وما يدريك ؟ لعل أمور الدولة تضطرب أشد الاضطراب وتفسد أعظم الفساد لتخلى هؤلاء السادة عن مناصبهم أوقاتا طوالا أو قصارا ، ولكن أحدا لا يحفل بذلك ولا أن يلتفت إليه ، والناس يعلمون ذلك ولا يشعرون به . سيقول فريق من الناس هذا أو شيئا يشبهه ولكنهم مسرفون فلا ينبغى أن تسمع لهم ، ولا أن تقف عندما يقولون ، لأن وزراءنا ووكلاءنا ورؤساءنا أحرص على مصالح الدولة وأرفق بمنافع الناس من أن يتورطوا فى هذا العبث أو أن يهملوا حياتنا العامة هذا الإهمال . ولهم ضمائر حية وقلوب ذكية ، وحرص على الأمانة شديد . فلولا أنهم يعلمون حق العلم أن سفينة الدولة تستطيع أن تجرى هادئة مطمئنة من دونهم لما تركوها ولما أذنوا لأنفسهم بهذه الراحة التى هم فى حاجة إليها من غير شك .

هذه إحدى الظاهرتين . فأما الظاهرة الثانية فهى أن مصر غنية مثرية توشك أن تصيبها التخمة لكثرة ما عندها من الغنى والثراء . وآية ذلك أنها تحتمل كل هذه الإجازات وتأجر كل هؤلاء الموظفين الذين تستطيع أن تستغنى عنهم أشهر الصيف ، وتنفق على جماعة منهم يصطافون فى الاسكندرية وعلى جماعة آخرين يتنزهون فى أوربا . فلو كانت فقيرة أو متوسطة الحال كانجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا لاقتصدت فى ذلك

بعض الاقتصاد فاستغنت عن بعض هؤلاء الموظفين الذين لا تحتاج إليهم فى الصيف لأنها من غير شك لا تحتاج إليهم فى الشتاء ، ولأبت على بعضهم الآخر أن يصطافوا على حسابها ، لأنها هى لا تصطاف . ولأبت على فريق آخر أن يستمتع بحياة أوربا على حسابها لأنها لا تستمتع إلا بالبؤس والشقاء . وفى هذا القيظ الذى يميط النفوس ويصهر الجلود ، ولكن مصر غنية مثرية فلها أن تنفق عن سعة وتبدد فى غير حساب ، وتمتع أغنياءها على حساب فقرائها وسادتها على حساب سوقتها . ومصر حرة تستطيع أن تصنع فى أموالها ما تشاء ، تستطيع أن تلقيها من النوافذ وترسلها مع الريح ، وليس لأحد أن يسألها فى ذلك ولا أن يحاسبها عليه . وقد شاءت فهى تنفق باليمين وبالشمال ، وهى تمتع الوزراء وأشباه الوزراء بألوان النعيم . فمن أعجبه هذا فذاك ومن لم يعجبه هذا فليشرب ماء النيل إذا لم تسمح له الظروف بأن يشرب ماء البحر .

فأنت توافقني على أن من مصلحة مصر أن يكثر الحديث فى أمر هاتين الظاهرتين ليعلم الناس جميعا أنا سعداء ، وليعلم الناس جميعا أنا قوم لا نعرف البؤس ولا الفقر ، ولا الشقاء ، وليعلم الناس جميعا أنا قوم لا يجد الخوف إلى نفوسنا سبيلا ، وليس بين قلوبنا وبين الإشفاق من غد أو الاستعداد لغد سبب ما . ومالنا وللتفكير فى غد وأمورنا ميسرة والحمد لله ، وسادتنا أعلم منا بمنافعنا وأقدر منا على حمايتنا من النوائب والأحداث . وهم راضون فيجب أن نرضى ، وهم مطمئنون فيجب أن نطمئن وهم مبتسمون فيجب أن لا يفارق ثغورنا الابتسام .

وتسألنى عن هاتين الظاهرتين : ما مصدرهما ؟ ولم امتازت مصر من بلاد الله جميعا فسعدت والعالم شقى ، وأثرت والعالم فقير ؟ واطمأنت والعالم مضطرب ؟ وابتهجت والعالم محزون ؟

والجواب على هذا السؤال يسير ، لا يحتاج إلى مراجعة التاريخ ولا إلى استشارة الاقتصاد ، وإنما يحتاج إلى شيء واحد هو أن نذكر اليوم الذى نحن فيه ، فهو اليوم الذى أغار الانجليز فيه على مدينة الاسكندرية ودخل الانجليز من بعده فى مصر .

هذا اليوم الذى مضى عليه نصف قرن أو أكثر من ذلك قليلا هو مصدر سعادتنا التى نمتاز بها الآن من بلاد الأرض كلها . كنا بائسين فذقنا الغنى منذ ذلك اليوم . وكانت أمورنا كلها إلى غيرنا فأصبحت أمورنا كلها إلينا ، منذ ذلك اليوم . ولم يكن لنا وزراء ولا وكلاء ولا موظفون يستطيعون أن يستريحوا ويسرفوا فى الراحة ، أو يصطافوا على

حسابنا أو يتنزهوا فى أوربا على حسابنا لأننا فى تلك الأيام لم يكن لنا حساب . أما منذ الاحتلال فقد غنينا وأثرينا واكتظت المصارف بأموالنا ، فمن حقنا أن ننفق منها فى غير تقدير كما نشاء وعلى من نشاء .

ألست ترى معى أن الحكومة موفقة كل التوفيق إلى الصواب حين تأبى على الناس أن يحتجوا على ضرب الاسكندرية أو يحزنوا لذكرى الاحتلال . إنما تنشأ الحكومات بين الناس لتعلمهم الوفاء والاعتراف بالجميل ولتزجرهم عن العقوق وكفر النعمة . والمصريون فى هذه الأيام عاقون جاحدون ، ينكرون فضل الانجليز عليهم ، ويحزنون لمقام الانجليز فيهم ، فيجب أن تؤدبهم الحكومة فتحسن تأديبهم ، وتأخذهم بأن يصطنعوا شيئا من الحياء فيكتموا عقوقهم إذا لم يكن بد من العقوق ويضمروا جحودهم إذا لم يكن بد من الجحود ، ويحزنوا فيما بينهم وبين أنفسهم إذا لم يكن بد من الحزن . فليس يليق بمصر أن يقول الناس عنها إنها حزينة كئيبة فى هذا اليوم الذى كان يجب أن تظهر فيه الفرح والمرح والابتهاج .

أما أنا فقد أردت أن أكون كغيرى من الكتاب الذين كتبوا فى ذكرى هذا اليوم فوعظوا وأحسنوا العظة ، وصوروا وأجادوا التصوير ، ولكنى لم أجد عظة أبلغ ولا عبرة أوقع فى النفوس ولا تصويرا أدق لآثار الاحتلال فى نفوس المصريين وقلوبهم فى حياتهم العامة والخاصة ، وفى منافعهم ومرافقهم وفى عزتهم وكرامتهم وفى آمالهم ومثلهم العليا من هذه الصورة التى نحن فيها الآن فى ظل هذا العهد السعيد . فهذا العهد السعيد أثر من آثار الاحتلال وصورة من أصدق صوره ، ومرآة تمثله كما هو بما فيه مما نحب ومالا نحب ، ومما نرضى ومالا نرضى . فمن كان يعجبه هذا العهد فليعجبه الاحتلال ويتمنى بقاءه . ومن كان يؤذيه هذا العهد فى نفسه وكرامته وعزته ومنافعه فليؤذه الاحتلال ، ويتمنى على الله أن يجلو غمرته ، ويزيل كربته ، وليعمل ما استطاع ليخلص من أذاه المتصل وشره المقيم .

تحـــريض

ولكنه[1] لا يثير أحدا ، ولن يهيج أحدا ، ولن يغيظ أحدا ، لأن سره واضح والكيد فيه ظاهر ، والمكر فيه أوضح من أن يخفى على الناس .

فأنت قد قرأت – من غير شك – هذه الرسالة التى أبرق بها مكاتب التيمس إلى صحيفته ونشرتها الصحف مساء السبت . وأنت قد رأيت فيها – من غير شك هذه الجملة المريبة التى ختم بها مراسل التيمس حديثه عن موقف المصريين من التبشير والمبشرين . وأنت قد فهمت – من غير شك – أن مكاتب التيمس ليس راضيا ولا مسرورا لأن أمر المبشرين لم ينتج النتيجة التى يتمناها المستعمرون ، ولم ينته إلى الغاية التى يريدون أن ينتهى إليها وهى الفتنة المظلمة القاتمة التى يختلط فيها كل شىء ، ويفسد فيها كل شىء وتفترق فيها الآثام ، وتجترح فيها الجنايات ، ويكون فيها الاعتداء على الأنفس والأموال ، وتكون فيها الفرقة بين المسلمين وغير المسلمين ، ويضطرب فيها النظام إلى أقصى غايات الاضطراب ، ويلجأ فيها الأجانب إلى دار المندوب السامى مستغيثين ومستجيرين ، فتسرع إليهم بالغوث ، وتمد لهم فى الجوار وتعلن إلى مصر وإلى غير مصر أنها مضطرة إلى العمل لحماية الأنفس والأموال ، وصيانة الأمن والنظام ، بعد أن عجزت الحكومة عن أن تحمى الأنفس والأموال ، وتصون الأمن والنظام .

هذا هو الذى يتمناه المستعمرون ، ويودون لو ظفروا به ، ووفقوا إليه ، ومن يدرى ؟ لعلهم يضيقون بهدوء مصر ، ولايكفيهم أن تضطرب فيها النفوس ، وإنما يريدون هذا الاضطراب البغيض الذى يمكن من انتهاز الفرص والصيد فى الماء العكر كما يقولون . ومن المرجح أن مكاتب التيمس لايرضيه أن يرى مصر – كما هى الآن – ساخطة أشد السخط ، ولكن فى هدوء يحرج ويغيظ ، فهو أشبه بهذه السيدة الجميلة الفاتنة التى لايعجبها هدوء البحر واستقراره فتتمنى على ربان السفينة لوثارت عاصفة أوهاج البحر بعض الهياج لتضطرب السفينة شيئا من الاضطراب .

(١) كوكب الشرق فى ١٧ – ٧ – ١٩٣٣ .

مكاتب التيمس يسجل أن الحكومة اضطرت إلى أن تتخذ احتياطات شديدة لتخفف السخط على المبشرين وتهدىء إنكار الناس لما يقترفون من إثم ، ومايسرفون فيه من عدوان . وكم كنا نحب لو أن الحكومة اتخذت من الإجراء مايهدىء سخط الناس حقا ، واضطرت مكاتب التيمس إلى أن يسجل شيئا غير الذى سجله ، إلى أن يسجل مثلا أنها أغلقت بعض معاهد التبشير(١) لتكف عدوانهم فيهدأ الناس ، ولتمحو آثامهم فيرضى الناس ويسجل مثلا أنها انتفعت بالإذن الذى أصدره وزير الخارجية البريطانية إلى المندوب السامى فى أن يتحدث إلى الحكومة فى تنظيم المراقبة التى تفرض على المبشرين ، فأسرعت فى هذا الحديث وفرغت منه وهيأت مشروع قانون يمكنها من هذه المراقبة ، وجدّت في إصدار هذا القانون كما تجدّ فى غيره من الأعمال التى لاتدعو إليها حاجة قاسية ولاتفرضها ضرورة ملحة . ويسجل مثلا أن الحكومة قد فهمت واجبها على وجهه ، ونهضت بهذا الواجب كما ينبغى أن تنهض به الحكومة الرشيدة التى تعرف حرمة الدولة وتريد أن ترعاها ، والتى تقدر كرامة الدولة وتريد أن تحفظها ، فرأت أن مراقبة التبشير والمبشرين لاتكفى لإرضاء المصريين ورعاية حرماتهم والمحافظة على كرامتهم . وإنما السبيل فى ذلك أن يمنع التبشير فى مصر منعا ، وأن يحظر على الأجانب مهما يكونوا أن يدخلوا بين الناس وبين عقائدهم ودياناتهم فهيأت مشروع قانون تمنع به التبشير وتحرمه تحريما . ويسجل مثلا أن الحكومة المصرية فهمت آخر الأمر أن التبشير إنما يقبل فى بلاد الهمج والمتوحشين ، لافى بلاد الحضارة الراسخة والمدنية الراقية ، وأن مصر عرفت المسيحية قبل أن تعرفها أوربا وأمريكا ، وحمت المسيحية قبل أن تحميها أوربا وأمريكا ، وقام فيها للمسيحية مجد قديم ليس أقل خطرا من المجد الذى قام لها فى أوربا وأمريكا . فلا ينبغى أن يغير قوم من الآفاقين وطلاب الرزق على مصر باسم المسيحية التى نشأت فيها ووجدت فيها العز والأمن والمجد . وفهمت ولو بعد طول الوقت وكثرة الانتظار أن الإسلام دين خير وبر ، ودين مودة ومعروف ، ودين حضارة ورق . وقد أنقذ العالم وقتا ما من طغيان الطغاة وبغى البغاة ، وظلم الظالمين ، ورفع لواء العلم والحضارة ظافرا

---

(١) حدث فى تركيا أن المبشرين نصروا بعض الفتيات المسلمات ، فما كان من الحكومة إلا أن استولت على بعض المدارس التى وقعت فيها مثل تلك الحوادث ، وطردت أصحابها والمشرفين عليها إلى خارج البلاد . ثم أهابت بالشعب أن يقاطع المدارس الأجنبية فلبى النداء وبذلك أغلقت تلك المدارس أبوابها ورحل عنها أصحابها ، وكان المصريون يريدون أن تحذو حكومتهم حذو الحكومة التركية ، ولكن وجود الامتيازات كان حائلا . فظلت المدارس الأجنية على وضعها وازداد إقبال المسلمين عليها . حقا إنها تخلت عن مهمتها التبشيرية وقبلت أن يدرس الدين الإسلامى للتلاميذ المسلمين ، وخضعت لرقابة الحكومة .

مؤيدا ، وهو اليوم كما كان أمس قادر على أن ينقذ أهله وغير أهله من الظلم والبغى والطغيان ، وهو اليوم - كما كان بالأمس قادر على أن يظل العلم ويحميه ، وعلى أن يظل الحضارة ويرعاها . ومايبنغى لبلد تعيش فيه المسيحية والإسلام فى مودة وصفاء أن يفسد أمره الأجنبى متعصبا لدين على دين ، معتديا باسم دين على دين ، مفسدا لما بين الدينين من المودة وحسن الجوار ، باعثا لهذه العواطف المنكرة ، عواطف التعصب والحقد والبغض باسم العقيدة والدين .

كنا نحب أن يسجل مكاتب التيمس أن حكومتنا قد فهمت هذا كله فتحدثت إلى المندوب السامى وإلى غيره من الوزراء المفوضين فى تحريم التبشير ، واجتثاث أصله من هذا البلد ، وكنا نحب أن يسجل مكاتب التيمس أن الحكومة المصرية الإسلامية قد فهمت آخر الأمر أن الإسلام لايبيح هذا النوع من التبشير فى السر مرة وفى الجهر مرة أخرى وإنه لايقبل من غير المسلم دينا إن مال إليه أو رغب فيه بنص القرآن الكريم ، فتحدثت إلى الدول فى أن دستورها يجعل الإسلام دين الدولة ، وفى أنها لاتستطيع أن تؤمن ببعض الكتاب وتكفر ببعض ، فهى مضطرة إلى أن تقطع أسباب الردة ، وتلغى البواعث والمغريات التى يدفع إليها الجهال والضعفاء ، وتغرى بها الفقراء والبائسين . كنا نود لو سجل مكاتب التيمس هذا كله ولكنه لم يستطع أن يسجله لأن حكومتنا لم تستطع أن تفكر فيه ، ولا أن تهم به ! ولأن علماء الإسلام فى مصر لم يستطيعوا - مع الأسف - أن يجهروا به ، أو يدعوا إليه ، إنما استطاع مكاتب التيمس أن يسجل ماعملته الحكومة ، والحكومة لم تعمل إلى الآن إلا أنها أعلنت عن نفسها ، وألحت فى الإعلان ، ثم جدت فى منع الناس من الاجتماع بحجة أن اجتماعهم يفسد النظام ويعرض الأمن للخطر فهذه هى الاحتياطات الشديدة التى اتخذتها الحكومة لحماية المبشرين . وكم كنا نود لو يسجل مكاتب التيمس معها الاحتياطات الشديدة التى اتخذتها لحماية المصريين على اختلاف دياناتهم من الأجانب المبشرين ! كم كنا نود لو يسجل مكاتب التيمس أن حكومتنا وقفت موقف الحياد الدقيق الحازم !! فكفت كلا عن كل ، وصدت كل معتد عن العدوان ، وكل باغ عن البغى ! ولكن حكومتنا - والحمد لله على الخير والشر - لم تتح لمكاتب التيمس أن يسجل هذا ، لأن حكومتنا - والحمد لله على الخير والشر - لاتعرف الشدة إلا على المصريين ، ولاتعرف اللين إلا للأجانب .

ومن المحقور أن مكاتب التيمس راض عن شدة الحكومة على المصريين ولكنه ساخط على هدوء مصر وضبطها لنفسها وإيثارها للعافية واجتنابها للفتنة . انظر إليه إنه ليعلن فى

استحياء عن خيبة الأمل لأن غير الوفديين لايستطيعون أن يثيروا العامة وأن يضطروا الحكومة حقا ، ويضطروها إلى استعمال العنف والشدة ، متحفظ لايدعو إلى الفتنة ولايحض عليها . ومكاتب التيمس لايرضيه من الوفد إلا أن يشب نار الفتنة ويضرمها ويحرق بها كل شيء ، فهو يحرض الوفد على ذلك ، وهو يغرى الوفد بذلك ، وهو يزعم ليصل إلى هذا التحريض والإغراء أن الوفد إنما يتحفظ ويجتنب الفتنة رعاية للذين يؤيدونه من الأقباط !

تبارك الله الذى منح مكاتب التيمس من الذكاء والفطنة ماطوع له أن يكتب هذا الكلام ، ولم لا ؟ أليس هذا الكلام خليقا أن يثير الوفد ، ويدعوه إلى أن يجدّ فى أن يدفع عن نفسه تهمة الانحياز للأقباط والتقصير فى الذود عن الإسلام ، ويومئذ تثور الفتنة وتضطرم نارها ويظفر مكاتب التيمس بما يريد من الاضطراب ، ولكن الله الذى منح مكاتب التيمس هذا الذكاء النادر ، وهذه الفطنة البارعة منح الوفد قليلا من الذكاء ، وقليلا من الفطنة ، وهداه إلى أن الفتنة شيء ينفع الانجليز ولاينفع المصريين ، وإلى أن الفتنة مفسدة للنهضة المصرية ، وإلى أن الفتنة شيء لايرضاه الإسلام ، ولاترضاه المسيحية ، وإلى أن إثارة الفتنة جناية على مصر ، وإثم فى حق مصر ، فهو لن يستجيب لدعوة مكاتب التيمس ، ولن يحقق أمنيته وأمنية أصحابه المستعمرين ولن يخرج عن موقفه الذى وقفه منذ الساعة الأولى ، وهو إنكار التبشير ، لا بالقياس إلى المسلمين وحدهم ، بل بالقياس إلى المصريين جميعا ، لا بالقياس إلى القصر والضعفاء وحدهم ، بل بالقياس إلى الراشدين والأقوياء . وهو لايخرج عن موقفه الذى وقفه منذ الساعة فلا يكتفى منها بإنشاء الملاجىء والمدارس ، وإنما يقدم على هذا كله ، ويريد قبل هذا كله أن تجد الحكومة فى إصدار القوانين التى تمكن الدولة من مراقبة التعليم الأجنبى كله ، والتى تحرم التبشير فى مصر تحريما . والوفد لايخرج عن موقفه الذى وقفه منذ الساعة الأولى والذى أعلن فيه بلسان صحفه وفى صراحة لاتحتمل شكا ولاريبا أن التبشير فى بلد كمصر جناية على الحضارة ، جناية على الإنسانية الراقية . فلا ينبغى للحكومة المصرية أن تقره أو تسكت عنه.

قال الوفد ذلك منذ الساعة الأولى ، وهو يقول ذلك الآن ، وسيقوله غدا ، وعلى الحكومة أن تسمع وعلى الحكومة أن تنهض بالواجب بعد أن تبين لها . وما كان الوفد وإن كره مكاتب التيمس وكره معه المستعمرون أن يضطر الحكومة إلى ذلك بالفتنة ، فليس الوفد من الفتنة والثورة فى شيء .

ونحن نعلم أن هدوء الوفد يغيظ قوما ، ولكن مارأى هؤلاء السادة فى أننا سنحرص على هذا الهدوء الحازم . وفى أننا لسنا مكلفين أن نرفع عنهم آلام الغيظ .

نبـــوغ

تستطيع أن تدرس عقليات الأفراد والجماعات وتفكير الشعوب والحكومات فلن ترى عقلية كهذه العقلية البديعة الفذة الرائعة التى تظهر فى بعض ماتتخذه وزارتنا من القرارات ، ولن ترى تفكيرا فذا نادرا غريبا فى كل شيء كهذا التفكير الذى تراه فى بعض ماتقدم عليه وزارتنا من الأمر . ومصدر ذلك فيما يظهر أن مصر نبغت قبل الأوان ووصلت إلى ماوصلت إليه من الرقى من طريق الطفرة أو من طريق المصادفة أو من طريق تستطيع أن تسميها كما شئت ولكنها ليست هى الطريق التى سلكتها البلاد الأخرى لتصل إلى ماوصلت إليه من السؤدد والمجد ، ومن العظمة وبعد الصوت وإلا ففسر لى إن استطعت هذه المذكرة التى يقال إنها رفعت إلى مجلس الوزراء لتقوية سلاح الطيران فى مصر ، ولفتح اعتماد كما يقولون بمبلغ من المال يكاد يصل إلى ستين الفا من الجنيهات يؤخذ من الاحتياطى العام ، وفى غيبة البرلمان لتشترى به طائفة من الطيارات تقوى سلاح الطيران المصرى ، وتجعله ملائما لا لحاجة مصر ، ولا لمنافعها ولكن لمكانها بين البلاد الراقية .

كان البرلمان منعقدا إلى أمد قريب فلم يخطر للوزارة أن تقترح عليه منح هذا الاعتماد . وكان البرلمان ينظر فى الميزانية إلى أمد قريب فلم يخطر للوزارة أن ترصد هذا المبلغ فى ميزانية الحربية حتى إذا فرغ البرلمان من نظر الميزانية وأقرها كما أذن الله له أن يقرها ، وحتى إذا انتهت الدورة البرلمانية وأذن الله للشيوخ والنواب أن يتفرقوا ليصطافوا ويستريحوا خطر للوزارة أنها نسيت سلاح الطيران وتقوية سلاح الطيران وجعله ملائما لمكانة مصر ، لائقا بحظها العظيم من ارتفاع الذكر وعلو القدر ، وجلال الخطر ، وكيف ترضى مصر بسلاحها الجوى وهو لايكاد يذكر بالقياس إلى سلاح العراق ، فضلا عن غير العراق من الدول الأوربية الصغرى ، فضلا عن الدول الأوربية الكبرى .

ومادامت فى مصر جامعة ، ومادامت فيها جمعية جغرافية ، وأخرى للحشرات وثالثة

كوكب الشرق فى ١٨ - ٧ - ١٩٣٣

للاقتصاد والإحصاء ورابعة للطب ، وخامسة للهندسة ، وسادسة للأحياء المائية ، ومادام فيها مجمع لغوى ، نستغفر الله ، بل مرسوم بإنشاء مجمع لغوى ، ومادام فيها شرطة ومادام لها جيش يمشى على الأرض وسفن تخفر الساحل وتجرى فى البحر ، فيجب أن يكون لها طيارات تطير فى الجو وتصعد فى السماء وتنتقل بين القاهرة والاسكندرية وتبعد أحيانا حتى تصل إلى مرسى مطروح .

ليست الغرابة فى أن يكون لمصر سرب أو أسراب من الطيارات مادام فى مصر الترام والسيارات ومادام فى مصر السفن والقطارات فالطيارة مظهر من مظاهر الحضارة وآية من آيات العظمة ، ويجب أن تجتمع لمصر مظاهر الحضارة وآيات العظمة كلها ، ويجب أن تثبت مصر لأى بلد من بلاد الأرض فى ميدان التكاثر والتفاخر ، والدعاية والإعلان .

إنما الغريب أن تنسى الوزارة سلاح الطيران هذا ، ومايجب لتقويته من الأهبة ، ومايحتاج إليه من المال ، وألا تذكر ذلك إلا بعد أن تصدر الميزانية ويتفرق البرلمان . وأعجب من هذا كله وأبلغ فى الغرابة أن تكون العلة لتقوية سلاح الطيران فى مصر أن مؤتمرا للطيران سينعقد عندنا فى العام المقبل وستمثل فيه دول لها أسراب من الطيارات . لها طيارات الحرب وطيارات السلم ، ولها طيارات البر وطيارات البحر حتى إذا اجتمع هذا المؤتمر فى القاهرة نظر فلم يجد سلاح الطيران فى مصر يبلغ أصابع اليد الواحدة عددا . إذن تفتضح مصر ، ويضحك منها المؤتمرون ، وإذن تشيع عن مصر قالة السوء ، وتصبح مصر حديث المتحدثين ولهو اللاهين .

وما ينبغى لمصر أن تكون موضوع السخرية واللهو ، وفيها وزارة ولها برلمان ، وإليهاتدعى المؤتمرات فتسرع وتستقبل أحسن استقبال . وإذن فما دام مؤتمر الطيران سيعقد فى القاهرة فيجب أن تشترى الوزارة طيارات لهذا المؤتمر ، ولا تقل إن الأصل أن ينعقد المؤتمر فى القاهرة لأن فى القاهرة طيارات ، فذلك تفكير مثلك ومثلى من الذين لا يحسنون المنطق ولايعرفون أصول التفكير . وذلك تفكير الشعوب الأوربية والامريكية التى سلكت إلى الرقى والعظمة طريقهما القديمة المعروفة التى تلائم المنطق القديم والتفكير العتيق ، والتى طال عليها الزمن حتى بليت وأصبحت من أحاديث الشيوخ . فأما الشعوب التى نهضت فجأة وارتفعت من طريق الطفرة ونبغت نبوغا غير مألوف فلها تفكير آخر ومنطق آخر . فهى تدعو مؤتمر الموسيقى لينشىء لها الموسيقى ، وهى تدعو مؤتمر الطيران ثم تشترى له الطيارات . ولاتقل إن مصر تشقى فى هذا العهد السعيد بأزمة مهلكة مدمرة ، وأن مؤتمر الطيران هذا سيكلفها الألوف وأن ماستشتريه

من الطيارات سيكلفها عشرات الألوف ، وإنها كانت تستطيع أن تقتصد هذه الألوف فتحتفظ بها لساعات الضيق والضنك أو تنفقها على المأزومين والمكلومين ، وعلى المحرومين والمكروبين . لاتقل عن هذا فهو كلام مثلك ومثلى من الذين لايحسنون المنطق ولايتقنون التفكير ، وهو كلام الشعوب الأوربية والأمريكية التى تفكر على النحو القديم ، وتقدر على النحو القديم ، ولاتستطيع مجاراة العصر الحديث فيما ابتكروا من أساليب القول والعمل ، ومن مناهج التفكير والتقدير . فأما الشعوب الناهضة حقا ، النابغة حقا ، التى يصطاف وزراؤها فى الإسكندرية ليعملوا فى راحة ونعيم ، ويستشفى رئيس وزرائها فى أوربا شهرا ليستقيل بعد أن يأخذ بحظ من الشفاء . هذه الشعوب لاتفكر على هذا النحو ، ولاتعمل على هذا النحو ، وإنما تنفق حين يجب الاقتصاد ، وحيث يجب الاقتصاد ، وتقتصد حين يجب الإنفاق وحيث يجب الإنفاق .

ولاتقل إنما يقوى سلاح الطيران ويعرض على المؤتمر حين يكون الذين يديرونه ويسيرونه ويعرضونه على المؤتمرين من المصريين ، لا من الانجليز ، وإن المؤتمر سيضحك من مصر أو سيبتسم من مصر ليضحك منها بعد أن يعود حين يرى طيارات اشتريت من الخارج يديرها قوم دعوا من الخارج ويسيرها قوم دعوا من الخارج ، ولا ينهض المصريون فيها بعمل يذكر .

لاتقل هذا فهذا كلام مثلى ومثلك من الذين لايحسنون المنطق ولايتقنون التفكير . وهذا كلام الأوربيين والأمريكيين الذين لم يرتقوا فجأة ولم ينبغوا مصادفة ، وإنما سلكوا إلى الرقى والنبوغ طريقهما المعروفة العتيقة .

فأما الشعوب الناهضة حقا ، النابغة حقا فليس يعنيها أن تصنع طياراتها فى مصانعها ، ولا أن يدير أبناؤها هذه الطيارات ويسيروها ، وإنما الذى يعنيها أن تكون لها طيارات تطير ، وقد كتب عليها اسم مصر . ومادام عندها المال الذى تشترى به الطيارات فلا ينبغى لها أن تتكلف صنع الطيارات . ومادام عندها المال الذى تؤجر به الطيارين من الأجانب فليس ينبغى أن تنتظر حتى تهيىء الطيارين من أبنائها .

ولاتقل قد كان ينبغى أن تلتمس لتقوية سلاح الطيران علة غير هذه العلة التى نشرتها الصحف فمصر فى حاجة إلى سلاح الطيران يحميها من جيرانها فى الشرق ، ويحميها من جيرانها فى الغرب ، ويحميها من شر قد يأتيها من الشمال أو خطر قد يدهمها من الجنوب ، فذلك شيء لايقال ولو قالته الحكومة لأغرت الإيطاليين فى طرابلس ،

والانجليز فى فلسطين وفى السودان ، ودول البحر الأبيض المتوسط بشراء الطيارات واتخاذ أسلحة للطيران تعدل هذا السلاح المصرى أو تربو عليه . ومصر – كما تعلم – تريد ويجب عليها أن تريد، ولابد لها من أن تريد التفوق على جيرانها فى هذا السلاح الجوى الخطير .

ولاتقل ان هناك علة أخرى خير من هذه العلة التى نشرتها الصحف كان ينبغى أن تذكر لتقوية سلاح الطيرن . فمصر فى حاجة إلى هذا السلاح القوى لتقمع به حركات الوفد حين يتحرك ومظاهرات الشعب حين يحتشد . ولتضطر به الوفد إلى السكون ان هم بالحركة والشعب إلى التفرق إن أراد الاحتشاد بعد أن ظهر أن بلاء الجيش والشرطة فى ذلك أقل مما ينبغى .

لاتقل هذا ، فهذا كلام لايقال . ومن يدرى ؟ لعل الوزارة إن قالته أن تغرى الوفد بأن يتخذ من الوسائل والأسباب مايمكنه من أن يتحرك فى الجو ، وتغرى الشعب بأن يحتشد فى السماء . ومن يدرى ؟ لعل الوفد أن يشترى طيارات تقاوم طيارات الدولة ، وترد بلاءها إلى ما انتهى إليه بلاء الجيش و بلاء الشرطة .

صدقنى ليس فى الإمكان أبدع مما كان . ولم تكن الوزارة تستطيع إلا أن تنسى سلاح الطيران أثناء اجتماع البرلمان ، فلو قد ذكرته لناقش النواب ولناقش الشيوخ ولانكشفت الأسرار وبانت الخفايا ، وظهرت للدول الأجنبية من أمر الدفاع الوطنى على ماينبغى أن تجهل ، وعرف الوفد من هذا السلاح الذى يهيأ له مالاينبغى أن يعرف .

لم يكن بد من أن تنسى الحكومة هذا السلاح حين يخلو الجو من النواب والشيوخ وحتى تستطيع أن تفتح الاعتماد فى غير مناقشة ولاجدال ، وتشترى الطيارات فى غير قيل ولاقال ، وتتأهب للمؤتمر حتى إذا انعقد نظر فى الجو فرأى طيارات تطير والحكومة فى الوقت نفسه تتأهب لجيرانها إن أرادوا لها كيدا ، أودبروا لها شرا . وهى فى الوقت نفسه تتأهب للوفد إن تحرك وللشعب إن احتشد ، فهى تحقق الأغراض كلها من أيسر الطرق ، وأى شىء أيسر من أن تقتطع عشرات الآلاف من هذه الملايين التى يسمونها الاحتياطى ، ومن أن تشترى الطيارات فإذا الجيران أمام الأمر الواقع ، وإذا الوفد والشعب أمام الحقائق الثابتة وإذا المؤتمر ينظر فلا يرى جونا خاليا من هذه الأجنحة التى ترتفع فى السماء فترفع مجد مصر ، لا أقول إلى السحاب ، بل إلى النجوم . ثم يزعم الناس أن الذكاء المصرى محدود ، قصير الخطى ، ضعيف الجناح كلا ، ليس للذكاء المصرى حد ، وليس للنبوغ المصرى غاية . فمن أنكر ذلك أو جادل فيه فليبين لنا أين

توجد وزارة كوزارتنا تفكر كما تفكر ، وتقدم كما تقدر ، وتصيب بحجر واحد عصافير لايبلغها الإحصاء .

تبارك الله فهو وحده القادر على أن يكشف سر النبوغ

أمـــن

أما الأمن(١) فمطمئن فى مصر أشد مايكون الأمن اطمئنانا فى بلد من البلاد ! وأما النظام فمستقر فى مصر أحسن مايكون النظام استقرارا فى قطر من الأقطار . وليس أدل على اطمئنان الأمن واستقرار النظام من أن رئيس الوزراء يصطاف ويستشفى فى أوربا ، ومن أن مدير الأمن العام كان يستريح فى رودس وقد عاد ليستطيع وكيل الأمن العام أن يستريح ، لاأدرى فى أى جزيرة من الجزر ، أو فى أى إقليم من الأقاليم السبعة كما كان يقول الجغرافيون القدماء ، ومن أن وكيلا من وكيلى الداخلية قد سافر ليستريح كما يصطاف وزير الداخلية ويعمل ويستريح .

ولو قد كانت فى مصر آية ولو يسيرة تدل على فساد الأمن واضطراب النظام لا ستقر هؤلاء السادة فى مدينة القاهرة ليشرفوا من كثب على كل شيء ، ويدبروا من كثب كل شيء . وماداموا قد تفرقوا على هذا النحو ، وذهبوا فى الأرض هذه المذاهب المختلفة فمصر بخير والحمد لله ، لاخطر فيها على الأمن ولا على النظام .

وهناك أخبار تذاع وأنباء تشارع ، والوزارة عنها صامتة ساكتة ، ولاتقول ولاتهم بأن تقول . وأكبر الظن أنها تزدرى هذه الأخبار وتحتقر هذه الأنباء ، ولاتعنى حتى بتكذيبها أو نفيها ، فضلا عن أن تلتمس لها التفسير والتعليل . فالصحف تنبئنا بأن بعض العمد يقتلون على أبواب دورهم آخر النهار وأول الليل فتصطبغ أرض مصر الطاهرة بدمائهم البريئة بينما تودع الشمس آفاق السماء فتترك فى مصر حزنا هادئا يمتزج به فى مصارع هؤلاء الناس حزن عنيف عميق . والصحف تنبيء بأن قوما يقتلون على الطريق العام وهم عائدون إلى دورهم فى الشرقية ، لاينتظرون الموت ولايخشونه ، ولكن الموت كان ينتظرهم ويكمن لهم فى بعض الوجوه والأنحاء . والصحف تنبئنا أيضا بأن قرى تختصم على الرى فيطلق بينها الرصاص ويصرع قوم ، منهم من يدنو من الخطر ، ومنهم من يكاد يدنو منه ، ومنهم من تصيبه جراح إن لم تكن مهلكة ولامشرفة بصاحبها على

---

(١) كوكب الشرق فى ٢١ - ٧ - ١٩٣٣

الموت ، فهى مؤذية مؤلمة ، مؤذنة بأن الناس لايتحرجون من أن يترامو بالرصاص ، ويدعو بعضهم الموت إلى بعض .

ثم تنبئنا الصحف أيضا بأن وزارة الداخلية التى أذنت لأحد وكيليها بالرحلة وللآخر بالعمل على ساحل البحر ، والتى أذنت لمدير الأمن العام بنزهة قصيرة ولوكيله بإجازة لابأس بها ، تنبئنا الصحف بأن هذه الوزارة قد ألغت فى القطر كله إجازات المأمورين والذين يشغلون مناصب الحكمدارين . وقدنشرت الصحف هذا النبأ مرة ومرة ، فلم تنكره الوزارة ولم تكذبه ولانصف تكذيب .

والصحف تنبئنا أيضا بأن مظاهرات ومناورات عسكرية تنظمها الشرطة فى مدينة الاسكندرية فتروع الناس وتلفت نظر الجمهور ، وتحمل الاسكندريين حين يرون هذه المظاهرات والمناورات والمصريين حين يقرأون أنباءها على أن يتساءلوا : فيم هذه المناورات والمظاهرات ، أو فيم هذا التمرين والتدريب ، فيقال لهم – بهذا الفعل المبنى للمجهول الذى لايسمي فاعله :إن هذه المظاهرات والمناورات إنما تجرى لتعرف الشرطة كيف تفرق الشعب إذا احتشد ، وتقمع المظاهرات الشعبية إذا هم بها الجمهور .

والصحف تنبئنا بغير هذا ، ومن المحقق أن الصحف لاتعرف كل شىء ، ولاتذيع كل مايصل إليها . فهذا كله لايدل طبعا على اضطراب الأمن ، ولاعلى فساد النظام . وإنما يدل على أن الأمن مستقر هادىء ، وعلى أن النظام مطمئن ثابت ولولا ذلك لما ذهب الوزراء والوكلاء وكبار الموظفين فى الداخلية مذهبهم الذى أشرنا إليه فى أول هذا الفصل .

وهناك دليل آخر لايقبل شكا ولاريبا ، ولايحتمل جدالا ولانزاعا . وهو يثبت لكل ذى عقل – وماأقل أصحاب العقول – أن الأمن لم يطمئن فى يوم من الأيام كما اطمأن فى هذا الصيف . هو مطمئن اطمئنانا يدفعه إلى أن ينام ملء جفونه ، لاتوقظه طلقة نار ، ولاوقع عصى ،ولا ينبهه اعتداء، ولا مايشبه الاعتداء . وهذا الدليل الساطع القاطع هو هذا الثناء الجميل الجزيل الذى صاغ منه مكاتب الديلى تلغراف باقة أنيقة رشيقة ، وقدمها فى ظرف ولطف إلى وزير الداخلية بعد أن نال زملاءه جميعا وفى مقدمتهم رئيس الوزراء بما يكرهون ! فمكاتب الديلى تلغراف يشهد لوزير الداخلية بأنه رجل الساعة ، بل رجل اليوم ، بل رجل الغد القريب والبعيد ، لأنه صان الأمن والنظام ، وضبط الأمر فأحكم ضبطه ، وأكره الجهات المختلفة على أن تؤمن له بالتفوق والمقدرة والنبوغ !!

ومكاتب الديلى تلغراف لم يرسل هذا الكلام إرسالا ، ولم يخترعه من عند نفسه اختراعا . وأكبر الظن أن المصدر الموثوق به الذى أنبأه بأن الوزراء جميعا يخافون من ظلالهم إلا وزير الداخلية فهو وحده الذى يخيف الناس ، وهو وحده الذى يخيف الظلال . ومادام هذا المصدر موثوقا به فيما تحدث فيه من أمر الوزارة والوزراء ، وفيما تحدث فيه من ضياع هيبة الحكومة لأن الوزراء يخافون من ظلالهم ، وفيما تحدث فيه من الحماقة وحدها هى التى أقصت عن هذه الوزارة القائمة وزيرين خطيرين ، وفيما تحدث فيه من أن التغيير قد أصبح فرضا مفروضا وحتما محتوما . مادام هذا المصدر موثوقا به أيضا فيما ألقى إلى مكاتب الديلى تلغراف من الشهادة لوزير الداخلية بالمهارة والبراعة وبالكفاية والنبوغ

وأنا أصدق مكاتب الديلى تلغراف وأصدق المصدر الذى ألقى إليه هذه الشهادة . فوزير الداخلية بارع ماهر من غير شك ، ووزير الداخلية كفء نابغة من غير شك . وآية ذلك الآية التى لاينكرها إلا مكابر يحب المراء ، هى أن الظن لم يسؤ باطمئنان الأمن وإستقراره فى مصر كما ساء الآن . فليس مما يدعو إلى حسن الظن باطمئنان الأمن واستقراره أن تذاع أنباء القتل وسفك الدماء جهرة على هذا النحو ، وليس ما يدعو إلى حسن الظن باطمئنان الأمن واستقراره أن تلغى إجازات المأمورين ورؤساء الشرطة فى جميع الأقاليم ، وليس مما يدعو إلى حسن الظن أن لاتكتفى وزارة الداخلية بمنع الاجتماعات السياسية مخالفة فى ذلك الدستور ، بل تتجاوز ذلك إلى منع الاجتماعات الدينية فى المساجد التى أقيمت ليعمرها المسلمون بذكر الله ، والتواصى فيما بينهم بالخير والرشد والمعروف . وليس مما يدعو إلى حسن الظن أن ينشط مدير الأمن العام الأوربى نشاطا غريبا لم يعرف من قبل فيزور المدن ، ويطوف فى الأقاليم على حين يستريح مدير الأمن المصرى فى رودس أو غيرها من جزر البحر .

ليس شىء من هذا كله يدعو إلى حسن الظن بثبات الأمن واستقرار النظام واطمئنان الوزارة على ذلك الأمن وهذا النظام ، وليس مما يدعو إلى حسن الظن بقوة الحكومة وقبضها على أعنة الأمور كما يقولون أن تحاصر الدور ويراقب أعضاء الوفد والمتصلون به ، ويؤخذ الناس من الطريق إلى أقسام الشرطة لأنهم كانوا يمرون قريبا من دار رئيس الوزراء بالنيابة . بلى ، وليس مما يدعو الى حسن الظن باستقرار الأمن والنظام أن يكون الخطف وتسليح القطارات وحفر الخنادق وتسوير المدن بالتراب والسيارات وسيلة إلى المحافظة على الأمن وإلى إقرار النظام .

ومع ذلك فهذا كله قد كان ، وهذا كله استحدثه وزير الداخلية القائم ، فإذا لم يكن هذا كله دليلا على أن وزير الداخلية القائم قد زعزع رأى الناس من المصريين والأجانب فى اطمئنان الأمن ، واستقرار النظام ، فأى دليل آخر تريد ؟

وإذا لم يكن هذا كله حجة صادقة قاطعة على أن وزير الداخلية القائم قد ظفر بأعظم حظ ممكن من المهارة والبراعة ، ومن التفوق والنبوغ فأى حجة أخرى تريد ؟ لقد صدق مكاتب الديلى تلغراف وصدق المصدر الذى ألهمه وأوحى إليه ، فوزير الداخلية رجل عظيم ولكن عظمته هذه تجعل استقالته كاستقالة زملائه شيئا مرغوبا فيه كل الرغبة ، بل شيئا لابد منه إذا كان يراد بمصر أن يحسن الظن بها وبوزارتها ، وألا يذاع عنها فى أقطار الأرض أنها موطن الفزع والخوف وأن الوزراء فيها يخافون من ظلالهم وأن إجازات المأمورين ورؤساء الشرطة فيها تلغى طول فصل الصيف .

إن الذين يحبون هذا البلد ويحرصون على أن يستقر فيه الأمن حقا ، ويطمئن فيه النظام حقا ، ويعرف الناس عنه أنه بلد الهدوء والسلام خليقون أن يفكروا وأن يسرعوا فى التفكير ولا ينتظروا به فصل الخريف ، فإن هذه الوزارة لم تبلغ مداها فحسب ، بل بلغته منذ زمن بعيد وجاوزته منذ زمن بعيد ، وعجزت عجزا تاما عن أيسر ماوجدت من أجله الحكومات وهو تأمين الناس على دمائهم وأموالهم ، وأصبحت تقبض على أعنة الأمور بيد مرتخية شديدة الارتخاء ، ولاتستطيع لها تدبيرا ولاتصريفا . وإذا لم تكن هذه الوزارة نفسها محسة لهذا العجز ، أو شاعرة به فإن الناس من المصريين والأجانب يعلنون ذلك ويلحون فى إعلانه وهى عاجزة حتى عن نفى مايعلنون .

أما بعد ، فليس يعنينا أن يكون المصدر الذى أوحى إليه موثوقا به أو مشكوكا فيه ، وإنما الشىء الذى يعنينا ويعنى الذين يحبون مصر حقا هو أن عجز الوزارة قد أصبح أوضح من أن يشار إليه ، وأن تغييرها أمر لابد منه مهما يقل القائلون ويكابرون.

خطـــر

خطر عظيم حقا هذا الذى يتعرض له الموقف السياسى بين مصر وانجلترا فى هذه الأيام بفضل مسألة التبشير والمبشرين ، فقد أخذت هذه المسألة تخرج من وضعها الطبيعى إلى وضع آخر يدفعها إليه الانجليز بما لهم من مهارة وبراعة فى انتهاز الفرص واستغلال الظروف لتحقيق مآربهم وكسب مايريدون . قوم من الأجانب اعتدوا ولعلهم لايزالون يعتدون على المصريين فى أطفالهم وضعفائهم ، يصرفونهم عن دينهم ، سواء اكان هذا الدين هو الإسلام أم المسيحية الأرثوذكسية بالترغيب والترهيب ، وبالإغراء والإكراه ، فأنكر المصريون جميعا هذا الاعتداء ، وما زالوا ينكرونه ، وألح المصريون جميعا على الحكومة ومازالوا يلحون فى أن تسلك أقصر الطرق وأشدها ملاءمة للحق والعدل والكرامة والمنفعة إلى وقف هذا الاعتداء ، وأخذ السبيل عليه . واضطرت الحكومة أمام إلحاح الشعب وبأمر جلالة الملك إلى أن تأخذ بعض الأسباب لتحقيق مايطلب إليها وعجزت عن أن تأخذ ببعضها الآخر إلى الآن .

فالوضع الطبيعى لهذه المسألة أن تظل كما هى الآن . شعب يطالب بحماية حرية العقيدة وحكومة تعمل ماستطاعت لتحقيق بعض مايريد الشعب ، ولكن الانجليز أسرعوا فأخرجوا هذه المسألة من هذا الطور إلى طور آخر . وقال وزير خارجيتهم فى مجلس النواب منذ أسابيع إنه قد أذن للمندوب السامى بأن يتحدث إلى الحكومة المصرية فى مراقبة التبشير والمبشرين . ومعنى ذلك أنه أقام انجلترا مقام الكفيل بحقوق الأجانب المدافع عنها . وأبى على الحكومة المصرية أن تراقب المبشرين أو قل إلا بإذن من المبشرين .

وقد أنكرنا ذلك ولفتنا الحكومة إليه وانتظرنا أن تقول الحكومة فيه كلمة طويلة أو قصيرة ، قوية أو ضعيفة وأن تقف الحكومة منه موقفا حازما يحفظ على مصر حقها فى

كوكب الشرق فى ٢٢/ ٧/ ١٩٣٣

أن تحمى أهلها من الاعتداء الأجنبى ، لأن المصريين لايريدون إلا أن تحميهم حكومتهم من اعتداء الأجانب عليهم ، ولأن المصريين هم الذين يحتاجون إلى الحماية ، لأنهم معرضون لخطر الفتنة فى الدين ، بل واقعون فيه بالفعل ، ولكن الحكومة لم تقل شيئا ولم تصنع شيئا إلا ما كان من أمر الملاجىء والمعاهد الذى هو أمر اجتماعى خالص ، كان يجب ومايزال يجب أن تنهض به الحكومة سواء أوجد المبشرون أم لم يوجدوا ، سواء أوقع عدوان المبشرين أم لم يقع ، لأن من أول واجبات الحكومة فى بلد كمصر أن تنفق من أموال الشعب لتؤوى اليتامى والضعفاء والفقراء والبائسين من أبناء الشعب ولتحميهم من الجوع والتشرد والحرمان .

لم ترد الحكومة إذن على أمر الملاجىء ، وعلى إبعاد مبشرة عن مصر ، ولم تقل الحكومة إذن شيئا فيما طلبنا إليها أن تقول فيه . أما الانجليز فقد قالوا وعملوا . قال وزير خارجيتهم ماقال فى مجلس النواب ، ونشط مدير الأمن العام الأوربى نشاطا غريبا فى حماية المبشرين .

ثم ها نحن أولاء نقرأ فصلا طويلا نشرته الديلى تلغراف لمكاتبها السياسى فيه تفصيل وشرح وتأكيد لما أجمله وزير الخارجية من أن الحكومة الانجليزية تريد أن تبدأ فى مفاوضات مع مصر ومع غيرها من الدول التى تتصل بالمبشرين لتنظيم المراقبة التى يمكن أن تفرض على هؤلاء المبشرين

ومعنى هذا أن الحكومة الانجليزية تريد أن تقضى فى تحفظ من التحفظات التى علقت البت فيها على مفاوضات حرة بينها وبين مصر ، وهو التحفظ الذى يمس حماية الأجانب فى مصر . تريد انجلترا أن تقضى فى هذا التحفظ الآن منتهزة لفرصة التبشير هذه وأن تقضى فيه بما يلائم منفعتها هى ومطامعها هى ، وما يخالف منفعة المصريين وحقهم الواضح واستقلالهم الذى لاغبار عليه . تريد أن تقضى فى هذا التحفظ كما تحب وأن تأخذ الحكومة المصرية والدول الأجنبية بالموافقة على ماتحب هى . تريد أن تأخذ من الحكومة والدول الأجنبية اعترافا بحقها فى حماية الأجانب وتنظيما لهذا الحق . والذى يعلمه المصريون جميعا وتعلمه الوزارة القائمة ويعلمه ساسة الانجليز أن المفاوضات التى جرت بين مصر وانجلترا تناولت هذا التحفظ ، وأن مفاوضات الوفد المصرى التى جرت سنة ١٩٣٠ قد استخلصت لمصر هذا الحق واستخلصته فى صراحة قاطعة واضحة ، لاتحتمل شكا ولانزاعا ، فنصت مادة من مواد المشروع الذى تم الاتفاق عليه بأن على مصر وحدها حماية الأجانب . فهذه المسألة مفروغ منها ، إن وجهة النظر

المصرية فيها واضحة . وقد قبلها الانجليز وأقروها ولم تكن هي التي أفضت إلى قطع المفاوضات . فكل وزارة مصرية تفرط في هذا الحق الطبيعي الذي لامعنى للاستقلال بدونه ، والذي اعترف لنا به الانجليز آثمة في حق الوطن ، مهدرة لاستقلاله ، مضيعة لكرامته ، ممكنة للسلطان الأجنبي فيه .

وإذن فنحب أن نعلم ماذا تريد وزارتنا أن تعمل أو تقول حين يتحدث إليها الانجليز في تنظيم هذه المراقبة التي يراد أن تفرض على المبشرين ؟ نحب أن نعلم ماذا تريد الحكومة أن تعمل أو تقول ؟ أو ماذا عملت الحكومة أو قالت إن كان الانجليز قد بدأوا معها بالفعل في هذا الحديث ؟ نريد أن نتبين موقف الحكومة في هذا ، فقد خرج الأمر عن أن يكون أمر جماعة من الأجانب يعتدون على المصريين الى ماهو أشد خطرا من هذا كله ، وأبعد أثرا في حياتنا السياسية ، وهو المفاوضة في جزء مقوم للاستقلال المصري قد انتهت المفاوضة فيه ، وانتهت إلى مايحفظ على المصريين حقهم وكرامتهم واستقلالهم .

نريد ألا تؤثر وزارتنا الصمت وألا تلج في السكوت فالأمر أشد خطرا من أن يقبل فيه الصمت أو السكوت . نريد أن تعلن الحكومة بحال من الأحوال عن حق مصر وحدها في حماية الأجانب ، وفي إصدار ماتحتاج إليه حمايتهم أو حماية المصريين منهم بالقوانين . وكل صمت بعد اليوم من الوزارة حول هذا الموضوع مخيف مزعج ، مثير للريب والشكوك

فلتتكلم الوزارة وليتنبه الساسة ، فمن يدري ؟ لعل من وراء هذه القصة المحزنة المؤلمة تدبيرا خفيا للمستعمرين ، يريدون أن يأخذوا به مصر على غرة ، وأن يستدرجوها به إلى حيث لاينبغي أن تستدرج . ومن يدري ؟ لعل مالجت فيه الصحف الانجليزية من الإغراء والفتنة والتحريض عليها مالم يكن له مصدر إلا هذا النذير الخفي الخطر .

أما بعد فإن الموقف الذي ينبغي أن تقفه الوزارة المصرية من هذا الأمر لاخفاء فيه ولاغبار عليه ، فالحق واضح وواجب الحكومة بين ، وهو أن تشرع ماتحتاج إليه من القوانين لمراقبة هؤلاء المبشرين وأن تتفاوض في هذه القوانين مع الدول التي تستمتع بالامتيازات مفاوضة مباشرة ، لاوساطة فيها للانجليز ، فلا ينبغي لوزارة مصرية أن تنظر في هذه المسألة إلى الانجليز إلا كما تنظر إلى غيرهم من الأمم التي تستمتع بالامتيازات .

شكوى

أشكوى أم دفاع هذا الكلام الذى أرسله رئيس الوزراء من مصيفه إلى جريدة الديلى تلغراف ، والذى أذاعته الصحف المصرية منذ أمس ففيه روح الشكوى ، وفيه روح الدفاع . وهو على كل حال لا يلائم المركز القوى العزيز ، والمنزل المنيع الرفيع الذى يحتله رئيس الوزراء ، ولابد أن تكون هناك ضرورة ملحة أكرهت رئيس الوزراء على أن يكتب هذا الكلام مع أنه قد ذهب إلى مصيفه ليستريح ، قد تكون هذه الضرورة سياسية ولكنها ضرورة على كل حال .

فالأصل أن رؤساء الوزارات لا يفرغون لمناقشة الصحف مهما تكن ومكاتبيها مهما يكونوا . وإنما سيناقشون اندادهم وأمثالهم وأقرانهم من رؤساء الوزارات وزعماء الشعوب وقادة الرأى وأقطاب السياسة ، فإذا نشرت الصحف شيئا لايوافق الحق أولا يوافق رضا رؤساء الوزارات فإن للرد على هذه الصحف طريقا أخرى غير التى سلكها رئيس وزرائنا ، فهناك الإيعاز إلى مكاتبى الصحف ومخبريها ببيانات شبية بالرسمية كما يقولون ، فيها الرد الذى تراد إذاعته . وهناك البلاغات الرسمية تصدرها السلطة المركزية فى العاصمة ، أوتصدرها المفوضية أو السفارة فى البلد الأجنبى . فأما رئيس الوزراء فإنه يجب أن يكون آخر من يتكلم . وإذا لم يكن له بد من الكلام فإنه لايتكلم بهذه الطريقة المباشرة ، وإنما يدعو إليه من الصحفيين ورجال الإذاعة من يسأله عما قيل فيجيب رئيس الوزراء بما يريد .

هذه – فيما نعلم ويعلم الناس – هى التقاليد التى يحرص عليها رؤساء الوزارات ، احتفاظا بما لوزاراتهم ، بل بما لدولهم من هيبة وبما ينبغى للوزارات وللدول من كرامة ترتفع بها عن التنزل إلى مثل هذه المناقشات ولكن مكاتب الديلى تلغراف فيما يذكر

كوكب الشرق فى ٢٣ – ٧ – ١٩٣٣

القراء قد زعم أن الوزارة القائمة أضاعت هيبتها ، وزعزعت رأى الناس فيها وتقديرهم لها . والظاهر أن رئيس الوزراء أراد أن يرد على مكاتب الديلى تلغراف فأبى إلا أن يقدم إليه حجة واضحة على أنه لم يخطىء كثيرا حين زعم أن الوزارة القائمة لم ترع هيبتها حق الرعاية . ولعل الذين يرقبون مواقف صدقى باشا من آراء المراكز السياسية فى لندرة يلاحظون أنه منذ مرض قد أصبح حساسا ، دقيق الحس بإزاء هذه الآراء ، يثيره كل شيء ، ويدفعه كل شيء لا إلى الكلام ، بل إلى العمل والاضطراب فى العمل .

فالقراء يذكرون – من غير شك – قصة الرسالة البرقية التى أرسلت إلى البلاغ فنشرتها الأهرام ، واضطربت لها الوزارة وقال فيها رئيس الوزراء بلندرة ثم نفى هذا الاتصال . وتحدث فيها رئيس الوزراء إلى زملائه سرا فأذاعوا الحديث فنفاه رئيس الوزراء ، فتحدته الأهرام فاضطر رئيس الوزراء إلى السكوت .

القراء يذكرون هذا من غير شك ، ويقدرون أن الضعف الذى اضطر المرض إليه رئيس وزرائنا هو الذى يحتمل تبعة هذا الإسراع إلى القول والحركة حين يحسن الصمت والسكون . وقد نشرت الصحف أن الوزارة هنا لم تكد تظهر على هذه الرسالة التى نشرتها الديلى تلغراف حتى أظهرت بها عناية شديدة ، وأسرعت إلى رئيس الوزراء الذى يصطاف ويستشفى ويستريح فأنبأته بهذه الرسالة ولعلها قد صورت له موقفها من نفوس الوزراء والبيئات الوزارية ، ولعل هذا التصوير كان معتدلا ، ولعله كان مبالغا فيه ، وهو على كل حال قد أقلق رئيس الوزراء واضطره إلى أن يخرج عن الراحة وإلى أن يخرج عن الصمت والسكون .

فالوزارة هنا خليقة ببعض العتب لأنها أزعجت رئيسها المتعب وأخرجته عما ينبغى له من الراحة والهدوء . والوزارة هنا خليقة ببعض اللوم لأنها حين لجأت إلى رئيسها قد اضطرته إلى أن يقدم لمكاتب الديلى تلغراف حجة واضحة على ضعف الوزارة حين يغيب عنها رئيسها ، ولولا ذلك لما شكت إليه من مكاتب الديلى تلغراف ، وعلى ضعف الوزارة حتى حين يشترك رئيسها فى العمل بعد مرضه ، ولولا ذلك لما أسرع الرئيس فرد بنفسه على مكاتب الديلى تلغراف .

من حق أصدقاء صدقى باشا وخصومه معا أن يلاحظوا أن الوزارة قد أسرفت على نفسها حين لجأت إلى رئيسها المستريح واضطرته إلى هذا الرد . فلو أنها أعفته من ذلك وعنيت هى بهذا الرد لكان من الممكن أن توفق إلى خير مما قاله الرئيس ، لأن أعضاءها

المقيمين فى مصر أصحاء بحمد الله ، قد وفر الله عليهم أسباب القوة والنشاط ، وإتقان المناقشة والتفكير . فلو قد كتبت الوزارة نفسها هذا الرد لتجنبت - فيما نرجح - أن يذكر العدل والإنصاف .

الوزارة القوية العزيزة المستقلة الكريمة ليست فى حاجة إلى أن تذكر صحيفة أجنبية حتى وإن كانت انجليزية ، حتى وإن كانت الديلى تلغراف بالعدل ولابالإنصاف . وليست محتاجة إلى أن تطلب إلى صحيفة أجنبية مايستتبعه العدل والإنصاف من الرحمة والعطف ، وإنما هى خليقة أن تنفى ما يقوله المكاتب الأجنبى فى قوة وحزم ، وفى عزة وإباء يشبه ماأظهره رئيس الوزراء فى رده التاريخى على المستر مكدونالد حين طوعت له نفسه أن يدخل فى شئون مصر ، فرده رئيس الوزراء بجوابه التاريخى المعروف على عقبيه ، واضطره إلى السكوت . ولو قد كتبت الوزارة نفسها هذا الرد بنفسها لما احتاجت إلى أن تؤكد كما أكد صدقى باشا أن مصر هادئة مطمئنة وأنه هو مطمئن إلى هذا الهدوء والاطمئنان . فإن اهتمامه على مرضه وبعده وإقامته فى دار الغربة بالرد على رسالة لمكاتب أجنبى لايدل على أنه هو مطمئن أو هادىء البال .

ولو قد كتبت الوزارة بنفسها هذا الرد لفكرت كثيرا قبل أن تذكر الهدوء فإن الوزارة التى تذكر الهدوء والاستقرار لاتلغى إجازات المأمورين ورؤساء الشرطة طول الصيف ، ولاتدرب الشرطة على قمع المظاهرات جهرة ولاتحصر البيوت ولاتصد عنها الزائرين ولاتوكل حراسا ببيت النقراشى يتعاقبون حوله ، فريق بالليل وفريق بالنهار . والوزارة تعلم حق العلم أن عين الانجليز مفتوحة ترى وأن أذن الانجليز مفتوحة تسمع وأن المستر « كين بويد » عالم بهذا كله من كثب .

ولو قد كتبت الوزارة بنفسها هذا الرد لاحتاطت وبالغت فى الاحتياط قبل أن تذكر حسن بلائها فى تخفيف الأزمة وكشف الضر عن الفلاحين ، فهى تعلم والانجليز يعلمون معها أن الفلاحين لم يكشف عنهم ضر ، ولم يرفع عنهم أذى ، وإنما أموالهم تحتجز ، وماشيتهم تباع ، والجوع يرصد لهم فى الليل والنهار . وفى كل مكان ولوقد كتبت الوزارة هذا الرد بنفسها لما تورطت فى هذا التناقض الذى اضطر إليه رئيس الوزراء بحكم التعب والضعف فزعم أن غيابه وحضوره سواء ، لا أثر لهما فى السياسة المصرية ، فإن هذا الكلام إقرار من رئيس الوزراء أن بقاءه فى الحكم عبث من العبث ، وفن من فنون الاستئثار بالحكم للحكم ، لالشىء آخر ، وإلا فما دام حضوره وغيابه سواء وهو مريض ، فماله لايستقيل ؟ ومادام أى إنسان غيره قادر على أن يصرف أمور الحكم فماله

يشق على نفسه وعلى الناس ؟ ولوقد كتبت الوزارة بنفسها هذا الرد لما ذكرت ماذكره رئيس الوزراء عن الوفد ، ولما ذهبت إلى ماذهب إليه رئيس الوزراء من الغلو الذى لايدعو إلى الإغراق فى الضحك ، وإنما يدعو إلى الابتسام الخفيف حين زعم لجريدة الديلى تلغراف أن المصريين مجمعون على الإنكار لحكم الوفد والامتناع عن الرجوع إليه لأن حكم الوفد مصدر الفوضى والاضطراب . فهذا كلام يمكن أن يقال للصين ، أى لتلك الشعوب المستوحشة فى المجهول من أقطار الأرض . فأما الأوربيون الذين يروننا ونراهم ويقرأوننا ونقرؤهم ويزوروننا ونزورهم . فأما الانجليز الذين يعلمون من أمرنا مثل ما نعلم أو أكثر مما نعلم فلا ينبغى أن يقال لهم شىء مثل هذا الكلام إلا أن يكون التعب هو الذى دعا إلى قوله أو أن يكون الحرج هو الذى اضطره إليه .

فأنت ترى أن الوزارة قد أسرفت على نفسها وعلى رئيس الوزراء حين أنبأته بهذه الرسالة ، ولجأت إليه فى أن يرفع عنها ضرها ويرد عنها شرها أسرفت على نفسها وعلى الرئيس لأنها أتعبت الرئيس وهو فى حاجة إلى الراحة ، ولأنها اختارت محاميا لاتمكنه صحته فى هذه الأيام من أن يحسن الدفاع ، لانها عنيت بهذه الرسالة أكثر مما ينبغى وما قيمة هذه الرسالة وماقيمة كاتبها ؟ وما قيمة الديلى تلغراف ؟ وقيمة الانجليز جميعا مادامت الوزارة مستمتعة كل الاستمتاع بثقة البرلمان ورضا حضرة صاحب الجلالة الملك ؟ إن عناية الوزارة ورئيسها بهذه الرسالة تحدث فى الآراء اضطرابا أكثر جدا من الاضطراب الذى تحدثه الرسالة نفسها . فهى تدفع الناس إلى أن يقول بعضهم لبعض : لولا أن هذه الرسالة تدل على شىء ، وتنم عن سر ، وتشير إلى أمور ذات البال لما اضطربت لها الوزارة ورئيسها ، ولما خفقت أسلاك البرق والتليفون بين مصر وانجلترا وفرنسا . وليس من منفعة الوزارة فى شىء أن يقول الناس بعضهم لبعض مثل هذا الكلام ، إنما المنفعة الصحيحة لوزارة فى لقاء هذه الرسالة وأمثالها بالرزانة والصمت وعدم الاكتراث . ولكن أنّى للوزارة بهذا كله ورئيسها مريض ، وهو على مرضه بعيد يصطاف فى ناحية من نواحى أوربا .

اعترف بأنى لم أحفل برسالة الديلى تلغراف إلا بعد أن علمت ورأيت أن الوزارة تعنى بها فتسرف فى العناية وأن رئيس الوزراء يخرج لها عن صمته وراحته ، ويعلن فى آخرها أنه يقدر صاحب الرسالة تقديرا حسنا ، ولكنه يثق بأن عمله بعيد عن حسن النية ، ومن يدرى ؟ لعل سوء النية هذا ليس ذنبا لمكاتب الديلى تلغراف ، وإنما هو ذنب الظروف السياسية التى تؤيد الوزارات أحيانا فتغلو فى التأييد وتخذل الوزارات أحيانا

فتغلو فى الخذلان . وإذن فربما كان من العدل والإنصاف أن لايشكو رئيس الوزراء مكاتب الديلى تلغراف إلى صحيفته ، وإنما يشكو الظروف السياسية إلى الظروف السياسية ، فهى التى تتقلب وتتبدل ، وهى التى تدنى من الحكم وتقصى عنه ، وهى التى تقرب البعيد وتبعد القريب ، وهى التى قد تتكشف عما ينذر به مكاتب الديلى تلغراف إذا أقبل الخريف أو قبل أن يقبل الخريف .

فقيـــد

كان جريئا(١) لايعرف الخوف(٢) ، صبورا يستعذب الألم ، وكان مفطورا على حب التضحيـة واحتمـال الأذى . لا يعرف الناس عنه أنه أذعن لجـور ، أو أشفق مـن بطش ، أو تردد فى أداء واجب . وكان وفيا لأصدقائه ، لايفهم الحياة بغير الوفاء ، ولايقدر الرجولة بغير وفاء ، ولايضن بالنفس فى سبيل الوفاء . وكانت كل هذه الخصال سجية فيه ، لايتكلفها ، ولايأخذ نفسه بها أخذا ، وإنما تصدر عن نفس آثارها طبيعية حرة كما يصدر الضوء عن الشمس

فكان لهذا كله مثلا من أصدق الأمثال وأرقاها لحياة الرجل الكامل فى هذا العصر الذى كثرت فيه الفتن واشتدت فيه المحن ، وابتليت فيه أخلاق الناس ، وظهرت فيه الحاجة إلى الرجال الذين يستحقون هذا الاسم

---

(١) كوكب الشرق فى ٢٤ – ٧ – ١٩٣٣

(٢) هو الوطنى المخلص سينوت بك حنا . كان عضوا بالجمعية التشريعية سنة ١٩١٣ فنشأت بينه وبين سعد زغلول باشا صداقة ومودة . ولما قامت ثورة سنة ١٩١٩ انضم إلى الوفد ونفى مع سعد إلى سيشل . أما وفاؤه لخليفة سعد فحسبك من شواهده أنه وقاه بنفسه فى يوم المنصورة العصيب وكان شعاره « الوطنية ديننا والاستقلال حياتنا »

مات فى قصره بمصطفى باشا بالاسكندرية يوم ٢٣ – ٧ – ١٩٣٣ ثم نقل إلى داره بالجيزة ودفن بمدافن العائلة بالجبل الأحمر . وكانت جنازته مظاهرة وطنية رائعة ، فقد ترك الناس أعمالهم وساروا وراء العربة التى أقلت جثمانه وهم يذرفون الدمع الغزير . ورثاه محمد محمود عمار بقصيدة طويلة نذكر منها:

مامات سينوت وعنه مآثر ∴ تبقى على الدنيا إلى الميقات،
وطنيتى دينى ومصر ملتى ∴ للوفد واستقلال مصر حياتى
مامات سينوت وعنه مآثر ∴ يدعى بها أبدا زعيم صفات
سينوت مات وماله من أوبة ∴ ياقصر نح وابك العزيز وهات

[الكوكب فى ٢٦ – ٧ – ١٩٣٣

لم يكد يعمل فى الحياة العامة حتى ظهرت فيه هذه الخصال كأوضح مايمكن أن تظهر الخصال فعرفها الناس له وأحبوها فيه ولقبوه « النائب الجرىء » وكأنه قد عرف لشعور الناس هذا حقه ، وأنزل ثقة الناس فيه منزلتها فوضع شجاعته وجرأته ، ووضع احتماله وصبره وحبه للتضحية وحرصه على الوفاء موضع الامتحان .

توالى عليه الابتلاء ، وتعاقبت عليه الخطوب ، وازدحمت عليه الأحداث ، وأخذته الأهوال من كل مكان ، وخرج منها منيعا كما دخل فيها جريئا صبورا صادق العزم ، حسن البلاء ، وفيا للأصدقاء .

لم يرعه النفى وآلامه ، ولم يخفه البطش وأهواله ، ولم يفتنه الإغراء ولم تخدعه الحياة بما فيها من الوان الغرور ، ولم يتردد فى أن يستقبل الموت من دون صديقه ورئيسه ، ولم يتردد فى أن يصبر لألوان البأس التى عجز كثير من الناس عن أن يصبر لها فى هذه الأعوام الأخيرة

وكان فيما حدثنى عنه المحدثون الصادقون يألم أشد الألم فى أيامه الأخيره ، لا لأن المرض يؤذيه ويضنيه ، بل لأن المرض يحول بينه وبين مشاركة أصدقائه وزملائه فى احتمال أثقال الحياة والجهاد . وكان يشكو من ذلك قليلا ويألم لذلك كثيرا . وها هو ذا الآن قد قضى ولما يبلغ مع أصدقائه أقصى الطريق ، ولما ينته مع أصدقائه إلى غايات الجهاد ، ولما ير مع أصدقائه حرية مصر وقد ردت إلى مصر ، واستقلال مصر وقد خلص لمصر .

فهو أحد هؤلاء الذين يختارون لاحتمال أثقال المحن وآلامها واقتحام خطوبها وأهوالها ، فيلقون من ذلك أشد ما يلقاه الناس ثم يصرعون ولما يحققوا الأمل ويسقطون فى الميدان ولما يبلغوا الأمد . هؤلاء الأصفياء أحق الناس بالحب وأجدرهم بالبر ، وأولاهم بالإكبار ،لأنهم جاهدوا ولم يروا من الجهاد إلا آلامه ، ولم يذوقوا من ثمرات الصبر شيئا ، ثم قضوا وفى نفوسهم حسرات لا لأنهم لم يجنوا ثمرة الكد والجد ، بل لأن الموت يحول بينهم وبين المضى فى الكد والجد .

والشعوب تعرف لهؤلاء الناس حقهم وتفى لهم بما هم أهل له من الحب والإكبار والإعظام ، كأنها تشعر شعورا قويا بما كان لهم من حق فى أن يذوقوا لذة الفوز ، ويجنوا ثمرة النصر ، وبأن القضاء قد شط عليهم حين حال بينهم وبين ذلك ، فهى تريد أن تقدم إليهم من حبها وإكبارها ومن إعظامها وإجلالها مايعوضهم من ذلك بعض الشىء ، أوقل

إن الشعوب تشعر بما كان لهؤلاء العظماء من حق ، وبقسوة القضاء عليهم حين حال بينهم وبين هذا الحق ، وبأن هؤلاء العظماء الذين جاهدوا وصبروا ، لايبتغون جزاء ولاشكرا ، ولم يظفروا بجزاء ولاشكر هم المثل العليا حقا ، والقدوة الصالحة حقا ، هم الذين ينبغى أن يتأثرهم الجادون ، ويقتدى بهم العاملون ، هم الذين يجب أن تتخذهم الأمم مرآة صافية لخير مافيها من الخصال التى تعينها على الحياة وتمكنها من الرقى والعظمة وارتفاع الشأن . فهى لذلك تحبهم وتؤثرهم ، وهى لذلك تجلهم وتكبرهم ، وهى لذلك توارى أجسامهم فى التراب ، ولكنها تحفظ صورهم فى القلوب وتجرى ذكرهم على الألسنة وتحفظ لهم عهدا . لاكالعهود ، وتضمن لهم أنها قد تنسى كل شىء ، وقد تنسى كل إنسان ولكن النسيان لن يجد إليهم سبيلا .

لقد قضى فقيد اليوم ففارق أصدقاء أعزاء ، ولحق بأصدقاء أعزاء فنفسه محزونة لفراق أصدقائه فى هذه الدار ، كما أن نفوس أصدقائه محزونة لفراقه – نفسه سعيدة للقاء أصدقائه فى تلك الدار كما أن نفوس أصدقائه سعيدة بلقائه . والشعب المصرى كله يشاركه ويشارك أصدقاءه أولئك وهؤلاء فى كل مايجدون من غبطة وفى كل مايشعرون به من رضا بقضاء الله واذعان لحكم الله ، وأمل فى عدل الله وفى حسن جزائه للصادقين المخلصين.

فى ذمة الله هؤلاء الأصفياء الأوفياء من قادة مصر وزعمائها الذين شقوا لها طريق المجد فى هذا العصر الحديث ، والذين شقوا لتسعد ، وماتوا لتحيا ، وألقوا فى قلوب أبنائها أن الفرد لاقيمة له بغير الجماعة ، وأن سعادة الأشخاص لغو إذا لم تكن مقترنة بسعادة الأمم وأن الوطنية الصادقة لاتعرف ضعفا ولامللا ، ولاهوادة ولامساومة ، وإنما هى قوة كلها ومضاء كلها ، واستقامة كلها ، وجد كلها وتضحية كلها .

فى ذمة الله هؤلاء الأصفياء الأوفياء الذين أكرهوا العالم الحديث على أن يؤمن لمصر بأنها بلد حى خليق بأرقى ماتطمع إليه الشعوب من الحياة .

نعم وعزاء لهؤلاء الأصفياء الأوفياء الذين يحتملون الآن آلام الحياة مضاعفة ، ويصبرون الآن وحدهم على فقد الأصدقاء ومشقة الجهاد فى سبيل هذا البلد الحزين .

عزاء لهؤلاء الأصفياء الذين شاركوا إخوانهم الراحلين فيما احتملوا من ألم ومالقوا من ضر . وكانوا يجدون فى مودتهم وحبهم ، وفى إخلاصهم ووفائهم عونا على الشدة وعزاء عن المكروه فأصبحوا الآن لايجدون هذا العون إلا فى الذكرى ولايجدون هذا العزاء إلا فى الصور الكريمة التى تملأ قلوبهم ونفوسهم من ثقة بالله وإيمان بالوطن .

نعم وعزاء لمصر عمن فقدت من الزعماء والقادة بمن بقى من الزعماء والقادة ، فإن زعماء مصر وقادتها سواء منهم من مضى ومن أقام لا يمثلون أشخاصا وأفرادا تعدو عليهم الاحداث وتعبث بهم الخطوب وإنما يمثلون فكرة هى أرق وأصفى وأبقى من أن تعدو عليها الأحداث أو تعبث بها الخطوب . وهى فكرة العزة المصرية ، والحرية المصرية والكرامة المصرية . ومادامت هذه الفكرة قد وجدت فى مصر ونمت وسيطرت على قلوب المصريين جميعا ، واستأثرت بنفوس المصريين جميعا بفضل هؤلاء الزعماء الصادقين ، من مضى ومن أقام ، فلن تذعن مصر لبأس ، ولن يجد اليأس إليها سبيلا .

إن فى رئيس الوفد وأصدقائه الأصفياء الأوفياء لعزاء أحسن العزاء لمن فقدت مصر من قادتها وزعمائها . وإن فى حب مصر الصادق ، ووفاء مصر الدائم وولاء مصر المتصل لعزاء لرئيس الوفد وأصدقائه عن هذه المحن التى تتصل عليهم فلا تزيدهم إلا ثقة وإيمانا ويقينا . وإن فى هذا كله لعزاء لأسرة الفقيد العظيم ونفس الراحل الكريم .

فليمنح الله مصر أجمل الصبر وليوفق الله مصر إلى حسن الاقتداء بفقيدها العظيم وأصدقائه الذين سبقوه إلى دار الخلود

أمـــس

كان يوما مشهودا من غير شك ، ظهرت فيه عواطف الشعب قوية إلى أقصى غايات القوة ، حزينة إلى أقصى غايات الحزن ، جلية إلى أبعد حدود الجلاء .

وكان يوما مشهودا من غير شك ، لم تستطع الظروف السياسية المصطنعة ، ولا الأوضاع السياسية المتكلفة أن تطبعه بهذا الطابع الفاتر الذى يخيل إلى الناس أن الشعب قد لها عن نفسه وعن حقه وآثر الحياة التى تجرى مطردة ، يسيرة لاجهد فيها ولاعناء ، ولا عناية فيها إلا بهذه الحاجات الزائلة التى تعرض للأفراد فى كل يوم .

نعم كان يوما مشهودا من غير شك ، اندفعت فيه عواطف الشعب الحزينة المؤمنة عنيفة لاتلوى على شيء . فأظهرت نفس الشعب كما كانت دائما صافية أشد الصفاء ، واضحة أشد الوضوح ، مؤمنة أشد الإيمان بالحق ، واثقة أشد الثقة بالفوز ، مقدرة أحسن التقدير لصدق الصادقين ، وإخلاص المخلصين ، وتضحية المضحين فى سبيل الحق والواجب والوطنية .

وإنى لأتحدث عن أمس فلا أتحدث ناقلا ، ولاراويا ، ولا مرددا للأخبار والأنباء ، إنما أتحدث حديث الشاهد الذى عاش مع الشعب هذه الساعات الخالدة ، وأحسّ مع الشعب هذا الإحساس الرائع ، وشارك الشعب فى هذا الشعور العظيم . فلست إذا تحدثت واصفا لما أحسسته أنا وتلقيته أنا من هذه النفس العظيمة ، نفس الشعب ، فليس إلى وصف هذا من سبيل الآن ، إنما أريد أن أصور هذه الخواطر التى تبقى فى النفس بعد هذه الاجتماعات الشعبية الرائعة التى تظهر فيها حياة الشعب قوية لاتغلب ، عزيزة لاتذل ، جريئة لاتخاف ، مندفعة لاترد ، بريئة من كل تكلف أو تصنع أورياء أو محاولة التكلف والتصنع والرياء .

ولعل أول هذه الخواطر وأقواها وأبقاها وأشدها إلحاحا على النفس واستئثارا بالقلب

كوكب الشرق فى ٢٥ – ٧ – ١٩٣٣

إنما هو الإعجاب بالروح الشعبى الحر فى قوته وصراحته وبراءته من التكلف والالتواء والإيمان بأن هذا الروح القوى العظيم واحد ، تختلف الظروف من حوله ولايختلف ، وتتباين أسبابه ودواعيه ومظاهره ولايتباين ، فهو هو حين يظهر لأن الشعب محزون لفقد عزيز عليه أو ضياع حق من حقوقه . وهو هو حين يظهر لأن الشعب مبتهج بمقدم عزيز عليه أو بكسب حق من حقوقه ، وهو هذه القوة التى تمثل إكبار الشعب لنفسه وإيمان الشعب بواجبه وإباء الشعب لكل ضيم ، وإنكار الشعب لكل اعتداء .

انظر فى أى مظهر شئت من مظاهر الروح الشعبى حين يودع راحلا عظيما ، أو يستقبل قادما كبيرا ، أو يحتج لأن شرا أريد به ، أو يبتهج لأن خيرا سيق إليه فستجد هذه المعانى كلها ممثلة فى هذا الروح أصدق تمثيل وأقواه . ولعل الذين يدرسون الاجتماع ويحققون أسراره ، ويحاولون أن يتبينوا خصائص الحياة الشعبية يجدون فى هذا كله مذاهب للبحث والتحليل ، ووجوها للدرس والتعليل ، ولكنى لاأريد إلى شىء من هذا الآن ، ولاأنكر فى شىء من هذا الآن ، إنما أريد أن ألاحظ ولست أشك فى أن كثيرا من المفكرين الذين شهدوا أمس يلاحظون أن من العسير جدا على الذين يتولون قيادة الشعب ويشرفون على تنظيم جهاده أن ييأسوا أو يقنطوا أو يجد الضعف إلى نفوسهم سبيلا ، وهم يريدون هذا الروح ويحسونه ويحيون بهذه النار المحرقة التى يبعثها فيهم قوية مشرقة أشد قوة وإشراقا من أن تؤثر فيها الأحداث والخطوب . وخاطر آخر حاولت أن أرده عن نفسى فلم أوفق إلى رده ، ولم استطع أن أخلص منه ، وهو هذا الذى تثيره المقارنة اليسيرة بين ماأبرق به رئيس الوزراء إلى الديلى تلغراف منذ يومين ، وما أعلنه الشعب إلى العالم كله أمس . فالتناقض بين هذين الأمرين واضح وضوحا شنيعا حقا .

رئيس الوزراء يعلن إلى الديلى تلغراف فى هدوء واطمئنان ، وفى جرأة وثقة أن الأمة مجمعة على الإنكار لحكم الوفد والنفور من العودة إليه ، لأنه سبيل الفوضى ، والشعب يعلن أمس إلى العالم كله فى قوة وحزم ، وفى شجاعة وثبات ، وفى يقين وإيمان أنه لايحب إلا الوفد ، ولايريد إلا الوفد ، ولايرضى إلا حكم الوفد .

ومن المحقق أنى لم أصدق الشعب أمس ، وإنما صدقت رئيس الوزراء ، ومازلت أصدقه وسأصدقه دائماحتى بعدأن يعود الوفد إلى الحكم ، لأنى واثق بأن رئيس الوزراء معصوم من الخطأ ، مبرأ من أن يقول غير الحق أو ينطق بغير الصدق ، أو يصور غير الواقع الذى لاشك فيه . فرئيس الوزراء إذا كان مصيبا حين أنبأ الديلى تلغراف بأن الأمة مجمعة على بغض الوفد وحكمه ولاتريد إلا الوفد وحكمه . وأكبر الظن أن الشرطة قد

رفقت أمس بهذه الألوف المؤلفة ورقت لها وأشفقت عليها من إصرارها على الخطأ وإمعانها فى الكذب فسلطت عليها مضخات الحريق ليطفىء هذه النار الكاذبة التى كانت تتأجج فى القلوب ، ولترد هذه الجماعات الجامحة المخطئة إلى الاعتدال والصواب . وأكبر الظن أن هذه الألوف المؤلفة قد انتفعت بهذا الدرس واستفادت من سبل هذا النصح البارد فآمنت كما أومن أنا بأن رئيس الوزراء كان مصيبا موفقا حين أنبأ الديلى تلغراف بأن الأمة مجمعة على بغض الوفد وحكمه وتصريفه للأمور .

وخاطر ثالث لاأشك فى أنه ألح على نفوس الناس جميعا أمس وهو أن تعاقب الليل والنهار ومضى الشهور أثر الشهور ، والعام أثر العام ، واختلاف الحوادث وتتابع الخطوب لم تغير من نفوس الناس شيئا ولم تسلط على عزائم الناس وهنا ، ولم تحدث بين الناس وبين التردد فى المطالبة بالحق ، والشك فى أن المستقبل للشعب سببا من الأسباب . وكان ناس يظنون أن قرب العهد وحده هو الذى بعث الشعب إلى موقفه العظيم من موت ويصا رحمه الله .

فقد مضى على موت ويصا عام وتبعه عام آخر . وامتلأ هذان العامان بألوان الفتن والمحن . فلما مات سينوت وقف الناس من موته موقفهم من موت صاحبه ، وأظهر الناس فى توديعه ماأظهروه فى توديع صاحبه وأقام الناس أسطع الأدلة وأنصع البراهين على أن حب الشعب المصرى للحرية وحرصه عليها وإكباره لحمايتها ليس تكلفا ولاتصنعا ولافنا من فنون البدع ، وإنما هو طبيعة لم يبق إلى تغييرها من سبيل مهما تنفق فيه القوى ، ومهما تسخر له الجهود ، ومهما يطل عمر الوزارات .

ولكن أعود فأؤكد أنى مصدق لرئيس الوزراء ، مقتنع بما قال من أن الأمة مجمعة على بغض الوفد وحكمه لأنه سبيل إلى الفوضى . وخاطر رابع قد خطر للناس جميعا أمس من غير شك ، ومن الحق على الناس جميعا أن يقفوا عنده ، وأن يطيلوا التفكير فيه ، ومن الحق أن يقف عنده الأجانب عامة والانجليز خاصة ويطيلوا التفكير فيه ، فقد كان سينوت قبطيا مسيحيا ، ومن الناس من يظن ، ومن الناس من يقول إن فتنة المبشرين قد فرقت مصر أو همت بتفريقها ، ومن الناس من يتخذ هذا الفرقة المتخيلة وسيلة إلى الكيد لمصر ولكن موت سينوت أظهر أنه قد وفق كل التوفيق فيما دعا إليه من إلغاء الفروق بين المصريين وإقامة الوحدة الوطنية هذا المقام العزيز .

فقد كان المصريون[1] أمس يودعون فقيدهم العظيم ، لا لأنه قبطى مسيحى ، ولالأنه مسلم ، بل لأنه مصرى فحسب . وقد كان المصريون يحتشدون أمس في الكنيسة القبطية ومن حولها ويشرفون عليها من أعلى الدور ، وهم لايذكرون إلا أن مصر قد فقدت زعيما من زعمائها ، وأنها محزونة لفقده ، وأنها ترافقه إلى حيث أراد الله أن يستقر جثمانه ، وأنها تمر معه بالكنيسة القبطية وتدخل معه هذه الكنيسة وتقف معه عند هذه الكنيسة ، لأن شعائر دينه تريد على أن يدخل الكنيسة وتستنزل عليه فيها رحمة الله .

إذن فقد فازت الوحدة الوطنية فوزا مبينا ، وكان راحل أمس مؤسس هذه الوحدة والداعى إليها والملح فيها . فهل يعتبر بهذا أولئك الذين يذكرون الفرقة بين المسلمين وغير المسلمين ؟ وهل يفكر فى ذلك أولئك الذين يتمنون هذه الفرقة فيعلموا أنهم يتمنون مالا سبيل إليه ، ويرجون مالايبلغه الرجاء . إن بين الناس من يخلقهم الله للنفع أحياء وأمواتا ، وكان سينوت من هؤلاء الناس ، نفع أمته حيا ، ونفع أمته وسينفعها ميتا . والله وحده قادر على أن يجزيه عن ذلك أحسن الجزاء .

---

(١) كان الانجليز يعملون على إثارة الفتنة بين عنصرى الأمة ، ولكنهم بهتوا حين رأوا الجموع الغفيرة تخرج باكية وتسير فى خشوع وراء نعش سينوت حنا بك .

ثم جاء اشتراك المجاهد الكبير مكرم عبيد فى الاحتفال بالمولد النبوى الشريف وهتاف الجماهير بحياته ضربة أخرى موجهة ضد خصوم الأمة

وكان مكرم عبيد قد سافر إلى فلسطين ، وخطب فى نادى جمعية الشبان المسلمين فكان مما جاء فى خطبته :

«إننى هنا فى نادى جمعية الشبان المسلمين أحس إحساسا صادقا أننى فى بيتى بين أهلى وخلانى . وأذكر لكم أننى قلت كلمة الايمان منذ سنوات فى حضرة زعيمنا الأكبر فقيدنا وفقيدكم المغفور له سعد زغلول ، قلت له : إننى مسيحى دينا ولكنى مسلم وطنا (تصفيق حاد) وإن هذه الرحلة المقدسة ليست فى حاجة إلى التبشير بها والدعوة إليها
(البلاغ فى ١٤ - ٨ - ١٩٣١)

يقظـــة

أما أن الوزارة يقظة لاتعرف النوم ، ساهرة لاتعرف الرقاد ، حذرة لا تعرف الإهمال ، متنبهة لا يمكن أن تؤخذ على غرة ، فهذا أمر واضح كل الوضوح ، جلى كل الجلاء ، لا يقبل الشك ولا يحتمل النزاع . واذا لم يكن بد من أن يقام الدليل على ذلك للمكابرين والممارين مع أن ذلك لا يحتاج إلى دليل فيكفى أن يفكر الناس فى أن خصما من الخصوم السياسيين للوزارة لا يقول كلمة إلا أحصيت عليه ، ولا يأتى حركة إلا علمت بها الوزارة ولا ينتقل من مكان إلا سبقته من عيون الحكومة وأرصادها طلائع وأتباع ، ولا يزوره زائر إلا نمى أمره الى السلطان ، ولا يتحدث إليه متحدث إلا عرف أمره فى ديوان . فإذا كنت تريد بعد ذلك يقظة ، وإذا كنت تريد فوق ذلك تنبها وحذرا فأنت عسير ، لا يعجبك العجب ولا الصوم فى رجب . ومع ذلك ففوق كل يقظة يقظة أخرى ، وفوق كل حذر حذر آخر أشد منه وأدق ، وأبلغ فى الحيطة وأقطع للشر ، وأحسم للداء . فالوزارة يقظة فى المراقبة ولكنها يقظة أيضا فيما هو فوق المراقبة ، فهى تبذل الممكن لتحول بين الناس وبين خصومها السياسيين تفرق هؤلاء الناس عن خصومها بالحار حينا والبارد حينا آخر ، وبالفاتر فى كثير من الأحيان .

فأما الحار فهذه العصى والسياط التى تعمل فى الجلود . وأما البارد فهذا الماء الذى يتدفق من مضخات الحريق . وأما الفاتر فأشياء بين ذلك ، منها الزجر والانتهار ، ومنها التهديد والوعيد ، ومنها الترغيب والترهيب ، ومنها ماشئت ومالم تشأ مما يطمع ويخيف . ومنها ما أحببت ومالم تحب من القطر المسلحة والسيارات المصفحة والخنادق المحفورة والأسوار التى ترفع إلى السماء .

فليس من سبيل إذن إلى أن ينكر منكر أن وزارتنا يقظة كل اليقظة ، حذرة كل الحذر ، متنبهة كل التنبه . وليس من سبيل إلى الشك فى أن رئيس وزارتنا كان موفقا كل التوفيق حين أبرق إلى الديلى تلغراف منذ أيام بأن غيبته عن مصر وإقامته فيها سواء ، لأن السياسة المرسومة لمصر فى هذه الأيام تجرى وستجرى على أحسن ماتجرى عليه السياسة

كوكب الشرق فى ٢٦ - ٧ - ١٩٣٣

فقد مرض رئيس الوزراء وكأنه لم يمرض ، وسافر رئيس الوزراء وكأنه لم يسافر ، ومضت حكومة رئيس الوزراء أثناء مرضه وأثناء سفره على ماكانت تمضى عليه أثناء صحته وإقامته من اليقظة والحذر ، ومن التضييق على الخصوم والمعارضين ، تسلك إليه كل سبيل وتنهج فيه كل يوم نهجا جديدا .

وليس من سبيل إلى الشك فى أن رئيس الوزراء يستطيع أن يتمثل الآن قول الشاعر القديم :

إذا أيقظتك خطوب الزما .·. ن فنبه لها عمرا ثم نم

فهو يستطيع أن يتمثل هذاالبيت وأن ينام ملء جفونه ويتنفس ملء رئيته ويستمتع بالراحة والهدوء طول الصيف فقد نبه عمرا ، وعمرو هو وزير الداخلية الذى لاينام ولاخوف عليه من أن ينام

ولكن اليقظة الانسانية محدودة ككل ما يضاف إلى الإنسان ، فقد يستطيع وزير الداخلية[1] أن يأرق الليل والنهار ، ويبذل من الجهد مالا يبذله غيره فى بلد من البلاد ، ثم لايظفر بعد ذلك بما يحب ومانحب نحن من ضبط الأمن وإقرار النظام وحماية الأنفس والأموال . وليس ينبغى أن يؤخذ وزير الداخلية بهذه الحوادث الكثيرة العنيفة التى تحدث متصلة مطردة فى أرض مصر والتى تزهق فيها الأنفس وتسفك فيها الدماء وتكثر فيها الجراحات ، وتنهب فيها الأموال . فوزير الداخلية مهما يكن رجل من الناس ، له قوة المتفوقين وفيه ضعف الناس على كل حال . والله وحده هو القادر على أن يعصم النفوس من أن تزهق والدماء من أن تسفك ، والأموال من أن تسرق ، والحرمات من أن يعتدى عليها لأن الله وحده هو الذى لايمكن أن يفوته آثم ، ولايفلت من سلطانه مفلت مهما يكن قويا ماكرا .

وعلى هذا النحو تستطيع كل وزارة أن تعتذر حين تفلت الأمور من يدها ، وحين تتفرق الأمور عليها ، وحين لاتوفق من ضبط الأمن وحماية النظام إلى ماتريد . أما فى غير مصر فيقبل منها هذا العذر لأنه لايقدم إلا مقرونا بشيء آخر ، هو الاعتراف بالضعف والعجز والاستقالة من النهوض بما لايمكن النهوض به ، والقيام بما لايمكن القيام به . يقبل العذر ، وتقبل الاستقالة . ويكلف بحماية الأمن والنظام قوم آخرون لعلهم أن يكونوا أقدر على حماية الأمن والنظام ، فإن وفقوا فذاك وإلا قدموا العذر والاستقالة فيقبل العذر والاستقالة مرة أخرى .

---

(١) وزير الداخلية فى ذلك الوقت هو محمود القيسى باشا ، وكان ضالعا مع الانجليز .

وأما فى مصر فالوزارة لاتقدم عذرا ، ولااستقالة . وإنما يلتمس لها الناس العذر فتقره أولا تقره ، وترضاه أولا ترضاه . وثق بأن وزارتنا القائمة لن تقبل هذا العذر الذى تلتمسه لها لأنها لاتسلم ولايمكن أن تسلم بأن الأمن مضطرب ، وبأن النظام ضعيف وبأن حياة الناس وأموالهم ليست من الصيانة بحيث يجب أن تكون فى بلد متحضر يعيش فى القرن العشرين ، لن تسلم الوزارة بهذا ، ولن تقبل الاعتذار . فأما الاستقالة فشىء لايمكن التفكير فيه .

ومع ذلك فالوزارة نفسها تعترف بهذا العجز وتعترف به على نحو يخيل إلينا أنه لايليق بالوزارة القوية العزيزة ذات الشأن الرفيع والسلطان المنيع . وأى اعتراف أوضح وأجلى وأشد خطرا على سمعة الوزارة وسمعة مصر من هذا القرار الذى اتخذه وزير الداخلية منذ أسبوع فألغى به إجازات المأمورين ورؤساء الشرطة فى مصر كلها طول فصل الصيف . ومتى اتخذت وزارة من الوزارات مثل هذا القرار فى غير أيام الخطر الداهم الذى تتعرض فيه سلامة الدولة وأمنها للاضطراب .

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، فقد ظهر أن حرمان المأمورين ورؤساء الشرطة حقهم من الراحة أثناء الصيف لايكفى لتكون يقظة وزير الداخلية مجدية منتجة . وهذه الصحف ذكرت أن المديرين رفعوا من أقاليمهم إلى وزير الداخلية مطالب يلحون فيها أن تزاد قوة الشرطة فى الأقليم ، لأن مابين أيديهم من القوة لايكفى ولايمكنهم من حماية الأمن بعد أن كثرت الجرائم فى هذه الأيام كثرة خاصة .

ويظهر أن وزير الداخلية قد عنى بهذه المطالب ولكنه عنى بها فى رزانة وأناة وهدوء فلم يتسرع بإمداد المديرين بما يطلبون إليه من المدد ، وإنما أراد أن يدرس فيتقن الدرس ، ويبحث فيحسن البحث ، ويرسل الإمداد حين يثبت له أن إرسالها أمر لامندوحة عنه ولاسبيل إلى الإبطاء فيه . وكذلك ألف وزير الداخلية لجنةبرياسة أحد الوكيلين ، برياسة الوكيل المقيم الذى لم يسافر ليستريح ، وكلف هذه اللجنة أن تدرس اقتراح المديرين وتستعرض أمر الشرطة فى كل إقليم وتقيس عدد الشرطة فى كل إقليم إلى عدد السكان . وقد اجتمعت هذه اللجنة مرة فى القاهرة ، فدرست واستعرضت ، ثم أرجأت الاجتماع إلى يوم يحدد فيما بعد ، وقد يكون هذا الاجتماع فى الاسكندرية حيث يصطاف الوكيل ، وحيث يصطاف الوزير . وسينتهى الدرس من غير شك اليوم أو غدا أو بعد غد إلى أن عدد الشرطة ملائم أو غير ملائم لعدد السكان ، ثم إلى قبول الاقتراح الذى يقدمه المديرون أو الإعراض عنه ، ولكن تنبئنا الصحف فى أثناء هذا كله بأن اضطراب

الأمن يزداد من يوم إلى يوم ، ويشتد من حين إلى حين . وهذا نبأ نقرأه صباح اليوم يحدثنا بأن أسرتين اختصمتا فى قرية من قرى الصعيد فدارت بينهما رحى القتال كما يقولون ، وأطلق الرصاص ، ولعب السلاح الأبيض ، ولعبت العصى والنبابيت وانجلت الموقعة بعد ساعة عن أربعة قتلى وعن خمسة وعشرين من الجرحى ، بينهم عشرة قد أصيبوا بجراحات خطرة بالغة . ومصدر هذه المعركة – فيما تقول الصحف ضغائن قديمة بين الأسرتين ، والذين مكن هؤلاء الناس من أن يقتتلوا ويفنى بعضهم بعضا ، هو فى أكبر الظن أن عدد الشرطة فى ذلك الإقليم وفى ذلك المركز ، وفى تلك القرية لم يكن ملائما لعدد السكان . وكم نحب أن نعرف معنى هذه الملاءمة كيف تكون وبم تتحقق ؟ فهل يكفى لكل عشرة من السكان شرطى ؟ أم هل يجب لكل مائة من السكان شرطى ؟ أم هل يجب لكل ألف من السكان شرطى ؟

مسألة مشكلة تحتاج من غير شك إلى درس طويل ولكن هذا الدرس الطويل لن يسعف المديرين والمأمورين الذين ألغيت إجازاتهم والذين يعجزون عن إقرار الأمن وحفظ النظام .

ألا يرى وزير الداخلية أن الخير إنما هو فى أن يتلمس دواء أسرع وأنجع من المقارنة بين عدد السكان وعدد الشرطة . وهذا الدواء نعرفه نحن ، ويعرفه الناس جميعا ، وتعرفه الوزارة حق المعرفة ، ولكنها لاتريد أن تأخذ شجاعتها بكلتا يديها وأن تقدم عليه . هذا الدواء هو الاستقالة . فاستقالة الوزارة وحدها هى التى ترد الأمن إلى الاستقرار وترد النظام إلى الثبات ، لأن مانحن فيه من فساد ليس مصدره أن بقاء الوزارة قد أفسد الشئون العامة ، وزعزع ثقة الناس بكل شىء ، وشكك الناس فى قيمة الحياة والأموال والحرمات . وإلا فلم يكن عدد الشرطة فى عهد الوزارات السابقة أقل ملاءمة لعدد السكان منه الآن . ولم يكن أمر الأمن والنظام فاسدا كما هو الآن ، ولم يظهر عجز الوزارة عن ضبط الأمن ووضع اليد على المجرمين فى سرعة كما يظهر الآن .

هذا هو الدواء الصحيح ، ولكن قلت لك إن الوزارة لن ترضاه فهناك دواء آخر لا يحسم الداء ولكنه يخفف شره بعض الشىء . وهو أن يسير وزير الداخلية فى الناس سيرة زياد فى أهل العراق فيشتد على المجرمين ما استطاع ويضمن فى الوقت نفسه لمن تقع عليهم الجرائم ما يصابون به من الأنفس والأموال . ومعنى ذلك أن تدفع الحكومة إلى كل أسرة يقتل أحد أبنائها دية القتيل وإلى كل أسرة يجرح أحد من أبنائها دية ماأصابه من الجراحات ، وإلى كل أسرة يسرق منها شىء قيمة ماسرق منها قل أو كثر .

فالحكومة – بحكم وجودها – ضامنة للناس الأمن على الأنفس والأموال . فإذا عجزت عن تحقيق هذا الأمن وأبت مع ذلك أن تستقيل فلابد من أن تعوض على الناس مايخسرون لعجزها وقصورها . ستقول : وأين تجد الحكومة ديات الذين يصرعون من القتلى والجرحى وقيمة مايسرق من الأموال والعروض ؟ والجواب على ذلك يسير لا ينكره إلا من ليس له قلب يشعر أو عقل يفكر ، فأنا أؤكد أن حياة مصرى واحد من هؤلاء الذين يصرعون فى كل يوم أحب إلى مصر وأعز عليها وأنفع لها من مؤتمر الطيران ومن مؤتمر البريد ومن مؤتمر السياحة ومن مؤتمر السكك الحديدية ومن مؤتمر الموسيقى الشرقية . حياة مصرى واحد أنفع لمصر من هذه المؤتمرات كلها مجتمعة

فيجب على الوزارة أن تنصرف عن سياسة المؤتمرات وعن سياسة الدعاية فى الخارج ، وعن سياسة الترف كلها وأن ترصد الأموال التى تنفقها فى هذه السبيل للتعويض على الأسر التى يقع فيها القتل ، أو تقع عليها السرقة لعجز الوزارة عن حماية الأمن .

ولعلك توافقنى على أن مصر تؤثر ألف مرة ومرة أن تنفق الحكومة على هذه الأسر البائسة وتحميها من الجوع والحرمان على أن تدعو فى الشتاء جماعة الممثلين والممثلات ، والراقصين والراقصات لتلهية الأجانب والمترفين فى القاهرة.فليفكر وزير الداخلية اليقظ فى هذا الاقتراح ، وله أن يعرضه إن شاء على هذه اللجنة التى تقارن بين عدد الشرطة وعدد السكان .

نظـام

كره الحكماء فى كل وقت وفى كل مكان وفى كل جيل تجاوز الحد ، وضاق الحكام فى كل وقت وفى كل مكان وفى كل جيل بالغلو والإسراف وأحبوا دائما أن يكون القصد والإعتدال قوام مايأتى الناس من عمل ، وماينهجون من نهج فى الحياة . ويخيل إلينا أن علماء الدين هم أحق الناس برعاية القصد والحرص على الاعتدال ، وهم أحق الناس بتجنب الإفراط وتجنب التفريط معا .

فإذا كان الإسراف عيبا فالتقصير عيب آخر . وعلماء الدين أجدر الناس أن يتجنبوا كل عيب وأن يتجنبوا بنوع خاص عيب الإفراط وعيب التفريط لأنهماً مصدر كثير من الرذائل وسبيل كثير من الآثام . وقد قصر علماء الدين فى ذات الدين تقصيرا شديدا آخذهم به الناس ولاموهم عليه . فوقفوا صامتين جامدين من أمور ماكان ينبغى لهم فيها الصمت ولا الجمود . وتركوا غيرهم من الذين لم يتخذوا حماية الدين صناعة ولا الذود عن الدين مهنة ، ولم يتقاضوا على ذلك من الدولة أجرا ، ولم ينالوا فى ذلك من الدولة والناس ضروب التشريف والتعظيم ، تركوا غيرهم من هؤلاء الناس يعملون ويقولون ، ويدفعون ويذودون ، ومهما يقل القائلون فإن بلاء غير الأزهريين فى حماية الدين والذود عنه أعظم ألف مرة ومرة فى هذه الأعوام الأخيرة من بلاء الأزهريين .

ولم ينس الناس بعد موقف الأزهريين من المؤتمر الاسلامى الذى عقد فى بيت المقدس ، ولا موقفهم من هذه الأحداث التى ألمت بالمسلمين فى بلاد العرب من مراكش إلى طرابلس ففتنت جماعة منهم عن دينهم ، وآذت جماعة منهم فى أموالهم وأنفسهم وحرماتهم . ولا موقفهم من مقتل الشهيد[1] الطرابلسى ، ولا من مرض الإمام السنوسى ووفاته وصلاة الغائب عليه .

لم ينس النـاس مواقف الشيوخ الأزهريين من هذه الأحداث كلها ، ولا من هذا

كوكب الشرق فى ٢٧ - ٧ - ١٩٣٣

(١) المراد عمر المختار

الحدث الأخير الذى أصاب المسلمين فى كرامتهم ودينهم كما أصاب المصريين جميعا فى كرامتهم ودياناتهم بما كان من اعتداء المبشرين الظاهر والخفى على الفتيان والفتيات ، والبائسين والضعفاء . فقد صمت شيوخ الأزهر فأطالوا الصمت ، وهدأ شيوخ الأزهر فأطالوا الهدوء ، واضطربت نفوس المسلمين والمصريين من حولهم أشد الاضطراب ونفوسهم هادئة ، وخفقت قلوب المسلمين والمصريين أشد الخفقان وقلوبهم مطمئنة مستقرة فى الصدور . وضج الناس من صمت الشيوح ، وضاق الناس من صمت الشيوخ ، وضاق الناس بجمود الشيوخ ، وألح الناس فى الصحف المصرية الإسلامية على الشيوخ فى أن يغضبوا للإسلام ويظهروا شيئا من الاستعداد للذود عنه والقيام عليه . وظل الشيوخ صامتين ، هادئين حتى نهض غيرهم فقال ونهض غيرهم فعمل . ثم أذن الله للشيوخ فاجتمعوا وقرروا ، ثم قالوا ومضوا يقولون ، وعملوا ومضوا يعملون ، ولم نتردد نحن حين أخذ الشيوخ فى القول والعمل فى أن نعرف لهم ذلك ونثنى عليهم ونشجعهم على المضى فيه ، وندعو الناس إلى أن يثقوا بهم ويطمئنوا إليهم ويغتبطوا بأنهم قد أخذوا يقومون بما هيئوا للقيام به . فكان صمت الشيوخ العميق ، وسكون الشيوخ الطويل تورطا فى التقصير الذى يعاب به علماء الدين بنوع خاص إن آثروه وقصدوا إليه فى غير تورط ، ولا اضطرار ، ولكنا مع ذلك نسينا للشيوخ هذا التقصير وألححنا على الناس فى نسيانه وقلنا إن الحركة المتأخرة خير من السكون الدائم والجمود المقيم .

ولكن الشيوخ فيما يظهر محتاجون إلى شىء من التجربة حين يقصدون إلى الأعمال العامة ، أو يندفعون إليها لأنهم لم يجربوا هذه الأعمال كما ينبغى ولم يأخذوا بحظهم من ممارستها . فهم مضطرون بحكم هذا الإهمال وهذا البعد من مشاركة الناس فى حياتهم العامة إلى أن يتورطوا فى أحد العيبين : فإن سكنوا أغرقوا فى السكون ، وإن عملوا أسرفوا فى العمل ، واندفعوا فيه إلى غير حد ، أو إلى حد كان يحسن ألا يبلغوه . فالذى كان يطلبه المسلمون من الشيخ الأكبر وأصحابه لم يكن عسيرا ، ولاشاقا ولامعقدا . إنما كانوا يطلبون إليهم أن يغضبوا لدينهم ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، ويوجهوا أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر إلى الأمة والحكومة معا فيطلبوا — وقد فعلوا — إلى الأمة أن تفطن لكيد المبشرين ، وتصرف صبيانها وضعفاءها عن معاهدهم ، وتنشىء مايغنى عن هذه المعاهد الخطرة . ويطلبوا إلى الحكومة — ويقال إنهم قد فعلوا — أن تنهض بواجبها على أحسن وجه فتكف المعتدى عن عدوانه ، وتحمى المصرى من هذا العدوان . وتتخذ إلى ذلك سبلها السياسية والإدارية والمالية والقضائية فتنشىء الملاجىء وتغلق معاهد العدوان وتنفى الآثمين من الأرض .

ولم يكن المسلمون يطلبون إلى شيوخ الأزهر أكثر من أن يدعوا إلى ذلك ويلحوا فى الدعاء حتى تستجيب لهم الأمة وتستجيب لهم الحكومة ولكن شيوخ الأزهر اندفعوا فيما يظهر إلى أبعد مما كان يطلب منهم ، بل إلى أكثر وأثقل مما يطيقون حتى وإن أيدتهم الوزارة وشدت أزرهم وحمت أظهرهم ، واحتكرت لهم وحدهم فى غير موافقة للدين أمر حماية الدين ، والدعاء إليه

فهاهم أولاء ينظمون الجماعات ويؤلفون اللجان الخاصة والعامة ، ويحاولون أن يبثوا لجانا فرعية فى أقطار مصر ، ويجعلوا أنفسهم لاحماة للدين ، وذادة عنه فحسب ، بل جباة للمال ، ومدبرين له أيضا . وهذا نظامهم الذى أذاعوه يدل دلالة واضحة على أنهم لايكتفون بالدعاء إلى الله ، والهداية إلى سبيل الله بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة ، وإنما يريدون أن يكونوا قوة عاملة منظمة أصلها فى الأزهر وفرعها فى أطراف الأرض لها مجالس ولجان وخزانة وخزان ، ولها أسرار وأمناء أسرار ، ولها محفوظات وأمناء على هذه المحفوظات ، وفيها آمر ومأمور ، وفيها مقترحون ومنفذون إلى آخر هذا النظام المعقد الذى نشرته الصحف منذ أمس والذى هو أشبه بنظم الجماعات والأحزاب منه بما تحتمله الهيئة الموقرة من رجال الدين .

نعم إن الهيئة حظرت على نفسها العمل فى السياسة أو التعرض لها ، ولكن يقال – وكم نحب أن يكذب هذا الذى يقال – إن الهيئة لم تستطع أن تخلص من السياسة أو مما يشبه السياسة ، فقد اجتمعت واجتمعت ولم تدع بعض أعضائها إلى شهود هذه الاجتماعات والاشتراك فيها . والناس يتأولون هذا الإهمال ويذهبون فيه المذاهب . ويقال – ولا سبيل إلى تكذيب هذا الذى يقال – إن الهيئة قد قبلت من الحكومة هذا الاحتكار الذى وقف عليها وحدها ، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى قصة المبشرين . وكان الحق عليها للدين ولنفسها ألا تقبل هذا الاحتكار المعيب ، فالأمر بالمعروف حق المسلمين جميعا ، وواجب على المسلمين جميعا . وقبول الهيئة هذا الاحتكار ممالأة للحكومة عما لم يكن ينبغى أن تمالئها عليه أو هو على كل حال إذعان للحكومة فيما لم يكن ينبغى أن تذعن لها فيه . وسواء أكان الأمر ممالأة أو إذعانا فهو مجاراة للسياسة وتورط فيها . ويقال – ونظام الهيئة هو الذى يقول ذلك – إن الهيئة قد اتخذت لنفسها لجنة تنفيذية تتألف من أعضاء قليلين لا يتجاوزون الخمسة ، فيهم الشيخ الأكبر ووكيله ومفتى الديار . وجعلت لهذه اللجنة سلطانا طويلا ، عريضا عميقا ، لايفلت منه شىء ولايشذ عنه شىء وليس لشىء عليه سبيل . فلجنة العلماء لاتستطيع أن

تعمل ولا أن تقول ولا أن تنشر إلا إذا أذنت لها لجنة الخمسة . وكذلك لجنة المال وكل أعمال الهيئة مهما يكن موضوعها وأغراضها رهينة بلجنة الخمسة . فلجنة الخمسة هذه مسيطرة على رجال الدين جميعا فيما يعملون ويقولون للدعوة إلى سبيل الله . وهذا أيضا نوع من الاحتكار غريب ، وضرب من الاستئثار يذكر بنظم الأحزاب التى تريد أن تكون قوية واسعة السلطان ، بعيدة الأثر فى الحياة .

كل هذا كثير ، وكل هذا معقد ، وكل هذا يدعو إلى التفكير فى أن الهيئة تسير فى طريق قد لايحبها المسلمون ، لأنها لاتلائم طبيعة الحياة الإسلامية ، ولأنها أقرب إلى تنظيم حزب للأكليروس لايحتمله الإسلام ، لأنه ينافى طبيعته السهلة اليسيرة .

ولعل الهيئة تحسن الظن بنفسها وبالناس وتحسن النصح لنفسها وللناس إن عدلت عن كل هذا التعقيد الذى لاحاجة إليه والذى لايحتمل البقاء الطويل ، ولايستطيع أن يثبت لتغيرات الأيام والظروف فاكتفت بالدعوة إلى الخير توجهها إلى الأمة والحكومة ، وتلح فيها ، وتركت العمل للقادرين عليه . فهى إذا جمعت من أموال العلماء مقدارا ضخما أو نحيفا خليقة أن تدفعه إلى الحكومة أو إلى جماعة من جماعات الخير لتدبره وتنفق منه فى الوجوه التى جمع لها ، وهى غنية عن تنظيم اللجان وبثها فى القرى والمدن والأقاليم . فهذا نوع من النشاط غريب بالقياس إلى هيئة الشيوخ ، لايستطيع الناس أن يفهموه ولا أن يألفوه ، ولا أن يطمئنوا إليه . ونحب مخلصين أن يطمئن الناس إلى مايصدر عن رجال الدين ، إن التقصير عيب ، والإسراف عيب . وقد تورطت الهيئة فى العيبين فيما يظهر . فهل لها أن تخرج من الإسراف كما خرجت من التقصير ، وأن تؤثر ما يأمر الله به من القصد والاعتدال ؟

حيـرة

لم يكن موفقا ولا مهديا ذلك الصديق الانجليزى القديم لرئيس الوزراء ووزارته القائمة حين أبرق إلى صحيفته الديلى تلغراف بتلك الرسالة المشئومة التى نشرت منذ عشرة أيام .

لم يكن موفقا ولا مهديا ، لا لأنه أخطأ الحق أو جاوز الصواب فى أكثر ماقال ، فعلم ذلك عند الله ، وعند الراسخين فى العلم بأمور السياسة المصرية العليا أثناء هذا الصيف ، ولكن لأنه وصل من إيذاء الوزراء والتنغيص عليهم إلى أبعد مما كان يريد فى أكبر الظن فما نعلم أن الصداقة بينه وبين الوزارة القائمة قد قطعت أو آذنت بالزوال ، ومانظن إلا أنه كان يريد أن ينبىء صيحفته وقراءها ببعض الحقائق الواقعة أو ببعض الأشياء التى طلب إليه أن يصورها فى صورة الحقائق الواقعة ، ولعله لم يبخل على نفسه بغمزات خفيفة ينال بها الوزراء ورئيسهم المتعب المكدود فتجاوز هذا كله إلى الإزعاج وتجاوز هذا كله إلى مايورط الوزراء فى حيرة ليس بعدها حيرة ، وارتباك ليس بعده ارتباك . ومن يدرى ؟ ففى الانجليز مكر ليس من اليسير أن تصل إلى أعماقه أو أن تبلغ حدوده . فلعل هذا الكاتب أن يكون قد أراد امتحان الوزارة والوزراء ، وإقامة الدليل الساطع والبرهان الناصع على أنها أضعف من أن تنهض بأعباء الحكم ، وأوهى من أن تثبت لحوادث الأيام . فإن كان قد أراد ذلك فقد ظفر به كل الظفر ، ووفق إليه كل التوفيق وأقنع الانجليز فى انجلترا بما لم يكن يعلمه كثير منهم ، وأقنع المصريين فى مصر بما كانوا يؤمنون به جميعا من أن الوزارة ضعيفة أشد الضعف ، واهنة أشد الوهن ، يخيفها كل شىء ، ويزعجها كل شىء ، وينقصها هذا الرئيس القوى الذى كان ينفخ فيها من روحه فيمكنها من الثبات للحوادث ومناهضة الخطوب .

كوكب الشرق فى ٢٨ - ٧ - ١٩٣٣

لست أدرى أقرأت هذه الخطب التى ألقيت أمس فى حفلة الوداع التى أقيمت لوزير التقاليد ، فإذا لم تكن قرأتها فانظر فيها ، فقد نشرت خلاصتها الأهرام صباح اليوم ، وسترى فى هذه الخطب ذكرا لرسالة « الديلى تلغراف » ووقوفا عند رسالة « الديلى تلغراف » وانصرافا عن غيرها مما كان يمكن فيه الحديث ، وسترى أن الذين خطبوا من الوزراء وأنصار الوزراء قد تورطوا فى تناقض أقل مايوصف به أنه بديع لايدعو إلى الإغراق فى الضحك ، وإنما يدعو إلى هذا الابتسام الخفيف . فهم ينكرون كل الإنكار أن تكون لهذه الرسالة قيمة أو أن يكون لها خطر ، أو أن يكون لها تأثير قليل أو كثير فى الموقف السياسى للوزارة ، وهم يؤكدون أشد التأكيد أن الوزارة أقوى وأثبت وأمتن من أن تتأثر بكلام المكاتبين ، أو تحفل به ، أو تأبه له ، ولكنهم فى الوقت نفسه يتناولون الرسالة بالرد والنقد وبالتحليل والتأويل ، ويتناولون صاحبها بالتكذيب والتثريب ، وبالتقريع والتأنيب . فإحدى إثنتين : إما أن تكونوا مصورين لما تشعرون به حقا ، وتؤمنون به حقا من أن الرسالة لاخطر لها ولا أثر : وإذن فارفعوا أنفسكم ومنازلكم عن ذكرها والإشارة إليها .

وإما أن تكونوا متكلفين فيما تظهرون من القوة ، وتعلنون من الثقة ، وإذن فاحتاطوا ماوسعكم الاحتياط حتى لايظهر هذا الضعف ولايحسّ الناس هذا الاضطراب . ولكن أصحابنا لم يستطيعوا أن يملكوا أنفسهم ، ولا أن يضبطوا عواطفهم فمضوا يسخرون من هذه الرسالة ويكبرون هذه الرسالة . ينكرون قيمتها ويجادلون فيما اشتملت عليه ، ولعل هؤلاء السادة يعلمون إذا خلوا إلى أنفسهم أن حفلة الوداع التى ستقام اليوم أو غدا – لاأدرى – لوزير الزراعة لم يفكر فيها ، ولم يقصد إليها إلا لمحاولة أن يمحو الخطباء مايمكن محوه من آثار هذه الرسالة ، ولعلهم لولا هذه الرسالة مافكروا فى هاتين الحفلتين . وهم لم يوفقوا فى حفلة أمس – كما رأيت إلا إلى إظهار حيرتهم واضطرابهم ، ولن يوفقوا فى الحفلة الأخرى إلا إلى الغلو فى إظهار هذه الحيرة وهذا الاضطراب .

والظريف ان هؤلاء السادة يعلنون أمس أنهم لم يحفلوا قط وماكان ينبغى لهم أن يحفلوا بهذه الرسالة وينسون أنهم قد حفلوا بهذه الرسالة فأسرفوا ، وأنا قد عاتبناهم فى ذلك ولمناهم عليه . فهم قد أزعجوا رئيسهم المريض فى مصيفه فأبرقوا إليه بهذه الرسالة فيما قالت الصحف ، واضطروه إلى أن يرد عليها ذلك الرد الذى لم يوفق فيه إلى شىء ، لأن أعنة البيان قد أفلتت من يده التى أضعفها المرض . وهم قد اتصلوا بوزيرنا المفوض فى

لندرة فيما تقول الصحف أيضا فطلبوا منه التوضيح والتبيين ، ولعلهم سألوه المعونة والغوث ، وهم قد أغروا بالرسالة صحفهم الصريحة والموالية وهم قد خطبوا أمس فألحوا على هذه الرسالة بالنقد والتفنيد ، وهم سيخطبون اليوم أو غدا وسيلحون على هذه الرسالة بالنقد والتفنيد ، وهم بعد هذا كله لايعنون بهذه الرسالة ولايلتفتون إليها ، ومن يدرى ؟ لعلهم موفقون في هذا أيضا إلى الحق ، ولعلهم لوعنوا بهذه الرسالة حق العناية لفعلوا غير مافعلوا ، ولقالوا غير ماقالوا ، ولأمر وزير التقاليد المدارس والجامعة ففتحت أبوابها وحشدت طلابها وألقيت فيها الدروس والمحاضرات فى نقد هذه الرسالة وتكذيب ماجاء فيها من الأنباء ، ولعلهم لوعنوا بهذه الرسالة حق العناية لأمروا الكتاب البارعين من أنصارهم أن يؤلفوا فيها الكتب والأسفار ينتقدونها وينقضونها ويفندونها ويرفضونها ولرأينا كتبا تذاع ورسائل تباع وأسفارا تشاع فيها مابستطاع وما لايستطاع . وعليها مثل هذا العنوان « العدل والإنصاف فى نقد مطاعن الديلى تلغراف » أو مثل « نحن لانخاف من الديلى تلغراف » ومايشبه ذلك من العنوانات .

فلنصدق سادتنا إذا قالوا ولنؤمن لهم إذا خطبو ، فهم لم يحفلوا حقا بهذه الرسالة ، ولم يلتفتوا إليها وأوضح دليل على ذلك أن وزير الأوقاف خطب فلم يذكر الأوقاف وإنما ذكر الديلى تلغراف وأن وزير التقاليد خطب فلم يذكر الجامعة ونظامها ، ولا المجمع اللغوى ولا التعليم الأولى ، ولا البعثات وكتب المبعوثين ، وإنما ذكر الديلى تلغراف .

نعم إن وزير التقاليد لم ينس التقاليد . وكيف ينساها ومتى استطاع وزير التقاليد ان ينسى نفسه . فالتقاليد جزء مقوم لوزير التقاليد . ولقد كان موفقا توفيقا يحسده عليه زملاؤه جميعا ، وأولهم الرئيس ، رئيس الوزراء بالطبع فقد سحق بعض خصومه سحقا ، ومحقهم محقا ،وازدارهم ازدراء ،ولم يدع سبيلا إلى حمايتهم أو الذود عنهم . انظر إليه كيف استكشف العميق الضخم الهائل المائل ، وهو أن بعض الذين يخاصمونه لايرعون التقاليد ، يكتبون عن النبى « صلعم » فيذكرون اسمه الشريف دون أن يقدموا بين يديه بسيدنا ، ودون أن يعقبوا عليه بالصلاة والسلام . إذا ذكروا أسماءهم هم أحاطوها بمالهم من الرتب والألقاب ، فهم إذن يؤثرون أنفسهم بالتعظيم والتكريم . ماذا ؟ أراك تقرأ وتبتسم ، ثم لا تلبث أن تثب إعجابا ولاتسجد إعظاما ، ولاتصفق من الطرب ، ولاتجد فى الهرب . وأرى الذين من حولك يقرأون ويسمعون ، ثم يعرضون أو يبتسمون ماذا ؟ إنما أنت أيها القارىء وأصحابك ناس من أهل القرن العشرين ، لا تعيشون إلا فى هذا القرن ، ولاتفهمون إلا مايلائم هذا القرن . فأنتم معذورون لأن

وزير التقاليد قد جاء قبل أوانه ، وظهر قبل إبانه وكان حقه أن يجيء بعد قرن أو قرنين ليفهمه الناس ويقدروه . أما أنتم فمتأخرون ، لاتستطيعون له فهما ، ولاتحسنون له قدرا . أنتم كغيركم من الناس لاتزالون تظنون أن ذكر أسماء العظماء كما هى مطلقة مجردة من الألقاب هو أبلغ أنواع التعظيم ، وأرقى أنواع التكريم . هذا كلام قديم تفهمونه أنتم . أما شيخ المعلمين ورئيس الجامعة الأعلى ومنشىء المجمع اللغوى فله فى هذا مذهب غير مذهبكم ، ولا عليه إذا لم تفهموا فسيفهمه قوم آخرون جاءوا منذ قرون ، أو سيجيئون بعد قرون .

فأنت ترى أن وزير التقاليد كان فارغ البال بعض الشىء، وقف عند « الديلى تلغراف » فأطال الوقوف ، ولكنه وقف عند التقاليد فأمتع وأبدع وأفزع وروع ، وهدم الحصون والقلاع ، وأطرب الأنصار والأتباع ، فاللهم بارك لمصر فى شيخ معلميها وإمام مؤدبيها وزعيم التقاليد فيها .

وأنت مخطىء كل الخطأ إن ظننت أن الحيرة مقصورة على الوزراء وأنصار الوزراء من الذين يخطبون ويستمعون للخطب فللوزراء صحف تنشر الفصول الطوال فى الخصام والجدال . وهذه الصحف مرآة للوزراء ، تظهر فيها نفوسهم وقلوبهم ، وتظهر فيها أشكالهم وألوانهم . وفى هذه الصحف حيرة يالها من حيرة وارتباك ياله من ارتباك . فأما صحيفة « الشعب » فقد ظهرت اليوم فزعة جزعة ، يائسة بائسة ، تنكر أن تكون فى مصر حكومة وترى أن لو كانت فى مصر حكومة حقا لعرفت كيف تحكم . فهذه ألمانيا تهيىء القوانين التى تقضى بالموت على الذين يخاصمون هتلر ، أو يفكرون فى خصومته ، وتنشىء المحاكم الخاصة لتقضى بالموت على هؤلاء الخصوم . وصحيفة « الشعب » كريمة رحيمة ، لاتريد لخصوم الوزارة موتا ولا قضاء بالموت ، وإنما تريد أن تشرع لهم قوانين خاصة فيها عقوبات أشد جدا من هذه المحاكم التى ألفوها ، وأن تغير فى قانون تحقيق الجنايات هذه الإجراءات التى تحول دون الإسراع فى البأس ، والإلحاح فى البطش . فإذا لم تفعل الحكومة هذا فليست حكومة . واحذر أن تنسى أن الوزارة قوية كل القوة ، عزيزة كل العزة ، منيعة كل المناعة . ولولا ذلك لما أعلن أنصارها أنها مفلسة كل الإفلاس إذا لم تشرع هذه القوانين الاستثنائية ، ولم تأخذ الناس بمثل مايريد هتلر أن يأخذهم به من ضروب الظلم والطغيان .

وأما صحيفة « الاتحاد » فمعتدلة جدا ، متواضعة جدا ، مقتصدة جدا ، لاتطلب الاستثناءات ولاتغيير الإجراءات ، ولكنها ترى هيئة كبار العلماء فى خطر ، لأن الناس

ينقدونها ويقولون فيها غير ماتحب . وإذن فماذا تصنع النيابة ؟ وماذا تصنع الوزارة ؟ وكيف يحمى الدين من المبشرين إذا لم يحم رجال الدين من الناقدين ؟

نعم هذه حال الوزارة وأنصارها . خوف من « الديلى تلغراف » يبلغ الفزع ، وخوف من المعارضة فى مصر يبلغ الجزع . والتجاء إلى الاستثناء واعتراف بأن القوانين القائمة على شدتها وصرامتها لاتكفى لإقرار الوزراء على كراسيهم . والوزارة بعد ذلك قوية كل القوة ، عزيزة كل العزة ، منيعة كل المناعة . فإن استطعت أن تفهم هذا كله ، وتلائم بين ما فيه من التناقض والاضطراب فأنت رجل ذكى وإلا فإن الله قد ابتلى كثيرا من الناس بالغفلة والغباء .

تنافس

هما حزبان شقيقان لأم وأب لم يقع بينهما خلاف ، ولن يقع بينهما خلاف . لم تكن بينهما فرقة ولن تكون بينهما فرقة . أصدق تصوير لما بينهما من ألفة ومودة ، ومن صلة لن تنقطع وحب لن يصيبه الصدأ هو قول الشاعر القديم :

رضيعى لبان ثدى أم تقاسما .·. بأسحم داج عوض لانتفرق

ولايتفرق الحزبان إن شاء الله فقد نهضا بالحكم معا ، وأقاما فى الحكم معا ، وسينزلان عنه معا يوم تتحقق نبوءة « الديلى تلغراف » أو قبل ذلك بقليل ، أو بعد ذلك بقليل . وسيذوقان معا لذة البعد عن الحكم كما ذاقا معا لذة القرب منه والبقاء فيه . ولكن من الذى يستطيع أن يزعم أن التنافس لا يكون بين الأشقاء فالتنافس ظاهرة من ظواهر الحياة ، ودليل من أدلة القوة وأثر من آثار النشاط .

وحزب الاتحاد قوى من غير شك ، لأن بين أعضائه وزير التقاليد وحزب « الشعب » قوى جدا لأن زعيمه رئيس الوزراء . وحزب الاتحاد قوى جدا لأن زعيمه رئيس الشيوخ . ومادام الحزبان الشقيقان قويين إلى هذا الحد الذى يتجاوز كل حد فلابد من أن يظهر بينهما التنافس ليتبين الناس أى الوزيرين أجدى على حزبه وأنفع له ، أوزير الزراعة على حزب الشعب أم وزير التقاليد على حزب الاتحاد ؟ وليتبين الناس أى الرئيسين أكثر بركة وأوسع نعمة على حزبه : أرئيس الوزراء لحزب الشعب أم رئيس الشيوخ لحزب الاتحاد ؟ وهذا التنافس ينفع ولا يضر ، ويحسن ولا يسىء . فقد يكون التنافس فى الخير كما يكون التنافس فى الشر . وقد يكون الاستباق الى النفع كما يكون الاستباق إلى الضر .

وحزب الشعب والاتحاد شقيقان لم يختلفا ولن يختلفا ، صديقان لم يتباغضان ولن يتباغضا . وكلاهما جاد فى خدمة مصر ، حريص على نفعها ، فإذا تنافسا فلن يكون

كوكب الشرق فى ٢٩ – ٧ – ١٩٣٣

تنافسهما إلا فى الخير ، وإذا استبقا فلن يكون استباقهما إلا إلى النفع والبر والمعروف . وإذن فلابد من أن يتنافسا وقد تنافسا فى هذين اليومين ، فوزير التقاليد مسافر إلى أوربا ليستشفى ويستريح ، وقد يبحث فى أثناء ذلك عن أعضاء أجانب للمجمع اللغوى ، فيجب أن يسافر وزير الزراعة إلى أوربا ليستشفى ويستريح ، ولعله يبحث فى أثناء ذلك عن نوع من أنواع القطن ، ولون من الوان الكتان أو فن من فنون تجفيف التمر ، أو ضرب من ضروب تصفية العسل . فوزير التقاليد يغذى العقول ، ويحمى الأخلاق . ووزير الزراعة يغذى الأجسام ويحمى الجلود من البرد والقيظ وكلاهما خليق أن يفكر فى الناس إذا استشفى واستراح . وقد شعر حزب الاتحاد بخطر هذه الرحلة التى هم بها وزير التقاليد فاحتشد لتوديعه واحتفل لتشجيعه وألقى خطبا وشرب الشاى فشعر فى الحال حزب الشعب بخطر الرحلة التى هم بها وزير الزراعة فاحتشد للتوديع واحتفل للتشييع ، وقال كلاما وسمع كلاما ولكنه سبق حزب الاتحاد بعض السبق ، فلم يشرب الشاى ولم يسقه للناس وإنما تعشى وعشى الناس .

ومن هنا كان حزب الشعب أكرم من حزب الاتحاد أو أغنى من حزب الاتحاد ، فطعام العشاء شيء ، وتناول الشاى والحلوى شيء آخر . والعشاء أطول بقاء فى البطون وأعسر هضما . والشاى قصير البقاء ، يسير الهضم . فحزب الشعب متفوق من الناحية المادية على حزب الاتحاد . وهذا طبيعى لاغبار عليه . فقد قلنا إن حزب الشعب مستأثر بوزارة الزراعة ، ووزارة الزراعة مسيطرة على ماتخرج الأرض من النبات وما تغذو الأرض من الضأن والمعز ودواجن الطير وماتثمر الأرض من الفاكهة والأب .

ولكن حزب الاتحاد تفوق على حزب الشعب من ناحية أخرى ، هى الناحية العقلية البيانية ، فقد كان خطباء الاتحاديين أكثر من خطباء الشعبيين . ولم يخطب فى الحفل الشعبى إلا وزير واحد ، هو زعيم حزب الشعب ووزير ماتخرج الأرض[1] وماتغذو من النبات والحيوان والثمرات .

وإذن فالحزبان متكافئان ، يتفوق أحدهما فى تغذية الأجسام ، ويتفوق الآخر فى تغذية العقول . ثم يتكافأ هذان النوعان من التغذية فإذا الحزبان مايزالان كما كانا من قبل ، وكما سيكونان دائماً فرسى رهان ، لايسبق أحدهما إلا ريثما يلحقه صاحبه .

---

(١) المراد محمد علام باشا وزير الزراعة

وكان الموضوع الخفى الذى من أجله احتفل الحزبان هو تلك الرسالة المشئومة ، رسالة الديلى تلغراف(١) . فلم يكن بد من أن يتنافس الحزبان فى الرد على هذه الرسالة وإقامة الأدلة الواضحة والبراهين الفاضحة على أن هذه الرسالة سخف من السخف ، وهذيان من الهذيان ، لاتغير من موقف الوزارة شيئا ، لأن موقف الوزارة ليس رهينا بما تقوله الصحف فى مصر أو فى بلادالانجليز ، إنما هو رهين بشىء آخر يعرفه الناس جميعا . وقد أعلنه رئيس الوزراء ألف مرة ومرة ، وهو رضا جلالة الملك وثقة البرلمان . ولم يكن بد من أن يستبق الحزبان إلى البراعة فى الرد على هذه الرسالة ، وقد استبقا والغريب أنهما تكافآ فى هذا أيضا . فلم يتفوق أحدهما على صاحبه قليلا ولا كثيرا . ولم يسبق أحدهما صاحبه قيدإصبع أو جناح ذبابة كما يقولون . ولم يفتح الله على أحد الحزبين المتنافسين بأن يزيد على ماأعلنه رئيس الوزراء ألف مرة ومرة حرفا واحدا ، وإنما أراد الحزبان المتنافسان أن يصطنعا فنونا من البيان فى التعبير عن هذا الموضوع . والغريب أنهما تكافآ فى هذه الفنون أيضا . فقد أراد وزير التقاليد أن يسخر من كتاب الانجليز ، ومن المعارضين المصريين ، فاصطنع الأدب الذى لايشبهه أدب ، والظرف الذى لايشبهه ظرف وارتفع عن لغة العامة إلى لغة الخاصة ، وعن لهجة الشعب إلى لهجة الوزراء . فقال إن هؤلاء الكتاب الانجليز يضحكون من ذقون الأغرار المعارضين . وأراد وزير الزراعة أن يذم هؤلاء المعارضين ذما سياسيا نزيها نظيفا بريئا عفيفا لايصدر إلا عن أصحاب الثقافة العليا والألسنة الطاهرة والطباع السمحة والترفع عن الفحش ، فقال إن غير الشعبيين والاتحاديين قد أعمت بصائرهم الشهوات والمصالح الخاصة ، فضلوا الطريق ، وراحوا يتخبطون . فكلا الوزيرين كما رأيت فرسا رهان فى كل شىء ، لايكاد

---

(١) كان مكاتب الديلى تلغراف يعتبر فى ذلك الوقت لسان حال وزارة الخارجية البريطانية . فنشر فى جريدته مقالا جاء فيه « طلب إبدال صدقى باشا برئيس وزارة أعظم منه نشاطا . وهذا القول يتفق مع المعلومات التى ذكرتها فى التلغرافات السابقة وهى أن الحكومة البريطانية ذاتها تطلب تبديلا كهذا . وأستطيع أن أضيف إلى ذلك أن السير برسى لورين – المندوب السامى فى مصر – اجتمع بالسيرجون سيمون وزير الخارجية البريطانية وتناول البحث فى أثناء هذا الاجتماع مسألة خلف صدقى باشا »

« إن المقامات الانجليزية المصرية تظهر قلقا كبيرا فى شأن الحالة التى أوجدها بقاء اعتلال صحة صدقى باشا وهو الآن فى أوربا يستشفى ومن المسلم به أنه لايستطيع أن يأمل العودة إلى القاهرة قبل أربعة أشهر على أنه قلما ينتظر أن يسترد صحته استردادا يسمح له باستئناف أعماله كالعادة . ولذلك لابد من التساؤل : هل تستطيع الوزارة التى كانت قوتها الوحيدة محصورة فى شخصية صدقى باشا أن تستمر طويلا على حكم البلاد فى هذه الظروف الحرجة سيما عودة متطرفى الوفد إلى الهياج والثورة ؟ »

ونشرت صحيفة التيمس مقالا نحت فيه هذا المنحى .

أحدهما يبلغ الغاية حتى يكون الآخر قد بلغها . ولن يظفر الحزبان فيما يظهر بنتيجة حاسمة لهذا التنافس فيستبقان دائما دون أن يسبق أحدهما صاحبه . وسيتنافسان دائما فى الخير والمعروف دون أن يتفوق أحدهما على صاحبه فى الخير والمعروف . وستستفيد مصر من هذا التنافس المتصل والسباق الذى لاينقطع وستجنى من غير شك منه ثمارا عذبة فى الذكاء والمهارة ، وفى النبوغ والبراعة ، وفى أدب اللفظ وعفة اللسان . وسنتعلم كيف نذكر الضحك من الذقون ، وكيف نصف الخصوم السياسيين بأن الشهوات والمصالح قد أعمت بصائرهم فضلوا الطريق ، وراحوا يتخبطون . وإذا لم تقتد مصر بوزرائها فبمن تقتدى ؟ وإذا لم تقلد مصر وزير التقاليد فمن تقلد ؟

والظريف من أمر هذا التنافس أنه لم يأت بشىء جديد ، فقد عرف الناس رأى الوزارة فى مكاتب الديلى تلغراف وصدقوه وآمنوا به واستيقنوا أن الوزارة أثبت من المقطم ، وأرسخ من الأهرام . وقد عرف الناس رأى الوزارة وصدقوه ، وآمنوا بأنها قد قدمت لمصر مالم تقدمه إليها وزارة أخرى من النعم والآلاء فأنقذتها من الجوع وبرأتها من المرض ، ورفعت رأسها ، وحفظت كرامتها ، وردت عنها عدوان الأجانب وصدت عنها طغيان الانجليز . وقد عرف الناس رأى الوزارة وصدقوه ، وآمنوا بأن الأمة قد منحتها الثقة والتأييد ، واختصتها بالمودة والحب ، وكانت الإسكندرية أسبق المدن المصرية إلى الثقة بالوزارة والإيمان لها وفدائها بالأنفس والأموال . ومازالت الإسكندرية أحرص المدن المصرية على حب الوزارة وتأييدها ، وفدائها بالأنفس والأموال . ومازالت كل مدينة مصرية يخطب فيها وزير أسبق المدن المصرية إلى حب الوزارة وأحرصها على فدائها بالأنفس والأموال .

ومصر كلها أسبق من مصر كلها إلى حب الوزارة وأحرص من مصر كلها على فدائها بالأنفس والأموال . ومن يدرى ؟ لعل الحزبين الشقيقين الذين لم يتفرقا ولن يتفرقا لايتنافسان إلا فى الكلام ، وماأيسر التنافس فى الكلام وماأنفعه وأجداه فإنه يضحك ويسلى الهم ويهون احتمال الآلام .

مذهبـــان

أحدهما يذهب إليه الناس فى البلاد المتحضرة كافة منذ ابتدأ عصر الديمقراطية على أقل تقدير . والآخر يذهب إليه فريق من الناس فى هذا البلد العزيز السعيد ، ويتباينان أشد التباين . ومذهب المصريين أصحهما من غير شك وأدناهما إلى الصواب من غير جدال ، لأن مصر قد أصبحت منذ ثلاثة أعوام أقوى بلاد الأرض وأرقاها وأحقها أن تتولى زعامة الرق وقيادة الشعوب إلى تحقيق المثل العليا فى الحرية والكرامة والاستقلال .

وقد أصبح حقا على كل شعب يحب الرق ويطمع فيه أن ينظر إلى مصر فيتأثرها ويسير على نهجها ، وهو إن فعل بالغ مايريد من الكمال بإذن الله .

فأما المذهب الأول الخاطىء الذى يأخذ به الناس فى أقطار الأرض ، وفى أقطار الأرض المتأثرة بفلسفة الفلاسفة وأصول الثورة الفرنسية فهو أن الحكومة إنما توجد لإقرار الأمن فى البلد الذى توجد فيه . والأمن عند هؤلاء الناس الخاطئين الذين يملأون أقطار الأرض غير مصر إنما هو أمن الشعب جملة على حياته ومرافقه وإطمئنانه إلى أن شعبا أجنبيا مهما يكن لن يغير عليه ولن يمسه بأذى . ولن ينتقص من أرضه ولن يعتدى على حقه ولن يغض من كرامته ، ولن يناله بمكروه فى أى نحو من أنحاء حياته . وأمن الأفراد على أنفسهم وأموالهم وعلى كرامتهم وحرماتهم وعلى عقائدهم وآرائهم ، وعلى أخلاقهم وأعراضهم . وثقة هؤلاء الأفراد مهما تكن منازلهم ومهما تكن مذاهبهم فى السياسة والدين بأن نفوسهم معصومة بحكم القانون وقوته إلا أن يجرموا فيجعلوا للقانون عليه سبيلا ، وأن حريتهم مكفولة بحكم القانون وقوته إلا أن يأثموا فيجعلوا للقانون على حريتهم سبيلا ، وبأن أموالهم محفوظة عليهم لايؤخذ منها إلا بالحق ولاتمس إلا بما يأمر به القانون .

كوكب الشرق فى ٣٠ - ٧ - ١٩٣٣

هذا هو مذهب الناس عامة فى فهم الحكومات وفهم واجبها ، وفهم الصلة بينها وبين الشعب . ولكن المذهب الآخر الذى يراه فريق من المصريين والذى هو أقرب إلى الحق وأدنى إلى الصواب ينحو نحوا غير هذا النحو فى الحكم والفهم والتقدير . فالحكومة عند هؤلاء المصريين وجدت لإقرار الأمن ، ولكن لإقرار أمنها هى قبل أمن الشعب . ووجدت لحماية النفس والأموال ولكن لحماية نفسها هى وأموالها من قبل أنفس الشعب وأمواله . وهى لاتكره أن تؤمن الشعب ، ولكن تأمين الشعب نافلة لافرض . أو هو فرض ثانوى يأتى بعد الفرض الأول وتفرغ له الحكومة بعد أن تفرغ من هذا الفرض الأول . وهى لاتكره أن تحمى أنفس الشعب وأمواله ، ولكن بعد أن تحمى نفسها ومالها ، وتطئمن أشد الاطمئنان إلى أنها لاتخاف بأسا ، ولاتخشى مكروها . ولعلك لن تفطن بعد إلى الفرق العظيم بين هذا المذهب الخاطىء الذى يمعن فيه العالم المتحضر كله ، وهذا المذهب المصيب الذى يحبه فريق من المصريين . فأما فى غير مصر فإن الناس يرون أن الوزارة إذا أحست بالحاجة الشديدة إلى أن تحمى نفسها وجب عليها أن تستقيل ، لأن الوزارات لن تنشأ لحماية نفسها ، وإنما أنشئت لحماية الشعب ، وهى لم تخلق لخدمة نفسها وإنما خلقت لخدمة الشعب ، وهى إذا احست حاجة إلى الحماية فمعنى ذلك أن الشعب لايحميها بحبه لها وثقته بها واطمئنانه إليها . وإذن فهى لاتريد أن تخدم الشعب رغم أنفه ، وإذن فهى مضطرة إلى أن تستقيل ليوجد الشعب لنفسه الوزارة التى يرضاها ويثق بها ويحميها بحبه وعطفه وثقته

أما أصحاب المذهب المصرى الحديث فهم يرون أن الوزارة إذا أحست حاجة إلى أن تحمى نفسها وجب عليها أن لاتستقيل ، بل أن تتعلق بالحكم أشد التعلق وأن تشد نفسها إلى كراسيها بالحبال والأمراس ، وأن تسخر جند الدولة وبأسها وقوة الدولة وبطشها ومال الدولة وثروتها لحماية نفسها حتى من الوهم الطارىء والخيال الذى يلم فى الأحلام .

وجائز عند أصحاب المذهب المصرى الحديث ، بل واجب أن تقدم الوزارة حماية نفسها على حماية الشعب فإذا أحست من خصومها السياسيين خطرا على نفسها ، وأحست من خصوم النظام الاجتماعى وأعداء الأمن العام والمجرمين الذين يفسدون فى الأرض خطرا على حياة الأفراد والجماعات وحماية أنفسهم وأموالهم كان من حقها ، بل من الحق عليها أن تقدم حماية نفسها والتفكير فيها ، وقهر خصومها السياسيين على حماية الشعب وقهر المجرمين .

وعلى ذلك يفسر أصحاب المذهب المصرى الحديث كثرة الجرائم واتصالها فى مصر ، وهذه الألوان من العدوان التى تقع على النفوس والأموال وتعجز الوزارة القائمة ، لانقول عن منعها قبل وقوعها ، بل نقول عن أخذ المقترفين لها والمتورطين فيها ، لأن الوزارة مشغولة بمخاصمة الوفد ومطاردته ومراقبة رئيسه وأعضائه ، وبث الأرصاد والعيون عليهم عن مراقبة المجرمين وأخذهم والضرب على أيديهم .

وعلى هذا النحو أيضا يمضى أصحاب المذهب المصرى الحديث حين يطالبون الوزارة بأن تشرع القوانين الاستثنائية الصارمة لإرهاق خصومها السياسيين وإفحامهم وأخذهم بالصمت والهدوء ، لأن حماية الوزارة لنفسها من هؤلاء الخصوم أوجب من حماية الوزارة للشعب من أعداء الأمن والنظام . ولذلك يطلب أصحاب المذهب المصرى الحديث إلى الوزارة أن تشرع هذه القوانين الصارمة الاستثنائية لتعقبهم والقضاء عليهم فى غير إمهال ولاإبطاء .

وقد نحب أن نعرف مذهب وزارتنا فى هذه المسألة ذات الخطر : أهو مذهب العالم المتحضر أم هو مذهب المبتكرين من المصريين ؟ فإن تكن الأولى فإنا نرى وزارتنا تسرف فى العناية بنفسها وتغلو فى وقف جهودها على ماتنصب لخصومها من الحرب ، وإن تكن الثانية فإنا نحب أن تلائم الوزارة بين مالها من مذهب وسيرة ، ومايلقى إلى الشباب فى المدارس وفى كلية الحقوق حتى إذا أخرجت هذه الكلية من طلابها من سيكون إليهم الحكم فى يوم من الأيام أخرجتهم وهم يعلمون ما يجب عليهم أن يعملوا . والأمر ليس مقصورا على الأمن الداخلى ، فمن المحقق أن وزارتنا تعنى بما تكتبه الصحف الأجنبية عن بقائها الطويل أو القصير أكثر مما تعنى بمسائل لها أبعد الأثر فى حياة مصر ، فلم يخطب وزراؤنا فى مسألة الدين كما خطبوا فى مسألة « الديلى تلغراف » ولم يجزع وزراؤنا لحبوط المفاوضات فى مسألة الدين كما جزعوا لرسالة الديلى تلغراف ، ولم ينشط وزراؤنا فى مسألة التبشير والمبشرين كما نشطوا فى رسالة الديلى تلغراف . فهم إذن أسرع إلى التفكير فى حماية الوزارة من خصومها السياسيين المصريين ومن الذين قد يخاصمونها بين الأجانب ، منهم إلى التفكير فيما يصيب الأمن والنظام من الفساد والاضطراب وفيما يصيب منافع الناس ومرافقها وحرية مصر وكرامتها من العدوان الخارجى أو إسراف الدول الأجنبية فى الاستهانة بالحقوق المصرية .

أفنستطيع أن نفهم من هذا أن المذهب المصرى الحديث قد وفق إلى الفوز الرسمى فأصبحت وزارتنا تؤمن به وتطمئن إليه وتتخذه لها مذهبا وترى أنها وجدت لنفسها قبل

أن توجد للشعب ؟ سؤال يحتمل جوابين : أحدهما يراه الناس ويحسونه ويشهدونه فى كل يوم ، وهو : نعم

والآخر يكتب فى الصحف ويقال فى الأحاديث الرسمية والشبيهة بالرسمية وهو : لا . والناس أحرار فى أن يقبلوا ماشاءوا من هذين الجوابين . أما أنا فأقبلهما معا ، وأصدق وزراءنا إذا ساروا سيرة المؤمن بالمذهب الحديث ، وأصدقهم إذا قالوا مقال المؤمن بالمذهب القديم . وأرى أن الوزارة من المهارة والكفاية ومن البراعة والنبوغ بحيث تستطيع الجمع بين المتناقضات ، والتوفيق بين المتباينات ، وبحيث تستطيع أن تؤثر نفسها على الشعب حين تعمل ، وأن تؤثر الشعب على نفسها حين تقول.

ثــأر

كان الاتحاديون ثملين بهذا الفوز الباهر الذى ظفروا به حين احتفلوا بوزير التقاليد مساء الخميس ، فشربوا الشاى وسقوه ، وسمعوا الكلام وألقوه فهضموا ماشربوا وماأكلوا وظلوا يعالجون ماسمعوا وماألقوا ، يهضمون بعضه على عسر ، ويتردد بعضه الآخر فى صدورهم وحلوقهم فلا يستطيعون أن يسيغوه .

وكان الشعبيون موتورين من هذا الفوز الذى ظفر به الحزب الشقيق ، لايستطيعون أن يقروه ولا أن يذوقوه ، ولا أن يغمضوا عليه العيون ، فكانوا يهيئون حفلا بحفل وأكلا خيرا من أكل وشرابا خيرا من شراب . وكانوا يهيئون الخطب الطوال يلقيها الوزير وأنصار الوزير . كلام بكلام وطعام بطعام . وليل فى سان استفانو بيوم فى وندسور . وكانت هيئة الوزارة تقدر ماظفرت به من الفوز على مكاتب الديلى تلغراف وهؤلاء الأغرار الذين ضحك من ذقونهم كما قال وزير التقاليد ، وتقدر ما ستظفر به من الفوز على هؤلاء المعارضين الذين أعمت بصائرهم الشهوات والمصالح الخاصة كما قال وزير الزراعة . وفى أثناء هذا كله كانت دماء المصريين تسيل فتخضب الأرض المصرية ، وكانت نفوس المصريين تزهق فتصعد فى السماء . وكانت الأيدى المصرية هى التى تسفك الدم المصرى وتزهق النفوس المصرية . وكانت ثورة الغضب والحنق قد انتهت بجماعة من المصريين إلى أقصاها . وكانت شياطين الإثم والإجرام قد ملكت على جماعة من المصريين قلوبهم فما تشعر ، وعقولهم فما تفكر ، وأيديهم فهى تطلق النار وتلعب بالسيف وتغمد الخناجر فى الصدور ، وتعمل العصى فى تهشيم الرءوس ، وتريق دماء المسلمين على بيت من بيوت الله .

كان هذا يوم الجمعة أثر الصلاة ، وحين كان الناس ينصرفون من هذا المكان الذى يجب أن تخرج منه النفوس طاهرة من كل رجس ، مبرأة من كل إثم . كل هذا كان يوم الجمعة ولم يكن فى دقيقة ولا فى دقيقتين ، ولم يكن فى لحظة ولا فى لحظات وإنما اتصل

كوكب الشرق فى ٣١ - ٧ - ١٩٣٣

وقتا غير قصير وانتهكت فيه حرمات وقتل فيه طفل صغيرين ذراعى أمه التى كانت تحمله .

كل هذا كان ولم يكن فجأة ولامصادفة وإنما كان بعد أن قدمت بين يديه المقدمات وبعد أن هيئت له الوسائل وبعد أن أرصد له المرصدون . فقد يقال إن الثأر بين المختصمين قديم ، وقد يقال إن مشاجرة كانت بين أفراد من المختصمين فأنذرت بالشر ونبهت إلى أن وقوع المكروه أمر ممكن .

كل هذا كان يوم الجمعة واستحالت قرية من قرى مصر ليست بعيدة من العاصمة إلى ميدان من ميادين القتال التى لايقتتل الناس فيها وجها لوجه ، وإنما هى مؤشبة ملتوية يكمن فيها بعض الناس لبعض ويمكر فيها بعض الناس ببعض ، ويرسل فيها بعض الناس إلى بعض الموت من حيث لايرجونه ، ولاينتظرونه . وقد حدثتنا الصحف بأن قوما من أهل هذه القرية هجموا على دار من دورها فغلق أهل الدار أبوابهم فهم المهاجمون بكسر الباب واقتحامه ، فلما شق عليهم ذلك عمدوا إلى جدار من جدران البيت ليهدموه ، ثم اقتحموا الدار وقتلوا من فيها وجرحوا .

وأحست ثلة الشرطة المرابطة فى هذه القرية هذا الشر فى أوله ، أو فى آخره أو فى إبانه فهمّت بقمعه فلم تجد إلى ذلك سبيلا . فاستعانت بالسلطة المركزية وأقبل المدد وقد قتل أربعة ونيف عدد الجرحى على العشرين . وأخذت النيابة منذ ذلك الوقت فى التحقيق . ومن قبل ذلك اعتدت قرية فى الصعيد ، ومن قبل ذلك أو من بعده ، لا أدرى ، التحمت قرية أخرى بقرية أخرى فى الصعيد أيضا . وكان فى كلتا الملحمتين صرعى ، منهم القتلى ومنهم الجرحى . ومن قبل ذلك ومن بعده أنبأتنا الصحف بأن الناس يصرعون على الطريق العام أحيانا ، وعلى أبواب دورهم أحيانا أخرى . وفى أثناء ذلك ينبئنا مكاتب للكوكب فى بعض الأقليم بأن ضابطا من ضباط الشرطة ضرب رجلا على رأسه فقضى عليه فمنحته الإدارة إجازة ليستريح أو ليفعل ماذا ؟ لاأدرى . فلو أنك تحدثت بهذا أو بشىء منه إلى رجل من الناس عن بلد من البلاد لما شك هذا الرجل فى أنك تحدثه عن بلد قد فسد فيه كل شىء ، وساء فيه كل شىء ، وهانت فيه على الناس دماؤهم ونفوسهم وحياتهم وحرماتهم . وأصبح من الحق على أولى الأمر فيه أن يبحثوا بحثا جادا ، لا لاعبا ، عن طريق يردون بها إلى الحياة والحرمات قيمتها ، وإلى القانون والسلطان هيبتهما . ولعله لن يتردد فى أن يسأل : وكيف لم تتخذ الحكومة فى هذا البلد إجراءات استثنائية لحماية الأمن وصيانة النظام؟ فلابد من أن تكون الإجراءات القانونية

العادية عاجزة عن ذلك ، مقصرة عن بلوغه والوصول إليه . فإذا نبأت صاحبك بأن أهل هذا البلد لايكادون ينفقون أياما حتى تنبئهم صحف الصباح بأن قنبلة قد انفجرت فى حى من الأحياء ، على طريق من الطرق الحديدية أو قرب دار من دور المصالح العامة لم يشك محدثك فى أن الحياة فى هذا البلد ليست شيئا يحب أو يرغب فيه . ومع ذلك فهذه حال مصر فى هذه الأيام ، تقع فيها كل هذه الحوادث ، وتتصل فيها كل هذه الجرائم ، ويتعرض أهلها لكل هذا الخطر ويخطب وزراؤها فى وندسور حينا وفى سان استفانو حينا آخر فيذكرون ضحك الانجليز من ذقون المصريين ، ويذكرون إعماء الشهوات لبصائر المعارضين ، ثم يركبون السفن إلى حيث يقضون صيفا سعيدا حلوا فيه لذة وراحة وفيه ترف ونعيم .

ووزير داخليتنا – بشهادة مكاتب الديلى تلغراف الذى يرد عليه رئيس الوزراء ووزير الاوقاف ، ووزير التقاليد ووزير الزراعه وأنصارهم . وزير داخليتنا هو أقوى الوزراء وأكفأ الوزراء ، وأقدر الوزراء على إرضاء الناس جميعا وكسب ثقة الناس جميعا . وهو كذلك من غير شك ، فهو لا يخطب ولا يكتب ولا يذكر الانجليز ، ولا يذكر المصريين، ولا يهاجم بلسانه هذا و ذاك ، ولا يذود بلسانه عن هذا ولا ذاك . وهو خليق لهذا كله أن يرضى عنه الناس جميعا ، لا ينقصه إلا شىء واحد ليبلغ هذا الرضا ، وهو أن يوفق إلى أداء الواجب الذى من أجله ارتقى الوزارة ، والذى من أجله أؤتمن على حياة الناس وحرياتهم ومنافعهم وأموالهم ، فيحمى لهم الأمن ، أمن الشعب ، لا أمن الوزارة ، ويقر لهم النظام حقا ، ويمكن كل واحد منهم من أن يدخل المسجد ويخرج منه دون أن يصرع على عتبة المسجد ، ودون أن تخضب عتبة المسجد بدمه الحرام .

لهذا قبل كل شىء ارتقى وزير الداخلية إلى منصبه ، وبهذا قبل كل شىء يجب أن يعنى وزير الداخلية ، وفى هذا قبل كل شىء يجب أن ينفق وزير الداخلية وقته وجهده ، بل لهذا قبل كل شىء يجتمع مجلس الوزراء ، وبهذا قبل كل شىء يجب أن يشتغل مجلس الوزراء ، فهذا أمس بحياة مصر من إنشاء جراج لسيارات الحكومة فى الاسكندرية ، ومن شراء طيارات قبل أن ينعقد مؤتمر الطيران ، ومن الرد على مكاتب الديلى تلغراف وبعض الكتاب المصريين فى الصحف المصرية . ومن غريب الأمر أن وزير داخليتنا هو أقدر الوزراء فيما ينبغى على ضبط الأمن وإقرار النظام ، فهو رجل قد أنفق حياته في الإدارة . عمل فى الأمن العام دهرا ، وعمل فى وكالة الداخلية دهرا ، وهو الآن وزير

الداخلية . فهو لم يستعر لوزارته استعارة من القضاء أو من المحاماة أو من أى ناحية من نواحى الحياة العامة . وإنما تولى وزارة الداخلية على علم بشئونها وإتقان لأمورها . فهو صاحب صناعة وفن ، وهو صاحب دراية وخبرة ، فكيف فسد الأمن واضطرب النظام فى عهده إلى هذا الحد المنكر الغريب ؟ أتراه سيىء الحظ ؟ أم تراه مشغولا عن الأمن والنظام بما يستنفد وقته وجهده وكفايته ؟ أم ترى أن الأمر قد فسد فى هذا البلد إلى حيث لم يبق سبيل إلى إصلاحه إلا إذا ذهب قوم وخلفهم قوم آخرون ؟ علم هذا عند الوزراء وعند الناس جميعا وعند مكاتب الديلى تلغراف وعند المصدر الموثوق به الذى أوحى إلى مكاتب الديلى تلغراف . وماذا ينفع أن يكون هذا معلوما أو مجهولا مادام الشر يقع ويتصل وتظهر نتائجه المنكرة ، فلا يحفل به أحد ، أولا يكاد يحفل به أحد حتى أصبحت مصر ، نعم مصر كهذه الأجزاء التى يتحدث عنها الناس فى الصحراء ، والتى يغير فيها بعض القبائل على بعض ويغزو فيها بعض القبائل بعضا ، ويثأر الناس فيها لأنفسهم . ماذا نقول ؟ إن الأنباء مستفيضة بأن الحكومة العربية السعودية قد أقرت فى صحراء جزيرة العرب أمنا لاتحلم به مصر ، فبطل فيها الغزو ، والغارة وأمن الناس فيها على سرى الليل وسفر النهار ، ولم لا ؟ ليس عند الحكومة العربية السعودية وفد تحاربه وتطارده وتشتغل بحربه ومطاردته عن تعقب المجرمين وحماية الأنفس والأموال .

ومهما يكن من شيء فقد استطاع أهل نزلة الشوبك أن يثأر بعضهم من بعض واستطاع حزب الشعب أن يثأر من حزب الاتحاد ، واستطاعت الوزارة أن تثأر من مكاتب الديلى تلغراف . ووزير داخليتنا قادر إن شاء الله على أن ينبئنا أى هذه الثارات خليق بالعناية والتفكير .

ثقـــة

لكل ظاهرة من ظواهـر الحياة الاجتماعية أصولها المعروفة ، وعاداتها الموروثة ، وقواعدها التى يلزمها الناس ولا يحيدون عنها إلا أن تضطرهم إلى ذلك ضرورة ملجئة . فإذا أقام حزب الاتحاد حفلا لوداع وزير التقاليد وكان من الأصول أن تثور حفيظة حزب الشعب فيقيم حفلا لوداع وزير من وزرائه كوزير الزراعة مثلا ، وكان من الأصول أن يكون الحفل الشعبى أضخم وأفخم من الحفل الاتحادى . واذا أشرف رجل من رجال المال على الإفلاس وما يستتبعه الإفلاس كان من الأصول أن يخيل إلى الناس أنه لم يكن فى يوم من الأيام غنيا مثريا موفور الحظ من الغنى والثروة كما هو فى هذه الأيام . ومأأسرع مايقيم الحفل ويدعو إليه ويسرف فى تجميله وتزيينه ، ويغلو فى إكرام المدعوين والترفيه عليهم وامتاعهم بفنون من لذات الحياة ، حتى إذا أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح كما يقول العامة قرأ الناس فى الصحف أن صاحب الحفل قد فتح لنفسه طريقا يمضى فيها الناس فلا يرجعون أو عجز عن أن يفتح لنفسه هذه الطريق ففتحت له الحكومة طريقا أخرى الى دار من تلك الدور التى تضيف المفلسين . وإذا أحست وزارة من الوزارات من نفسها ضعفا ، أو فتورا ، وشعرت بأن كرسيها يهتز فلا تكاد تثبت ، وأن الأرض من تحت أقدامها تضطرب حتى لكأنها تريد أن تزول ، وأن نفوسا قد انصرفت عنها ونفرت منها ، وانحرفت عن طريق إلى طريق أخرى ، وأن ألسنة قد انطلقت فيها بغير ماكانت تؤثرها به من الثناء والإطراء ، ومن التشجيع والإغراء .

إذا أحست وزارة هذا ، أو شيئا يشبه هذا من قريب أو بعيد أظهرت القوة والبأس ، وأعلنت الفتوة والبطش ، وتحدثت فأسرفت فى الحديث بأنها لم تكن فى يوم من الأيام أقوى مما هى فى هذه الأيام التى يطيف بها الضعف فيها من كل مكان ، ويسعى إليها الفتور فيها من كل نحو ، ويأخذها الإفلاس فيها من كل طريق ، حتى إذا أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح كما يقول العامة ، نظر الناس فإذا استقالة مرفوعة أو إقالة موضوعة ،

كوكب الشرق فى ١ - ٨ - ١٩٣٣

وإذا وزارة تذهب وأخرى تجيىء . وأنا مؤمن أشد الإيمان بقوة الوزارة القائمة فى مصر ، مطمئن أشد الاطمئنان إلى ماتملك من حول وطول ، وماتصرف من بأس وبطش ، عالم حق العلم أن شيئا فى مصر لايعجزها ، واثق كل الثقة بأنها لم تكن فى يوم من الأيام أقوى من منها أمس ، وأقوى منها اليوم ، وأقوى منها غدا !!

ولست فى حاجة إلى آن آقيم لنفسى أو لغيرى على ذلك دليلا ، فمازال الوزراء يذهبون إلى مكاتبهم ويعودون إلى بيوتهم ويقيم بعضهم فى مصر ويرحل بعضهم إلى أوربا . ومازال الناس يصرفون عن الوفد ورئيس الوفد بقوة الشرطة وبأس الجند . ومازال لدى الوزارة عدد وعدة تسخرهما متى شاءت فى تفريق الشعب إن اجتمع وإسكات الشعب إذا نطق ، ورد رئيس الوفد وأصحابه إن تحدثت إليهم أنفسهم برحلة لاترضاها الوزارة ولاتميل إليها . فالدليل قائم – والحمد لله – على قوة الوزارة ، والبرهان ناطق – والحمد لله – ببأس الوزارة . وإنا نؤمن بهذا كله إيمانا لايشوبه شك ولايداخله ريب ! وكم أحب أن يؤمن الناس جميعا أو أن تؤمن كثرة الناس أو قلتهم بقوة الوزارة كما أؤمن بها . والناس يتمنون ذلك ويسعون إليه ، ولكن للوزارة أصدقاء حظهم من الجهل أشد من حظهم من الحلم ، ونصيبهم من الحمق أعظم من نصيبهم من الرشد والتوفيق . يريدون أن يدافعوا عن الوزارة ، والوزارة فى غير حاجة إلى الدفاع ، ولكنهم على ذلك يدافعون عنها فيسيئون إليها ، ويطمعون فيها الناس ، ويخيلون إليهم أنها فى الرمق الأخير . ومن هؤلاء الناس كتاب الوزارة الذين يكتبون لها فى صحفها الخاصة وفى الصحف الموالية لها .

فهؤلاء الناس يقولون على الوزارة مالاتريد أن يقال عنها . يقولون مثلا إنها راضية مطمئنة عن ثبات الأمن واستقرار النظام ، لأن الأمن ثابت بالفعل والنظام مستقر بالفعل ، ولأن هذه الحوادث التى تحدث لاسبيل إلى منعها فضلا عن اتقائها لأن ذلك ليس فى طاقة الحكومات !!

يقولون هذا ، وهم يعلمون حق العلم أن الوزارة لاترضى هذا ، ولا تحب أن يقال عنها ، فهى ليست مطمئنة إلى ثبات الأمن ، ولا إلى استقرار النظام . ولو قد كانت مطمئنة لما ألغت إجازات المأمورين ورؤساء الشرطة ولو قد كانت مطمئنة لما ألفت لجنة لتقوية الشرطة فى الأقاليم وللمقارنة بين عدد الشرطة وعدد السكان . وهى تعلم حق العلم أن الناس يقتل بعضهم بعضا ويجرح بعضهم بعضا ، أفرادا وجماعات تحت ضوء النهار ، وفى ظلمة الليل . وهى تعلم حق العلم أن قد ظهرت فى مصر ظاهرة غريبة فى

هذا الأيام وهى تنظيم الغارات والاستعداد للغزو بين القرى ، بل بين الأسر فى القرية الواحدة . فلم يكد الناس يقرأون أنباء موقعة « الشوبك » حتى ظهرت الصحف وفيها موقعة جديدة فى سوهاج . والوزارة أعقل وأشد احتراما لنفسها من أن تزعم أن الأمن ثابت وهو مضطرب ، وأن النظام مستقر وهو يهتز ويترجح حتى يسقط عنه الناس صرعى ، فيهم القتيل وفيهم الجريح ، ولكن صحف الوزارة تريد أن تدافع عن الوزارة فتهاجمها ، لأن الناس يظنون أن هذه الصحف إنما تكتب عن وحى من الوزارة . وهم يبيحون لأنفسهم أن يصفوا الوزارة بالضعف والتقصير إذا ظهر عجزها عن حماية الأمن وحفظ النظام ، ولكنهم لايحبون ولايرضون أن يصفوا الوزارة بالكذب والمكابرة . والوزارة لاتكذب وإنما صحفها هى التى تكابر وتمارى وتغلو فى المكابرة والمماراة حتى كأنها تزدرى عقول الناس .

وهذه الصحف تريد أن تدافع عن الوزارة فتسخف ، وتقول على الوزارة أشياء لوصحت لما كان بد من أن تستقيل لأن عملها قد تم ، ومهمتها قد انتهت . فهذه الصحف تزعم أن الوزارة لاتخاف الوفد ولاتخشاه ولاتحسب له حسابا ، لأن الوفد قد مات ! مات وشبع موتا ! مات وأصبح جثة هامدة تطؤها الأقدام ولاتنخفض إليها الأبصار !!

كذلك تقول صحيفة من صحف الوزارة فتسىء إلى الوزارة من أنحاء كثيرة . تسىء إليها لأنها تكذب عليها ، فالوزارة مازالت تخاف الوفد وتخشاه وتحسب له ألف حساب وحساب ، ولولا ذلك لما طوقت دار رئيسه بالجند ولولا ذلك لما عبأت وحشدت كلما هم رئيس الوفد بزيارة أو أداء صلاة .

وهذه الصحف تسىء إلى الوزارة لأنها تجعل وجودها الآن غير نافع ولامفيد ، وتسحق الفوضى . ولعلها تتمنى للوفد طول الحياة ليتم لها طول البقاء ، فالتحدث بأن الوفد قد مات مطالبة للوزارة بأن تستقيل . وهذه الصحف تسىء إلى الوزارة لأنها تتحدث عن خصوم الوزارة فى أدب أقل ما يوصف به أنه رفيع جدا كهذا الأدب الذى يتحدث به وزير التقاليد ووزير الزراعة عن المعارضين .

وليس من مصلحة الوزارة فى شىء أن يضيف الناس إليها هذا الأدب الرفيع . وهذه الصحف تسىءالى الوزارة لأنها تضيف إليها من الثقة بنفسها هذا النوع الذى يشبه ثقة المفلس فى آخر عهده بالغنى وأول عهده بالإفلاس ، وتخيل إلى الناس أن هذه الثقة

ليست إلا متكلفة مصنوعة يراد بها التجلد والصبر وانتظار الأحداث ، ولست أدرى مانفع وزارة المعارف إذا لم تعلم كتاب الوزارة كيف يدافعون عن الوزارة .

فصحف الوزارة مرآة لها . ونؤكد للوزارة أنها تظهرها فى مظهر لا يدل على قوة ، ولاعلى أمن ، ولا على استقرار . وإنما يدل على الضعف والخوف والاضطراب . فنحن نعلم حق العلم أن وزارتنا لاتنقصها الشجاعة ولا الرجولة ، وأن الرجل الشجاع هو الذى لاينكرالخطر الواقع وإنما يثبت له ويهجم عليه . وفساد الأمن أمر واقع لاتنكره الوزارة وإنما تعترف به ، وتحاول أن تزيله . وليس ذنب الوزارة أنها لاتستطيع إزالة هذا الشر وتبقى مع ذلك فى مناصب الحكم .

ومثل هذا يقال عن دفاع صحف الوزارة فى كل ماتحتاج الوزارة فيه إلى الدفاع . وهى محتاجة الآن إلى الدفاع فى كل شيء . فكتابها يزعمون أنها قد فعلت فى مسألة الدين أقصى ماتستطيع أن تفعل ، وخصومها لا ينكرون ذلك ، وإنما يقولون إن هذا الذى فعلته ليس شيئا . ومادامت لاتستطيع أن تفعل خيرا منه فيجب عليها أن تستقيل .

حسن جدا أن تثق الوزارة بنفسها ، وأن يثق أنصار الوزارة بها ، ولكن أحسن من هذا أن تكون هذه الثقة صادقة ، وأن يكون تصويرها صحيحا وكل شيء فى أعمال الوزارة وأقوال أنصارها لايدل على ثقة صادقة ولا يصور اطمئنان النفوس . ومن أشد الخطر أن يرى الناس رأى العين عجز الوزارة حتى عن أن تثق بنفسها .

إغـــراء

كانت المسيحية تنتشر فى أقطار الأرض انتشارا سريعا منذ ثمانية عشر قرنا . وكان اعتناق المسيحية فى ذلك الوقت جريمة يعاقب عليها القانون الرومانى بالموت . وكان الناس يدخلون فى هذا الدين سرا ، ويخفون إيمانهم به وإقامتهم لشعائره . وكان يسعى بعضهم لبعض ، ويكيد بعضهم لبعض ، ويدل بعضهم على بعض . فارتفعت إلى حاكم من حكام الأقاليم فى آسيا سعايات كثيرة بقوم كثيرين دخلوا فى هذا الدين الجديد ، ووقف هذا الحاكم موقف التردد والحيرة من هذه السعايات : أيصغى إليها أم يعرض عنها ؟ فكتب إلى روما يستفتيها وأجابته روما بهذا الجواب البديع : من سعى بغير فليس منا ، وماينبغى أن تكون السعاية وسيلة من وسائلنا إلى الحكم ، فإن ارتفعت إليك الدعوى على أحد أنه دخل فى هذا الدين وقامت عليه البينة لديك فأنفذ فيه حكم القانون . وإلا فلا تجعل لنفسك على الناس فى هذا سبيلا .

وأمضى الحاكم هذا الأمر فلم يأخذ بالسعاية ولم يسمع لوشاية الواشين ولم يبث على الناس عيونا ولا ارصادا ، ولاجواسيس ليتبين من أمرهم ماكان يجب أن يتبين ، فقد كان الدخول فى الدين الجديد خروجا على قوانين الدولة ، وإهدارا لما كان للامبراطور فى أعناق الناس من واجب العبادة والتقديس ، وتحللا من واجب آخر لم يكن أقل من هذا الواجب خطرا ، واجب النهوض بالدفاع عن سلامة الامبراطورية .

كان ذلك فى عهد تراجانوس الامبراطور ، وكان الحاكم كلينوس الصغير ، وكان تاريخ القصة أول القرن الثانى للمسيح . وكان الامبراطور وحاكمه وثنيين . ولم يكن العالم قد بلغ من الرقى والحضارة مابلغه الآن بفضل نمو العقل ، وانبساط سلطانه على حياة الناس وعلى الأشياء ، ولم يكن العالم قد بلغ من الرقى الدينى والخلقى مابلغه فى هذه

كوكب الشرق فى ٥ – ٨ – ١٩٣٣

الأيام بفضل انتشار الديانات السماوية وسيطرتها على العقول والقلوب ، وتأثيرها فى سيرة الناس وتفكيرهم وفى سياستهم العامة والخاصة معا .

وفى هذا القرن الذى نعيش فيه بعد أن بلغ العقل مابلغ من الرق ، وبعد أن انتشر نور الديانات السماوية بين الناس فأحيا القلوب والنفوس ، وبين سبيل الخير وسبيل الشر وأوضح للناس طريق المعروف ليسلكوها ، وطريق المنكر ليجتنبوها .

فى هذا القرن العشرين كثرت طائفة بعينها من الجرائم فى بلد بعينه من البلاد ، وعجزت حكومة بعينها من الحكومات عن قمع هذه الجرائم ، لأنها عجزت عن استكشاف المجرمين . فلما ضاق بها الأمر ، وأعيتها الحيلة وسدت عليها السبل ، رأت أن أوضح السبل إلى أخذ المجرمين وتقديمهم إلى القضاء ليلقوا جزاءهم على مااقترفوا من إثم ، واجترحوا من سيئة إنما هو تشجيع الساعين أن يسعوا والواشين على أن يشوا ، والكائدين على أن يكيدوا ، والمفسدين على أن يفسدوا والعابثين بالأخلاق على أن يعبثوا بالأخلاق .

وكانت هذه الحكومة قد ظفرت فى وقت من الأوقات بطائفة من الآثمين سعى بعضهم ببعض فقدمتهم إلى القضاء ، وأجرى فيهم القضاء أمر القانون حازما صارما ، ليست فيه هوادة ولا لين . فراع هذا الحكم غير هؤلاء الآثمين من الناس فانقطعت السعاية ووقفت الوشاية ، وأمن الأبرياء من أن يزجوا فى أعماق السجون أشهرا حتى يظهر القضاء براءتهم ، وعمى أمر المجرمين على الشرطة ، ولم تمكنها وسائلها الخاصة من أن تستكشف هؤلاء المجرمين بنفسها فسعت وألحت فى السعى ، وطلبت وألحت فى الطلب حتى صدر العفو عن أشد هؤلاء الآثمين إثما ، وأكثرهم إغراقا فى السعاية والوشاية والكيد فحطمت عنه الأغلال وانحلت عنه السلاسل ، وانفرجت عنه أبواب السجون وانطلق حرا يستمتع بما يستمتع به الناس من الحياة والضوء والهواء الطلق ومنح حظه من مكافأة كانت قد أرصدت لمن يدل الشرطة على الآثمين .

كان مقضيا عليه بالأشغال (١) الشاقة خمسة عشر عاما ، فقضى فيها أحد عشر شهرا ، وخرج فإذا بألف من الجنيهات تنتظره على باب السجن أو فى مكتب من

---

(١) المراد هو إبراهيم الفلاح ، مجرم من أرباب السوابق استغله سليم زكى رئيس القلم السياسى فى ارتكاب جنايات والصاقها ببعض رجال الوفد . وقد نظرت هذه القضايا أمام محكمة الجنايات دائرة محمود غالب بك الذى تنحى عن نظر هذه القضايا بعد مشادة عنيفة بينه وبين محمود منصور رئيس نيابة مصر .

مكاتب الإدارة ليذوق لين العيش بعد خشونته ، ولذة الحياة بعد آلامها ، وليكون غنيا بعد فقر ، ناعما بعد بؤس ، سعيدا بعد شقاء . والعفو فضيلة من الفضائل يحمد الناس إن آثروها ولاسيما إن آثروها وهم قادرون على البأس والبطش . فمن الحق أن يحمد لهذه الحكومة التماسها العفو عن هذا السجين ، وقد كانت قادرة على أن تبقيه فى السجن . والجود فضيلة من الفضائل يحمد الناس إن آثروه ، ولاسيما إن آثروه وقت الحاجة إليه . فمن الحق أن تحمد الحكومة حين تمنح هذا البائس ألفا من الجنيهات ، وقد كان محروما لايجد ماينفق بعد أن انفرجت عنه أبواب السجون .

= قالت صحيفة الكوكب (٥ — ٨ — ١٩٣٣) وقد صدرت عن حضرة رئيس هذه الدائرة عبارات قضائية سجلت فى تاريخ المحاكمات الهامة منها (لايهمنا) أن تلغى أحكامنا أولا تلغى وإنما يهمنا أن تستريح ضمائرنا وقد أثبت رئيس الدائرة فى جلسة التنحى مانصه (قد اجتمع لدى من الأسباب مايحملنى على التنحى عن نظر هذه القضية وأرى من الحكمة أن أمسك عن ذكر هذه الأسباب ويكفى أن اشير إلى أنى لم أخضع فى تصرفى هذا إلا لسلطان ضميرى . وأبدى أسفى لما يترتب على هذا التصرف من تأخير النظر فى القضية حتى يعين من يخلفنى » .

وحينئذ توجه المحامون فى هذه القضية بكلمات الأسف لوقوع هذا الحادث فقال غالب بك « أنا شاكر فضلكم وآسف لوقوع هذا الحادث وأعتقد أن حسن ظنكم جعلكم تبالغون فى التقدير » .

ثم نظرت القضية أمام دائرة محمد نور بك وكان سليم زكى حاضرا فاتجه إليه المتهم ابراهيم الفلاح وصاح به : ياسليم بك أنا عارفك وأنت عارفنى ، حرام عليك ، الله يخرب بيتك . روح يامزور ، ياملفق وقال رئيس الدائرة : ياسليم بك ، يجب أن تعلم أنك أخطأت أنت ورجالك خطأ كبيرا »

وقضت المحكمة بمعاقبة ابراهيم عبده الشهير بالفلاح بالأشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاما عن جرائم الاتفاق الجنائى وإتلاف منقولات مملوكة لمصلحة التليفونات ، واشتراكه فى الشروع فى تعطيل سيرقطارات السكة الحديد بمصر واشتراكه فى الشروع فى قتل معالى رفعت باشا عمدا مع سبق الإصرار ، وإستعمال مادة مفرقعة فى منزل سعادة علام باشا واشتراكه فى صنع القنبلة التى استعملت فى المنزل المذكور . وبراءته من بقية التهم المسندة إليه » « كوكب الشرق فى ٢٧ — ٩ — ١٩٣٢ »

وقد علق محمد على علوبة باشا على هذا الحكم بقوله : « إنى أحمد الله على أن هذه القضية التى أخذت وقتا طويلا قد تطورت وانكشفت بعض حقائقها وخرج أعضاء الوفد أبرياء من التهم التى لفقها بعض المتهمين وبعض الشهود . وقد لاحظت فى هذه القضية أن ابراهيم الفلاح قد اتخذ له موقفين ربما ظن أنهما من المهارة وقوة الحيلة: موقفا شخصيا يبرىء أعضاء الوفد ويخالف فيه الدفاع عنه الذى كان يرمى إلى تلويثهم ولكن أراد الله فى آخر لحظة أن يعلن الفلاح براءته مما قيل باسمه على لسان الدفاع . ولايصح لنا أن نتكلم عن هذه القضية دون أن نظهر آلامنا من تصرفات رجال البوليس السياسى وإنى آسف كل الأسف لأنى قد رأيت فى هذه القضية أمورا لا يصح السكوت عليها ، ذلك أن رجال البوليس السياسى قد أحاطوها بسياج ظنوا أنه يحول بين الناس ومعرفة الحقيقة » الأهرام فى ٢٧ — ٩ — ١٩٣٢ .

وقد صدر عفو ملكى عن المتهم ومنح ألف جنيه مكافأة على الرغم من الحكم الذى أدانه ، وهذا من عجائب وزارة إسماعيل صدقى باشا ، إنه منتهى الاستهتار بالعدالة .

ولكن العفو فضيلة حين يقصد لنفسه ، وحين يراد به وجه الله . والجود مأثرة حين يقصد لنفسه وحين يراد به رفع الكرب عن المكروبين ، ورد الحرب عن المحروبين . فأما إذا طلبت العفو لتغرى بمثل ماتورط فيه هذا الذى طلبت العفو عنه من سعاية ووشاية وكيد . فأما إن أنعمت لتغرى بمثل ماتورط فيه هذا الذى أنعمت عليه من سعاية ووشاية وكيد ، فأنت لم تؤثر عفوا ، ولم تصطنع جودا ، وإنما عرضت الأخلاق لشر عظيم ، ووضعت ضمائر الناس فى الأسواق للبيع والشراء وفتحت على الأبرياء الآمنين أبوابا من الشر منكرة ، لا سبيل إلى أن تغلق إلا بعد الكد والجهد ، وبعد المشقة والعناء ، وبعد أن يبلى عدل القضاء فى ذلك بلاء حسنا عظيما معقدا أشد التعقيد . واتخذت الفضيلة وسيلة إلى غير الفضيلة ، والمعروف وسيلة إلى غير المعروف . وأفسدت على الناس قيم الأشياء ، وشككت الناس فى الخير والشر ، وجعلتهم خليقين أن يزدروا الاستقامة ، ويؤثروا عليها الاعوجاج ، وأن يعافوا البر ويؤثروا عليه النكر ، وأن يسألوا أنفسهم : أيهما ينبغى أن نصدق ؟ أهو ما تنبئنا به كتب الدين والأخلاق من أن البر والخير والمعروف وحسن السيرة واستقامة المسعى أمور تليق بكرامة الناس وأتقيائهم ، وتضمن لهم رضا الله ومثوبته ؟ أم هو ما يغرينا به مثل هذا الحلم ومثل هذا الجود من إيثار السعاية والوشاية وحب الدس والكيد ، ونصب الحبائل للأبرياء ، أيهما ينبغى أن نسمع له ونصغى إليه ؟ أهو هذا الذى يقال من أن الحكومة فى البلاد المستنيرة المؤمنة إنما أنشئت لتقيم العدل بين الناس بالعدل ، لا بالجور ، ولتكشف شر الناس عن الناس بالقسط لا بالظلم ، ولترغب الناس فى الخير وتعينهم عليه وتمكنهم منه ، أم هو هذا الذى يلقيه فى روعنا مثل هذا الحلم ومثل هذا الجود من أن الغاية تبيح الوسيلة ، ومن أن الحلم يمكن أن يبذل ثمنا للكيد ، ومن أن الجود يمكن أن تشترى به السعاية والوشاية والشر .

كل هذه الخواطر تضطرب بها نفوس المصريين جميعا منذ أمس ، وتخفق لها قلوب المصريين جميعا منذ أمس ، وتتحدث بها ألسنة المصريين جميعا منذ أمس . فإن هذه الخطوة التى خطتها الوزارة حين استصدرت العفو عن هذا السجين البائس قد تفيد — على شك كثير فى ذلك — فى إعانة الشرطة على استكشاف من أعجزها استكشافه من الآثمين ولكنها ستضر أكثر مما تنفع ، وستفسد أكثر مما تصلح ، وستغرى الناس بالشر أكثر مما تنهاهم عنه ، وسترغب الناس فى الأثم أكثر مما تنفرهم منه . ويكفى أنها ستشكك الناس تشكيكا فظيعا مخيفا فى هذا الذى تجرى به ألسنة الوعاظ والأتقياء والمعلمين والمؤدبين من صنع الخير والثناء عليه ، ومن الإشادة بحسن السيرة ، ونقاء الضمير . وكم كنا نحب أن تفكر الوزارة فتحسن التفكير ، وأن تروى الوزارة فتحسن

التروية ، وأن تسأل الوزارة نفسها أيهما أحق بالعناية وأولى بالرعاية ؟ أهو استقامة الأخلاق العامة ، وطهارة ضمائر الناس ، أم هو إعانة الشرطة من طريق معوجة ملتوية على ما عجزت عن الوصول إليه .

أما نحن فنعتقد اعتقادا لايشوبه الشك أنه قد كان على الوزارة واجب قصرت فيه ، وهو أن تتبين الأسباب التى دعت إلى عجز الشرطة فتغيرها . وأكبر الظن أن هذه الأسباب موجودة فى الشرطة نفسها وفيما تجرى عليه من نظام ، فلو قد غيرت الوزارة من نظام الشرطة ما ظهر أنه سبيل إلى هذا العجز لكان هذا خيرا للأمة والحكومة معا ، ولكان هذا أبقى على دين الناس وأخلاقهم ورأيهم فى قيمة الدين والأخلاق .

ماكان أجدر الوزارة بأن تعرض عن نصح هؤلاء الناصحين الذين يخيلون إليها أنها وجدت لنفسها لا للناس ، وأن كل وسيلة مهما تكن فهى مشروعة ما دامت تمكنها من الحياة وطول البقاء . إن هذه الخطوة التى خطتها الوزارة تضيق بشىء ، فهى تريد أن تخلص من هذا الضيق دون أن تفكر فى قيمة الوسائل التى تتخذها للخلاص من هذا الضيق .

إن هذه الخطوة التى خطتها الوزارة أمس دليل واضح على أنها تؤثر بقاء نفسها وراحتها على أمن الناس وراحتهم واطمئنانهم إلى ما يأمر به الدين ، وما تأمر به الأخلاق .

أما وقد فتحت الوزارة هذا الباب فتستطيع أن تثق منذ الآن أنها فتحت بابا عظيما من أبواب الشر ، وبأن كثيرا من الأبرياء الوادعين سيلقون من صروف الكيد وصنوف الدس ما ينغص عليهم الحياة ، وبأن القضاء نفسه سيلقى من الجهد والمشقة ضروبا وألوانا ليستنقذ الأبرياء من حبائل الساعين والواشين ، وليفرق بين هؤلاء الذين قد يقدمون إليه ظلما ، وقد يذوقون عذاب السجن ظلما ، وبين هؤلاء الذين سيقدمون إليه وهم أهل لما أرصد القانون من عقاب الآثمين .

صحـــة

صحة رئيس الوزراء جيدة ، والله عز وجل ، خليق أن يحمد على ذلك . والله عز وجل خليق أن يمن على رئيس الوزراء من هذه الصحة الجيدة بالمزيد ، ولكن رئيس الوزراء مازال بعيدا عن مصر ، معتزلا للعمل ، يتنقل فى طلب الراحة بين المدن والقرى فى فرنسا وسويسرا ، برغم صحته الجيدة ، لأن حظه من هذه الصحة الجيدة لم يبلغ بعد أن يمكنه من العودة إلى مصر والنشاط للعمل ، والأخذ فى تصريف الأمور .

وصحة وزير التقاليد جيدة ، ولكنه مقيم الآن فى فيتل ، يستحم فى الصباح ، ويستحم فى المساء طلبا للراحة والاستشفاء .

وصحة وزير الزراعة جيدة ، ولكنه يطوف أقطار الأرض فى رحلة بعضها للاستشفاء وبعضها للاستكشاف . وقد حدثتنا الأنباء بأنه فى بوادبست يلقى ما هو أهل له من الإكبار والتكريم قبل أن يسعى إلى تلك المدينة أو إلى تلك القرية التى يجد فيها ما هو فى حاجة إليه من الراحة والاستشفاء .

وصحة وزير الداخلية جيدة ولكنه مقيم فى داره ، لازم لها منذ أيام يصرف منها الأمر ، ويدبر منها شئون وزارته بمقدار ما تسمح له صحته الجيدة .

فأربعة من وزرائنا بينهم صاحب الدولة الرئيس يستمتعون – والحمد لله – بصحة جيدة ولكن ثلاثة منهم لا يعملون ، لأنهم فى حاجة إلى الراحة التامة وقتا طويلا أو قصيرا . ورابعهم يعمل نصف عمل أو أكثر من نصفه قليلا أو دون نصفه قليلا . وأمور الدولة فى حاجة واضحة ملحة إلى أن يفرغ لها وزراؤنا العشرة بياض النهار ونصف سواد الليل ، أو أكثر من نصفه قليلا أو دون نصفة قليلا .

كوكب الشرق فى ١٠ – ٨ – ١٩٣٣

فالأمن مع الأسف مضطرب[1] أشد الاضطراب ، يقتل الناس ويصرعون وتقتحم الدور ، ويؤخذ ما فيها ، والنهار مبصر ، وعدد الجند قليل . والأجنبى باسط يديه إلى أقصى ما يستطيع أن يبسطهما ، يعتدى على المصريين فى دينهم وأخلاقهم وأعراضهم وقوميتهم . والناس يصيحون فلا يسمع لهم أحد ، ويستغيثون فلا يستجيب لهم مغيث . وفرنسا تأبى وتشارك إيطاليا فى هذاالإباء إلا أن تؤدى مصر دينها ذهبا ، لا تقبلان كلاما فى الورق ، ولا تظهران ميلا إلى ذكره أو التحدث فيه . وتستطيع أن تحصى ما شئت من هذه الأخطار والمعضلات التى يكفى بعضها لتفرغ له الوزارة بياض النهار وسواد الليل . فكيف بها إذا اجتمعت وانضم بعضها إلى بعض ، وزاد بعضها فى تعقيد بعض .

فإذا أضفت إلى هذه المعضلات أعظمها شرا وأشدها نكرا ، وهو هذه الأزمة الاقتصادية التى لا تريد أن تنحل حتى تأتى فى مصر على كل شىء ، عرفت أن جهود الوزراء مهما تكن فهى أيسر وأضعف من أن تكفى لعلاج ما نحن فيه من الشر ، فكيف إذا كانت هذه الوزارة عاجزة حتى عن بذل الجهد ، ممنوعة بحكم المرض والسفر والرغبة فى الراحة والسياحة حتى من أداء واجبها على النحو اليسير المألوف الذى تؤدى عليه الواجبات فى الأيام العادية التى لا تتعرض فيها البلاد لشر ، ولا يأخذها الخطر من كل مكان .

ولكن الوزارة – والحمد لله – راضية عن نفسها ، مطمئنة إلى هذا التوفيق الذى ظفرت به فى دفع هذه الأخطار ، وحل هذه المشكلات . وأى دليل أوضح ، وأى برهان أجلى على أنها قد وفقت كل التوفيق من أنها لا تزال قائمة مستمتعة بمناصب الحكم ، مسيطرة على أمور الدولة وشئونها كلها كأحسن ما تسيطر الوزارات على الأمور . فليس المهم فيما يظهر أن يأمن الناس على أنفسهم وأموالهم ، ولا أن تأمن مصر على ميزانيتها ، ولا أن تأمن مصر على كرامتها وحرماتها ، ولا أن تنفرج الأزمة عن المصريين قليلا أو كثيرا . ليس هذا هو المهم فيما يظهر ، وليس هذا هو المقياس الذى به نجاح

---

(١) كثرت الحوادث الجنائية فى الأقصر فمنها حادثة السطو على سيارة البعثة الأمريكية وإطلاق الرصاص على سائقها . ثم قتل المرحوم الشيخ أحمد محمد خليفة من أعيان الجهة فى وضح النهار . وجناية فظيعة تقشعر منها الأبدان ، فقد قتل جناة متوحشون شابا من الوجه البحرى وفصلوا رأسه وقطعوا جسمه ثم وضعوه فى كيس وألقوا به بعد ذلك فى ساقية . فعرفت الجناية بعد أن تعفنت الجثة فى الماء .

وهاجمت جماعة مسلحة من اللصوص فى منتصف الليل منزل الشيخ يوسف أحمد حسن وبعد أن سلبوا حلى زوجته ربطوها بالحبال ، ثم أشعلوا النار فى المنزل (البلاغ فى ٢٨ – ٧ – ١٩٣١)

الوزارات وتوفيقها . وإنما المهم الذى ليس فوقه مهم ، والمقياس الذى ليس يشبهه مقياس لصلاح الوزارات ونجاحها هو بقاؤها فى مناصب الحكم . فما دامت وزارتنا باقية فهى موفقة كل التوفيق ، فائزة كل الفوز ، كذلك تقول صحيفة الوزارة صباح اليوم .

وصحيفة الوزارة مصيبة فيما تقول ، مصيبة حقا لا شك فى ذلك ولا ريب . فإذا لم يكن بد من أن نقيم لك الدليل على أنها مصيبة جد مصيبة فينبغى أن نذكر هذه النظرية التى مهما ينكرها رجال الدين فهى نظرية علمية على كل حال ، وهى نظرية دروين فى بقاء الأصلح ، فلولا أن الوزارة صالحة ما بقيت ، ولولا أن الوزارة قد وصلت إلى أقصى حدود الصلاح ما طال بقاؤها . وإذن فينبغى أن تستحى المعارضة وأن يستحى المعارضون ، وأن يؤمنوا بأن الوزارة القائمة إنما هى ضربة لازب على مصر ، لا مهرب منها ، ولا سبيل إلى التخلص من بقائها لأنها نتيجة طبيعية لتنازع البقاء ، ولبقاء الأصلح . بل ينبغى أيضا فيما ترى صحيفة الوزارة أن تقدر المعارضة والمعارضون لرئيس الوزراء ولزملائه جهادهم فى سبيل مصر وما بذلوا وسيبذلون من التضحية فى هذا الجهاد . فلو قد كانت أمور مصر إلى رجل غير صدقى باشا لآثر الراحة على العمل ، والصحة على المرض ، والاستقالة على النهوض بأعباء الحكم بعد أن ألم به هذا الطائف الثقيل الذى اضطره إلى داره شهرا ، والذى يضطره الآن إلى الاستشفاء من وراء البحر .

ولكن رئيس الوزراء يؤثر الشعب(١) على نفسه ، ويؤثر سعادة مصر على سعادته ، وراحة مصر على راحته فيتحمل المرض الطويل ولا يستقيل ، وإن لم يعمل شيئا أثناء هذا المرض الطويل . وأن يتقاضى أجره على الراحة أثناء هذا المرض الطويل وإن كلف الدولة أموالا للاستشفاء من هذا المرض الطويل فيكفى أنه جمع بين المرض والاحتفاظ بالمنصب ليكون مؤثرا لمصر على نفسه ، مضحيا فى سبيل مصر بأحب الأشياء إليه وأعزها عليه .

وأبلغ من هذا كله أن رئيس الوزراء سيعود إن شاء الله موفور الصحة فى آخر الشهر المقبل فيستأنف العمل فى الاسكندرية . وقد حدثتنا الصحف أنه تقدم أو سيتقدم إلى زملائه بأن تبقى الحكومة فى الاسكندرية ما أقام فيها حضرة صاحب الجلالة الملك حتى لا يتكلف الرئيس الانتقال إلى القاهرة قبل أوانه ، ولا يحتمل السفر قبل إبانه . ومعنى ذلك أن الدولة ستتكلف ما تتكلف من الإنفاق عليه وعلى زملائه هذه النفقات الإضافية

---

(١) الأصل الصمت ولعل الصواب ما أثبتناه

التى تستلزمها إقامة الحكومة فى الإسكندرية حرصا على صحته وتمكينا له ولزملائه من التضحية فى سبيل مصر والاستمرار فى إيثار مصر على أنفسهم وراحتهم

فإذا كانت هذه الجهود الموفقة ، واذا كانت هذه التضحيات المرهقة لا ترضى مصر ولا تكفيها فويل لمصر من الجحود ، وويل لمصر من العقوق ، وويل لمصر من إنكار الجميل .

أما أنا فأشهد أن الوزارة مجاهدة ، وأن الوزارة مضحية ، وأن مصر خليقة ان تعرف لها هذا الجهاد وتحمد لها هذه التضحية ، وتمد لها فى أسباب هذا البقاء المريح الطويل لتضيف جهادا إلى جهاد ، وتضحية إلى تضحية .

وإذا عاد رئيس الوزراء سالما موفورا إن شاء الله فإن مصر خليقة أن تحوطه وترعاه ، وتسهر على راحته فى الاسكندرية حتى إذا لم يبق بد من عودة الحكومة إلى القاهرة فإن مصر خليقة أن تضرع إلى رئيس الوزراء فى أن يعود إلى أوربا ليستريح فى الشتاء كما استراح فى الصيف . وما أجمل الشتاء فى « نيس » أو قريبا من « نيس » وما أشد عقوق مصر إذا لم تلق الجميل بالجميل ، والخير بالخير ، ولم تبذل ما تملك وما لا تملك لتمكن رئيس وزرائها من أن يجاهد فى سبيلها جهادا متواصلا ، ويضحى فى سبيلها تضحية لا آخر لها .

يجب أن يطمئن أنصار الوزارة فمصر أكرم على نفسها من أن تأثم فى حق المجاهدين ، ومصر أعز على نفسها من أن تنكر فضل المضحين . ومصر تعرف كيف تكافىء الذين أخلصوا لها وتجزى إخلاصا بإخلاص ، وتضحية بتضحية فيستمر رئيس الوزراء محتفظا بمنصبه أعواما وأعواما . ومهما يحاول رئيس الوزراء أن يستقيل فلن تقبل مصر أن يستقيل . وكيف تقبل مصر أن يستقيل ؟ ومتى بلغت مصر من السذاجة والغفلة أن تفرط فى رجل جاهد فى سبيلها وضحى كما يجاهد رئيس الوزراء ، ويضحى منذ ألم به هذا المرض البغيض الثقيل .

إلحاح

يظهر أنه سيتصل وسيتصل حتى يفتح الله على الوزارة وعلى هيئة كبار العلماء بما يخرجها من هذا الصمت المريب ، ومن هذا السكون الذى لا يستطيع مسلم ولا مصرى أن يرضى عنه أو يطمئن إليه . فقد ينبغى أن تعلم الوزارة وأن تعلم هيئة كبار العلماء أن الشعب المصرى ليس طفلا يمكن أن يكسب رضاه وينال إقراره بالمطاولة والمماطلة ، أو بالتعلة والتلهية والاستعانة بالنسيان . وقد ينبغى أن تعلم الوزارة وأن تعلم هيئة كبار العلماء أن الذين يخاصمونها فى أمر التبشير والمبشرين لا يريدون لهوا ولا لعبا ، ولا يريدون كلاما ينفق الوقت فى كتابته وينفق مع هذه الأشياء التى يمضى بها كر الغداة ومر العشى دون أن ينتج أثرا ، إنما هم يريدون الجد كل الجد ، ويكتبون ليروا نتيجة ما يكتبون . فإن ظفروا بهذه النتيجة فذاك وإلا فهم ماضون فى المطالبة بالحق والدعوة إلى أداء الواجب ، وليس يضرهم أن تضع الوزارة أصابعها فى آذانها ، ولا أن تعرض هيئة كبار العلماء كأنها لا تسمع ولا تقرأ ، فهم إن فاتهم استماع الوزارة والهيئة لهم فلن يفوتهم أن الناس يقرأون ويفقهون ويعلمون بعد القراءة والفقه ، وبعد التدبير والتفكير أين يكون الدفاع عن الحق والنهوض بأداء الواجب وصون الحرمات ، والذود عن الكرامة . أعند الذين يعلنون أنهم ناهضون بذلك ، جادون فيه ثم لا يبلغون منه شيئا ، ولا يحققون منه قليلا ولا كثيرا . إنما هو كلام يتبعه كلام وإعلان يليه إعلان ؟ أم عند الذين يطالبون بالحق وهم لا يملكون إلا المطالبة به ، ويدعون إلى الواجب وهم لا يملكون إلا الدعوة إليه ، ويبذلون ما يملكون من قوة وجهد لتشجيع الذين يؤدون الحق إلى أهله وتأييد الذين ينهضون بالواجب وهم مخلصون ؟

مسألة لابد من أن يتبين فيها موقف الوزارة وموقف الشيوخ على أوضح صورة وأجلاها ، لأنها لا تحتمل غموضا ولا إبهاما ، ولا تقبل مماطلة ولا التواء . فإما أن تعمل

كوكب الشرق فى ٩ - ٨ - ١٩٣٣

الوزارة والهيئة فنشكر لهما مخلصين ماتعملان . وإما أن تقول الهيئة والوزارة فنعرف مدى ماتستطيعان أن تعملا . فأما السكوت والسكون ، فأما الصمت والجمود فلن يفهم الناس منهما إلا أن الوزارة والهيئة عاجزتان كل العجز عن أوجب ماينبغى أن تنهضابه أو مقصرتان كل التقصير عن النهوض بأوجب ماأنشئتا من أجله . وكلا الأمرين شر ، وكلا الأمرين خليق أن يلزم الوزارة والهيئة التنحى عن هذا العمل الذى لاتستطيعان أولا تريدان أن تنهضا به .

نريد أن نعلم أكانت باطلة هذه الأحكام الشرعية التى أصدرها القضاء الإسلامى فى أمر نظلة غنيم أم كانت صحيحة ؟ فإن تكن باطلة فما بال الوزارة وهيئة كبار العلماء لاتعلنان بطلانها إلى الناس ليعلموا أن سكوتهما ليس عن عجز ولا عن تقصير ، وإنما هو عن بغض للباطل وحب للحق وحماية للعدل وصيانة للقانون ؟ وإن كانت صحيحة فما بالها لم تنفذ إلى الآن ؟ وماهذه القوة الغريبة القاهرة التى تشل يد الوزارة وتحول بينها وبين إنفاذ هذه الأحكام ؟ ثم نريد أن نعلم فيم وجد القضاء فى مصر ؟ أوجد ليصدر أحكاما تعطل أم وجد ليصدر أحكاما تنفذ ؟ فإن تكن الأولى فما بال الوزارة لاتعلنه إلى الناس حتى لايمنوا أنفسهم بالإنصاف والعدل اللذين يطلبونهما عند القضاء مادام القضاء يؤدى واجبه فيقضى بالإنصاف والعدل ثم لاتمضى السلطة التنفيذية ماقضى به ، وإن تكن الثانية فما بال هذه الأحكام التى أصدرها القضاء معطلة تنتظر التنفيذ ، مهملة تنتظر الاحترام ؟ أعطلت عن عمد أم عطلت عن كره من الوزارة ؟ ومن الذى يكره الوزارة على أن تعطل أحكام القضاء ؟ وتهمل تنفيذ القانون ؟ أمصرى هو أم أجنبى ؟ فإن يكن مصريا فمن هو ؟ وماسلطانه ؟ وكيف يتاح لمصرى أن يكون سلطانه فوق سلطان الدولة ؟ وأن يكون قادرا على تعطيل الأحكام وإهمال القانون ؟ وإن يكن أجنبيا فمن هو ؟ وبأى قوة يستطيع الأجنبى كائنا من كان أن يدخل بين المصريين إلى هذا الحد ، وأن يكره الوزارة المصرية على إهمال قوانينها وتعطيل أحكام القضاء ؟

كل هذه مسائل لابد من أن تجيب عنها الوزارة ، ولابد من أن يجيب عنها الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن الوزارة ، والدعوة لها وإليها . فإن من العسير أن تعلن الوزارة ألف مرة ومرة فى البرلمان وبعيدا عن البرلمان أنها ستحمى الإسلام من كل عدوان ، وستقف أمر المبشرين عند حده ، وستؤدى من ذلك مايرضى الله ويرضى المسلمين . كل هذا يسير ، ولكن الشيء الذى يريده الناس ولايؤمنون إلا به ولا يطمئنون إلا إليه هو أن تبر الوزارة بالوعد حين تعد وأن تعمل الوزارة حين تقول . ومهما يقل دعاة الوزارة

وأنصارها إنها قد أخذت فى إنشاء الملاجىء وبثها فى أقطار مصر فلن يبلغوا من رضا الناس ولا من صرفهم عن هذه القصة التى بين أيدينا شيئا . فإنشاء الملاجىء كما قلنا واجب اجتماعى لامندوحة لأى وزارة من الوزارات عن أن تنهض به سواء أوجد المبشرون أم لم يوجدوا ، فهو ليس مقاومة للمبشرين ، وإنما هو احتياط لابد منه لاتقاء المبشرين وغير المبشرين من الآفات الاجتماعية . إنما المقاومة الصحيحة للمبشرين هى هذه التى نطلبها حين نلح فى فرض المراقبة عليهم ، وفى رفع أيديهم عن أبناء المصريين وبناتهم ، وفى استنقاذ هذه الأسيرة التى لم يجعل الله لغير المسلمين عليها سبيلا .

فليظهر وزير الداخلية ووزير الحقانية أنهما جادان حقا فى مقاومة التبشير ، ناهضان حقا بما يفرض عليهما منصب الوزارة من إمضاء أحكام القضاء ، ومن إنقاذ القانون وحماية النظام . وإنه لكثير جدا أن نلح نحن فى ذلك ، وأن يلح فيه غيرنا من الكتاب الذين لم يحتكر لهم أحد حماية الإسلام ، ولم ترزقهم الدولة أجورهم على أنهم علماء الدين وحماة الإسلام ، وأن يظل هؤلاء الحماة من العلماء فى هذا الصمت الرائع والسكوت العميق .

هذا كثير ، وأكثر منه أن يعتقد العلماء أن الناس سيسمعون لهم إذا قالوا إنهم حماة الإسلام ، وسيؤمنون لهم إذا قالوا إنهم ورثة الأنبياء .

حماة الإسلام وورثة الأنبياء المستأثرون بالدعوة إلى سبيل الله والذود عن دين الله . هم هؤلاء الذين يلحون على الوزارة ويلحون ، ويمضون فى الإلحاح حتى تنفذ الوزارة أحكام القضاء الإسلامى فإن أعياهم ذلك أعلنوا إلى الناس أنهم قد أدوا الواجب وأبرأوا الذمة ونصحوا لله ورسوله وللمسلمين .

فلتفكر الوزارة فى هذا كله ، وليفكر العلماء فى هذا كله ، ولتعلم الوزارة والعلماء أن المصريين لن يناموا ولن ينسيهم الصمت والإعراض ولن يرضوا إلا أن يعلموا عن ثقة ويقين أهم من أمر التبشير والمبشرين فى هزل أم فى جد .

استعـــداء

فى صحف الوزارة منذ اليوم وقبل اليوم سخط شديد على الذين يخاصمون علماء الإسلام ومصابيح الظلام ، وأعلام الهدى ونجوم الدجى . وفى صحف الوزارة بغض شديد لهؤلاء الذين يخاصمون علماء الإسلام ومصابيح الظلام وأعلام الهدى ونجوم الدجى . وفى صحف الوزارة تصريح وتلميح بأن الذين يخاصمون العلماء إنما يخاصمون الإسلام ، لأن العلماء هم مظهر الإسلام ، ومظهر كرامته ، وهم حماة الإسلام والذادة عنه . فمن شك فيهم فقد شك فى الإسلام ، ومن أثار حولهم الشك فقد أثاره حول الإسلام .

وفى صحف الوزارة استعداء لأولى الأمر على هؤلاء الذين ينالون بالنقد الهين أو الشديد علماء الإسلام ومصابيح الظلام ، وأعلام الهدى ونجوم الدجى لأن حماية العلماء هؤلاء حماية للإسلام .

وفى صحف الوزارة مع هذا الصياح الطويل الملح صمت ليس أقل منه طولا ، ولا إلحاحا عما تورط فيه علماء الإسلام ومصابيح الظلام وأعلام الهدى ونجوم الدجى من الصمت على تعطيل الأحكام الشرعية وبقاء امرأة مسلمة عند رجل من غير المسلمين ، لايحل له أن يمسكها ولايحل لها أن تبقى عنده . ولايحل لحكومة إسلامية أن تقر اتصالها به ، وخضوعها له . ولايحل لعلماء الإسلام ومصابيح الظلام وأعلام الهدى ونجوم الدجى أن يقروا الحكومة إن صبرت على هذا الإثم أو عجزت عن رفع هذا الشر ، لأن نص القرآن صريح لايحتمل تأويلا ولاتبديلا . ولأن نص القرآن واضح لاسبيل إلى الفرار منه . فيجب أن نعلم أى الناس أشد إثما : أهم الذين يريدون أن يقوموا ما فى علماء الإسلام من عوج ويسلكوا بهم الطريقة الواضحة المستقيمة للدعوة إلى سبيل الله والذود عن دين الله ؟ أم هم الذين يظاهرون العلماء على ماتورطوا فيه من الصمت على مالايرضاه الله ورسوله والمسلمون ؟ وأى الناس أحق أن يستعدى عليه أولو الأمر فى بلد

كوكب الشرق فى ١٠ - ٨ - ١٩٣٣

إسلامى يعلن أن الإسلام هو دينه الرسمى : أهم الذين يدعون إلى أن تنفيذ أحكام الله دون أن يعترضها معترض وإن كان المجلس الانجيلى ؟ أم هم الذين بسكتون على تعطيل هذه الأحكام وقيام المجلس الملى من دونها ، ويطلبون إلى الحكومة الإسلامية أن تبطش بالمدافعين عن الإسلام ؟

لصحف الوزارة منطق خاص تقدم به الأشياء إلى وراء ، وترفع به الأشياء إلى تحت ، ولكن منطق هذه الصحف لايعنينا ، ولغو هذه الصحف أيسر عندنا وأهون علينا من أن نقف عنده ونلتفت إليه . وإنما الذى يعنينا ويدعونا إلى التفكير هو منطق الوزارة وهيئة كبار العلماء . فقد قلنا لهما ومازلنا نقول إن المصريين لن يرضوا أن تمضى قصة نظلة غنيم كما يراد أن تمضى فريسة للصمت العميق والسكوت الطويل ، بل سيذكرونها وسيذكرون بها حتى يعلموا ماذا فعلت الوزارة والهيئة فى أمرها .

فأما الوزارة فمسئولة عن شيئين : الأول حماية الإسلام الذى أخذت نفسها بحمايته . والثانى تنفيذ القانون الذى أنشئت لتنفيذه . فنحن نريد أن نعلم إلى أى حد وصلت من حماية الإسلام وتنفيذ القانون فى قصة نظلة غنيم . ونحب أن نعلم : أراضية هى بخضوع هذه الفتاه المسلمة لغير المسلمين برغم أحكام الإسلام أم ساخطة ؟ فإن كانت راضية – ونحن نؤكد أنها غير راضية – فقد وعدت بحماية الإسلام ، ثم لم تحمه ، وأقيمت لتنفيذ القانون ثم لم تنفذه . وإن كانت ساخطة – ونحن نؤكد أنها ساخطة – فماذا فعلت لترفع أسباب هذا السخط ؟ وما الذى يمنعها أو يعجزها عن رفع هذه الأسباب ؟

وأما هيئة كبار العلماء فنؤكد أن المسلمين لم يضربوها على يدها – كما يقول العامة – لتأخذ على نفسها هذا العهد الغليظ الذى أعلنت فيه إلى الناس أنها قامت للدعوة إلى سبيل الله ، والذود عن دين الله ، إنما أخذت على نفسها هذا العهد حرة مختارة ، لامدفوعة إليه ، ولامكرهة عليه . والله – عز وجل – يأمر المسلمين أن يوفوا بعهد الله إذا عاهدوا ، ولا ينقضوا الايمان بعد توكيدها . وإذن فمن حق المسلمين أن يطالبوا الهيئة الموقرة بالوفاء ، وأن يضنوا بالهيئة المقصرة على أن تنقض العهد أو تحنث فى اليمين .

والإسلام الذى نهضت الهيئة لحمايته والذود عنه فى حاجة إلى حماية سريعة من الهيئة ، فماذا فعلت فى أمر هذه المرأة المسلمة التى تنتظر من يخلصها من الأسر ويردها إلى ولاية المسلمين . نص من نصوص القرآن الكريم معطل فى بلد إسلامى ، وليس القانون هو الذى يدعو إلى تعطيله ، وليس الدستور هو الذى يدعو إلى تعطيله .. وإنما القانون

والدستور يلحان فى تنفيذه واحترامه . فنحب أن نعلم أيهما آثر عند هيئة كبار العلماء ، وعند حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر : أن يظل هذا النص الكريم معطلا أم أن تسعى الهيئة عند الوزارة سعيا حازما فى تنفيذه ، وأن تؤكد الهيئة للوزارة أن تعطيل هذا النص الكريم إذا استمر سيضطرها إلى أن تستقيل .

نحب أن نعلم أى الأمرين آثر عند الهيئة : أتعطيل نص من نصوص القرآن الكريم وحكم من أحكام الإسلام ؟ أم بقاؤها فى مناصبها عاجزة عما يجب أن تنهض به ؟

ونحن ننتظر جوابا ، وسنلح حتى نظفر بهذا الجواب ، ونؤكد للهيئة أن الاستعداء علينا سواء أصدر منها أم من صحف الوزارة لن يخيفنا ولن يثنينا عن هذا الإلحاح .

محتويات الكتاب

صفحه

طبع بمطابع



٥ جمال الشاهد — مدينة الصحفيين ت ٨١٤٢٥٩

يطلب فى مصر والشرق العربي من
دار الفرجانى - ص.ب (٢٣٨٢) مصر الجديدة - القاهرة


Bibliotheca Alexandrina
15223408